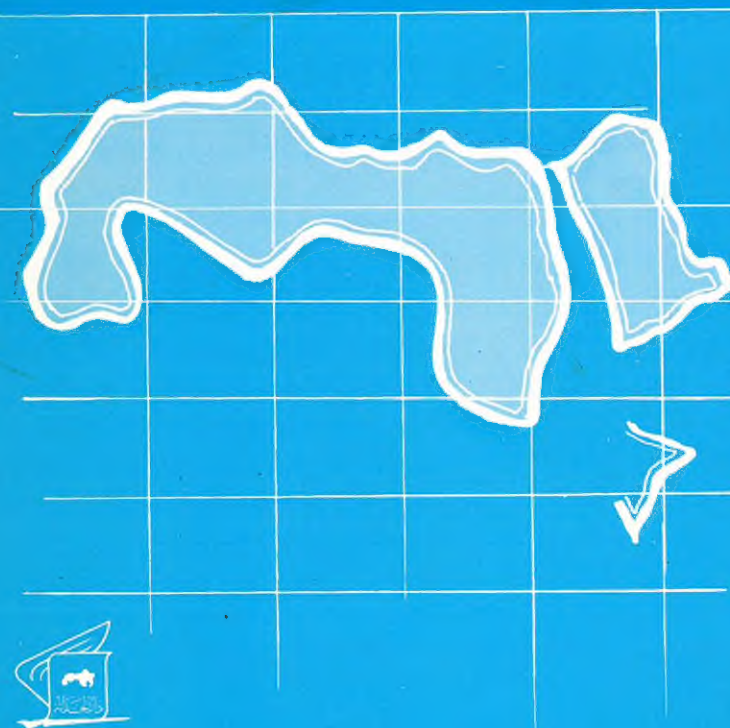


د. شاکر خصبالك

في الجغرافيه العربيه

دراسه في التراث الجغرافي العربي

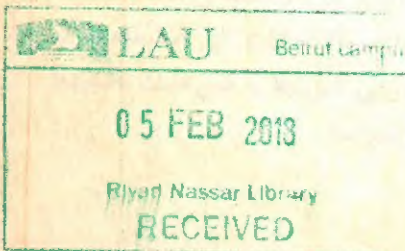


A
910
K455f

في الجغرافية العربية

دراسة في التراث الجغرافي العربي

تأليف
الدكتور شاكّر خضباك



G:4 276894

Antoine Boutsos
Library

دار الحديث
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥٣٦ - ١٤٥٣٦ - ٨٣٣٩٨٩ بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا ريب ان الجغرافيين العرب مقصرون في دراسة التراث الضخم الذي خلفه لنا الأجداد في ميدان الجغرافيا . ولا يقع هذا التقصير على عاتق الجغرافيين فحسب ، بل على عاتق بقية المختصين في الدراسات الانسانية الأخرى . غير اننا نحن الجغرافيين نتحمل العبء الأكبر . فالموضوع من اختصاصنا وقد آن الأوان لأن نوليّه قدراً أكبر من عنايتنا واهتمامنا .

ولعل مرجع هذا التقصير الى اعتقاد الكثيرين منا بأن الفكر الجغرافي العربي القديم ليس من اختصاصهم ، بل هو من اختصاص مؤرخي التاريخ الاسلامي . فالكثير من الجغرافيين العرب والمسلمين هم مؤرخون قبل أن يكونوا جغرافيين . ومع ان هذا القول صحيح الى حد ما ، الا أنه لا يعني الجغرافيين من مسؤوليتهم ، فهم أولى من غيرهم في تقدير قيمة العلم الجغرافي العربي القديم ومدى اضافاته الى الفكر الجغرافي العالمي .

وقد تعزى لا مبالاة البعض منا الى اعتقاده بأن الجغرافيين العرب والمسلمين لم يساهموا مساهمة حقيقية في تطوير الفكر الجغرافي ، وكانوا وصافين أكثر منهم مبتكرين ، مما لا يتطلب بذل عناء خاص لدراسة آثارهم . ولسنا نريد بالطبع أن نخدع أنفسنا فنزعم بأن الجغرافيا العربية قد أتت بالعجب العجائب ، وأن الطابع العلمي المتقن هو صفتها المميزة ، فالحقيقة أنها قد اشتملت على الكثير من الأخطاء ونقاط الضعف والأساطير ، الا أن الدور الذي اضطلعت به في زمنها ، والانجازات التي استطاعت أن تحققها ، والآثار التي تركتها في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط ، كل ذلك يكسبها قيمة كبيرة في تأريخ الفكر العالمي جديرة بالتمحيص والدراسة .

حقوق الطبع محفوظة لدار الحديث
طبعة الأولى - شارع مدرسة القنات
بناية جامع عويضة
تلفون : ٨٣٣٩٨٩ - ص ١٤٥٦٣٦
الطبعة الأولى
١٩٨٨

وعلى نقيض ما واجهنا به الجغرافية العربية من إهمال ، كان اهتمام المستشرقين بها عظيماً وحامساً . وقد أفرد العلامة كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) فصلاً إضافياً للحديث عن اهتمامات المستشرقين في هذا الموضوع والخدمات التي أسدوها في تحقيق ونشر ودراسة أمهات الكتب الجغرافية العربية . ومن الواضح أن قائمة أولئك المستشرقين تتضمن العشرات من الاسماء ، وهي تضم أمماً عديدة بين هولنديين وإنجليز وألمان وروس وغانساوين وفرنسيين وإيطاليين . ويأتي في مقدمة أولئك المستشرقين دي غوياورينو وبارتولد وكرامرس ونالينو وفستفلد . ولعل أعظمهم خدمة للفكر الجغرافي العربي هو المستشرق الهولندي دي غويا الذي تولى تحقيق ونشر العديد من أمهات الكتب الجغرافية العربية في سلسلة أطلق عليها اسم (سلسلة المكتبة الجغرافية العربية) . وبالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها أولئك المستشرقون في التنقيب عن كتب الجغرافيا العربية وتمحيصها ودراساتها ، فما يزال هذا الميدان يتطلب المزيد من الجهود في التفتيش عن الكتب التي تكرر ذكرها في مؤلفات القدامى ولم تر النور حتى الآن ، كما يتطلب بذل عناية أعظم في دراسة وتحليل النصوص الجغرافية من قبل جغرافيين مختصين . وهذا هو التحدي الذي يواجه الجغرافيين العرب من قبل ذلك التراث الضخم المتنوع الذي لم نف بالتزاماتنا تجاهه بعد .

إن دراسة نصوص الجغرافية العربية لا تلقي ضوءاً على حقائق الجغرافية التاريخية فحسب ، بل إنها ضرورية لفهم الكثير من جوانب التاريخ الاسلامي ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الشعوب الاسلامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . هذا فضلاً عن أهمية تلك الدراسات بالنسبة لعلم الأجناس وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع ، بل وحتى بالنسبة لعلم الآثار أيضاً .

ولقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم مساهمة متواضعة في دراسة بعض جوانب الفكر الجغرافي العربي ، وأن أمد القارئ بفكرة عامة عن الحقول الرئيسية للجغرافية العربية . والكتاب على أية حال يمكن أن يكون مقدمة أو مدخلاً لدراسات مستفيضة لكل حقل من تلك الحقول التي أرجو أن يتعهد بها المختصون بما هي أهل له من العناية والاهتمام ، والله الموفق .

بغداد

شاكر خصباك

الفصل الأول

في طبيعة الجغرافية العربية

إن دراسة طبيعة الجغرافيا العربية تقتضي مناقشة نقاط متعددة ، هي :

أولاً - نشأة الجغرافية العربية وتطورها .

ثانياً - الميادين التي طرقتها الجغرافية العربية .

ثالثاً - أثر الجغرافية العربية في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط .

نشأة الجغرافيا العربية وتطورها

درج بعض الباحثين على القول بأن الجغرافية العربية هي وليد شرعي للجغرافية اليونانية - الرومانية ، وأنها قد وقعت أثناء تطورها تحت سلطانها بصورة مطلقة . غير أن الدارس لمنشأ الأفكار والصور الجغرافية العربية يجد أن جذورها تضرب في التاريخ إلى ما قبل تعرف العرب على علوم الهند والفرس واليونان ، كما يلاحظ أنها انبثقت من صميم حياتهم البدوية . وقد انعكست صورها الأولى في شعر الشعراء الجاهليين . فهناك قصائد تشتمل على وصف جغرافي دقيق للمكان ، كما تشتمل على أوصاف للعادات والتقاليد البشرية وللنبات والحيوان ، وتلك هي المواضيع الأساسية التي تعالجها الجغرافية الوصفية . ولقد أورد الهمداني في مؤلفه (كتاب صفة جزيرة العرب) عشرات من تلك القصائد ذات المعاني الجغرافية^(١) .

أما الجانب الآخر من العلوم الجغرافية - وهو الجانب الفلكي - فقد كان ألصق بحياة بدو الجزيرة العربية الذين كانوا في ترحل دائم وكان لا بد لهم من الاسترشاد بنجوم معينة في سراهم الليلي . بل إن طبيعة المناخ الصحراوي ذا السماء الشديدة الصحو في معظم شهور السنة ، كان ولا شك يشير التأمل ويشجع على محاولة التعرف على طبيعة النجوم والكواكب المتألثة في صفحة السماء المترامية الأطراف . ولذلك فقد قيل بأن براعة العرب في علم الفلك ترجع قبل كل شيء إلى صلاحية بيئتهم الطبيعية لتطور هذا العلم^(٢) . ولقد عرف البدو ما لا يقل عن مائتين وخمسين نجماً في تسميتها العربية الخالصة كما عرفوا بعض الكواكب المهمة بينها الزهرة وعطارد ، هذا إضافة إلى

(١) راجع كتاب « صفة جزيرة العرب » لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني - طبع في مدينة ليدن عام ١٩٣٨ .

(٢) البيئة والمجتمع - تأليف الدكتور محمد السيد غلاب - منشورات دار الطالب بالاسكندرية - الاسكندرية ١٩٥٥ ص ١٢ .

معرفتهم بمنازل القمر الثمانية والعشرين^(٣) . وقد أطلقوا على هذه المعرفة اسم (علم الانواء) .

ومنذ بدأ اهتمام العرب في صدر الاسلام بالأمور الثقافية ، لا سيما ما يتعلق منها باللغة العربية ، أخذت تظهر طلائع المؤلفات الجغرافية ، وكان مؤلفوها علماء لغة أساساً . ويمكن القول إن العامل الأول المشجع على ازدهار هذا النوع من التأليف هو الاهتمام بجزيرة العرب - التي ظهر فيها النبي الكريم وصحبه - ومحاولة التعرف على كل ما يتصل بأرضها وسماؤها وحيوانها ونباتها وبشرها ، وكذلك الاهتمام باللغة العربية وبالشعر العربي القديم . ولعل من أبرز المؤلفات المبكرة في هذا الميدان تلك التي تنسب إلى هشام بن محمد الكلبي (توفي في حوالي ٨٢٠ م) والذي ذكر له ابن النديم (في الفهرست) والحموي (في معجم الأدباء) عدة تأليف جغرافية منها (كتاب البلدان الكبير) و (كتاب البلدان الصغير) و (كتاب الانهار) و (كتاب الأقاليم) . الخ ، ولكن كتبه بأجمعها قد فقدت ولم تصل إلينا . كذلك كتب أبو يزيد سعيد الانصاري كتاباً في (المطر) ضمنه مختلف المفردات اللغوية في المطر والسحاب والرعد والبرق والندى والجمد وظروف تكون كل منها . . ويقول أحد الباحثين أن في هذا الكتاب دقة في الوصف بحيث إن أسماء السحب فيه تطابق ما تعارف عليه علماء المناخ الأوروبيون في الوقت الحاضر^(٤) . وهناك أيضاً كتاب النضر بن شميل المسمى (كتاب الانواء) ، وكتاب عرام بن الأصم المسمى (كتاب أسماء جبال التهامية ومكانها) ، وكتاب الجاحظ المسمى (كتاب البلدان) أو (كتاب الامصار والبلدان) . الخ . ومجمل القول أن الكتاب المذكورين قد كونوا مدرسة لها تلامذتها الذين ألفوا عشرات الكتب التي تتحدث عن جزيرة العرب بالذات أو عن منطقة من مناطقها وعن معالمها الطبيعية والمناخية والاقتصادية والبشرية^(٥) . ولكن لا بد لنا من التأكيد بأن تلك المؤلفات ليست من الجغرافية الحقيقية بشيء وإنما هي إرهاصات جغرافية .

وانتقلت الجغرافية العربية إلى مرحلة جديدة في النصف الثاني من القرن الثالث

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي - لاغناطيوس كراتشكوفسكي ، ترجمة صلاح الدين هاشم - منشورات الجامعة العربية - (الجزء الأول) - القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٢ .

(٤) تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به - للدكتور ابراهيم شوكت - مجلة « الاستاذ » المجلد التاسع ١٩٦١ - منشورات كلية التربية ، ص ١٢ .

(٥) راجع مقالة محمد بهجة الاثري المعنونة (الجغرافيا عند المسلمين) - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الثاني ، سنة ١٩٥٢ .

المهجري وهي المرحلة التي بلغ أثناءها الاهتمام بالفكر الأجنبي أقصاه . فلقد أكب المترجمون على ترجمة ثمار الفكر الهندي والأغريقي والروماني الى اللغة العربية . وقد شهد هذا العصر تأثيراً عظيماً بالمعرفة اليونانية - الرومانية ، وخصوصاً بآراء بطليموس الاسكندري ، ولا سيما في كتابيه المجسطي (الجامع) وجغرافيا (المرشد الى الجغرافيا) ، حتى ان أغلب المعلومات الجغرافية النظرية التي تناثرت في مؤلفات هذا العهد ، وأبرزها مؤلفات الخوارزمي وابن الفقيه وابن رسته ، قد اقتبست اما عن اليونانية مباشرة أو عن الترجمات أو الخلاصات السريانية والرومانية^(٦) . والواقع أن هذه المرحلة من عمر الجغرافيا قد ركزت على علم الفلك بالذات ، فقد أصبح هذا العلم في ذلك العصر هوس الحكام والعلماء ، فرمى الجغرافيون بكامل ثقلهم الى جانبه . ويمكن القول أن التشجيع الذي حظي به هذا العلم من قبل الخلفاء العباسيين ، منذ عهد المنصور ، والذي بلغ ذروته على يدي المأمون الذي كان يشترك بنفسه في الابحاث الخاصة بهذا العلم ويرعى علماء رعاية خاصة ، كان المسؤول الأول عن ازدهار هذا النوع من المؤلفات الجغرافية التي يمكن اعتبارها بداية الجغرافية الحقيقية . فلولا هذا التشجيع ولولا الحرية الفكرية التي تهيأت لأولئك العلماء لخص تلك المواضيع الشائكة لما أمكن لهم تطوير معلوماتهم . هذا فضلاً عن أن الترجمات التي نقلت الى اللغة العربية عن الفارسية والهندية والسريانية واليونانية قد كشفت عالماً جديداً في ميدان الفكر العربي الذي كان حتى ذلك العهد مقتصرأ على علوم اللغة والدين مما أثار حماسه العلماء وشغفهم .

غير أن توطد أركان الدولة الاسلامية في مساحة مترامية الاطراف من العالم القديم قد خلق ظرفاً جديداً كان لا بد للجغرافية العربية أن تواكبه وأن تستفيد منه وأن تثبت جدارتها في ميدان الفكر العلمي . وسرعان ما انجذبت الكتابات الجغرافية اتجاهاً عملياً جديداً منذ بدء القرن الرابع الهجري ، وأصبحت المعرفة الجغرافية في خدمة متطلبات الدولة الاسلامية الكبرى ، عسكرياً وإدارياً واقتصادياً . وهكذا انبثقت المصنفات الجغرافية الحقيقية التي تستحق اسمها بجدارة وهي كتب (المسالك والممالك) أو ما يمكن أن نعتبره كتابات (الجغرافية الاقليمية) أو (الجغرافية البلدانية) على نحو أدق . وهي كتابات تعتمد على الخبرة الشخصية ولا تكاد تخضع في شيء

(٦) الجغرافية والرحلات عند العرب - للدكتور نقولا زيادة - منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٧ .

للمتأثير اليوناني . ولقد ضعف اهتمام تلك المؤلفات بالمعلومات اليونانية المتعلقة بالارض وشكلها وحجمها وأقاليمها السبعة ، وابتعدت ابتعاداً كبيراً عن النهج الرياضي ، حتى ليتمكن القول أنه حدث في هذا العهد انشطار واضح بين الجغرافية الرياضية والجغرافية الوصفية ، وانقسم كتاب الجغرافية الى علماء فلك وجغرافيين .

والواقع ان هذه المرحلة من مراحل الجغرافية العربية التي امتدت منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى أوائل القرن السادس الهجري ، تمثل قمة ما وصلته الجغرافية العربية من ازدهار ، كما انها تمثل الشخصية الحقيقية الاصلية للجغرافية العربية . فقد كانت معلومات كتابها تعتمد بالدرجة الاولى على الدراسة والمشاهدة والاختبار الشخصي مما جعلها ذات ثقة وكفاءة عالية . ولم يكن غالبية كتابها في الحقيقة سوى رحالة علميين . وكان على رأس جغرافيين هذه المدرسة يعقوبي والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي . وقد أدخل هؤلاء الجغرافيون تقليداً جغرافياً جديداً ورأسخاً في الكتابة الجغرافية العربية وهو استخدام الخارطة مع المتن لتوضيح التفاصيل الواردة فيه . والواقع ان ازدهار هذا الاتجاه الجديد في الكتابة الجغرافية كان خلاصة ظروف مساعدة كما أشرنا . فقد كان اتساع رقعة الدولة الاسلامية يتطلب معلومات جديدة عن تلك البلدان النائية وشعوبها . فلا بد للحكام المسلمين من أن يتعرفوا على طبائع السكان وتقاليدهم ، وعلى انتاج البلاد الزراعي والصناعي وثرواتها ليتمكن تقدير خراجها ، كما لا بد لهم من التعرف على أسماء مدنها الهامة والطرق المؤدية اليها . ولذلك فقد كان فاتحة هذا النمط من التأليف الجغرافي يتمثل في كتاب ابن خردادبة المعنون (المسالك والممالك) وكتاب قدامة بن جعفر المعنون (كتاب الخراج) . وكلا هذين الكتابين ، ولا سيما الكتاب الاول ، يعنيان عناية فائقة بطرق المواصلات وبأطوالها وبحالة الامن واليسر فيها . وقد استفاد مؤلفو هذه الكتب من وظائفهم الادارية في جمع المعلومات عن البلدان النائية . فقد شغل ابن خردادبة مثلاً ادارة البريد ، كما عمل قدامة بن جعفر محاسباً في ديوان الخراج . أما المؤلفون الآخرون فقد استفادوا من امكانيات السفر الجديدة التي سادت رقعة واسعة من العالم القديم ، هي رقعة العالم الآسيوي ، تلك الامكانيات التي تتمثل باتساع شبكة طرق المواصلات وتوفير درجة معقولة من الامن فيها ، فأخذوا يشدون الرحال ويطوفون في البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وكانوا يشعرون في أي بلد يحلون فيه كأنه بلدهم ، فالتجاسس في العقيدة والدين بين أبناء تلك البلدان كان خير زاد يمكن أن يتزود به المسافر . وأمکن لأولئك الجغرافيين ان يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الاسلام عن طريق

المشاهدة الشخصية والسؤال والاستقصاء ، مما لم يكن مهياً للجغرافيين السابقين . ولا يمكن القول أن أولئك الجغرافيين قد اعتمدوا على أنفسهم فحسب في جمع تلك المعلومات ، فقد ساهم التجار في اغناء معلوماتهم مساهمة عظيمة ، ولعبت التجارة دوراً هاماً في تطوير المعرفة الجغرافية لرواد هذه المدرسة . بل أن البعض منهم كان يمارس التجارة فضلاً عن هوايته العلمية .

ولقد كان تسابق هؤلاء الجغرافيين على تجشم المتاعب والمخاطر والطواف في تلك البلدان البعيدة أمراً يدعو إلى الإعجاب ولا شك ، غير أن الدارس لكتبهم يشعر بأن ثمة نوع من التنافس المشروع بينهم ، إذ كان كل منهم يحاول أن يتفوق على من سبقه في معلوماته . وهذه صفة يمكن تلمسها بوضوح في الاشارات العابرة التي وردت في مقدمة كتب الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وحتى المسعودي . ويدل ذلك أيضاً أنه كان هناك اهتمام كبير بتلك المؤلفات من قبل الحكام والتجار وكبار الأغنياء المتعلمين ، مما كان يشجع أولئك الكتاب على التجويد الدائم .

وأما الموسوعات فكانت سمة ذلك العهد (خصوصاً القرن الثامن الهجري) في جميع حقول المعرفة ، ويبدو أنها كانت تخدم أهداف طبقة معينة من الامراء والحكام المتنورين ، فضلاً عن اشباع رغبة طبقة من الأغنياء المثقفين . وكانت أمثال تلك المؤلفات ذات فائدة عملية واضحة بالنسبة لرجال الادارة ، كما أنها كانت ذات فائدة كبرى للباحثين عن المعرفة نظراً لأنها كانت تعالج مختلف نواحي الثقافة في ذلك العصر . ومن أبرز الأمثلة على تلك الموسوعات (نهاية الارب) للنويري و (مسالك الابصار) للعمري و (صبح الأعشى) للقلقشندي .

ويعود الفضل إلى هؤلاء الجغرافيين الاقليميين في تشجيع كتاب آخرين لم يكونوا جغرافيين أساساً على الاهتمام بالجغرافيا ونشرها في كتاباتهم بصورة غير منهجية ، وكانت تلك الاهتمامات أقرب إلى الكوزموغرافيا منها إلى الجغرافيا الصرفة ، فهي تبحث في أخبار البلدان ، وقد تميل إلى الاهتمام بعجائبها ، كما تشتمل على كثير من المعلومات المتنوعة عن البحار والمناخ والكواكب والأحجار النفيسة والحيوان والنبات ، وكان يكتب هذا النوع من المصنفات كتاب ذوو اختصاصات متنوعة ، لكن غالبيتهم كانوا من المؤرخين . ويمكن القول أن المسعودي كان على رأس هذا النمط من الكتابة ، كما يعتبر ابن رسته أيضاً أحد روادها المبكرين . والحقيقة أن الجغرافيا العربية بدأت أساساً أشبه بالكوزموغرافيا فيما تؤكد عليه من عجائب الأرض والكون .

وبتفكك الدولة العربية الاسلامية وانحلالها سياسياً فقدت المعرفة الجغرافية أصالتها منذ بدء القرن السادس الهجري . فقد انصرف الحكام عن تشجيع العلم وتقلصت رقعة الدولة الاسلامية وانقسمت إلى امارات شبه مستقلة ، ولم يعد هناك من حاجة إلى الكتب الجغرافية بالنسبة للحكام . ولم يستطع الكتاب اللاحقون أن يضيفوا أي جديد إلى العلم الجغرافي العربي ، واقتصروا على مهمة « الإقتباس » من مؤلفات السابقين ، وتنوعت الأنماط الجغرافية لهذه المرحلة ، إلا أن التركيز فيها كان على (المعاجم الجغرافية) و (الموسوعات) و (الرحلات) .

فأما (المعاجم الجغرافية) فأصبحت ذات أهمية بالغة ، ويمكن القول أنها كانت تمثل الصلة بين اللغة العربية والجغرافية ، وقد ازدهرت بسبب القراء الذين كانوا يجدون صعوبة في التسميات الواردة في الشعر القديم أو في الفصل القديم . ومن أبرز أمثلتها (معجم البلدان) لياقوت الحموي .

وقوي في هذه المرحلة من تطور الجغرافية العربية أيضاً اتجاه جديد هو ما سمي بالاتجاه العجائبي ، وهو اتجاه قديم ظهرت آثاره المبكرة لدى ابن الفقيه الهمداني وغيره من الكتاب الأوائل . وخير من يمثل هذا الاتجاه الغرناطي في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الاعجاب) والقزويني في كتابه (أخبار البلاد وآثار العباد) والدمشقي في كتابه (عجائب الدهر) وابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب) . وقد مزج هذا الاتجاه بين العلم والخرافة ، وتناول كتابه وصف مختلف ظواهر الكون ، وركزوا في كتاباتهم على ذكر عجائب الطبيعة من نبات وحيوان وظواهر جغرافية وبشرية . وكانت معلوماتهم تخرج عن حدود المنطق والعلم أحياناً إلى حدود الاسطورة والخرافة . والواقع أن هذا الاتجاه قد انحدر بالجغرافية انحداراً سريعاً حتى لم تعد تحتفظ بنكهتها العلمية القديمة ، وتحولت إلى ما يشبه الحكايات والقصص . ولا ريب أن أولئك الكتاب كانوا يرضون بكتاباتهم تلك جمهرة واسعة من القراء من ذوي الثقافة الضحلة ، وهو أمر يدل على اضمحلال الطبقة المتنورة التي كانت تشوق إلى المعرفة الحقة .

وازدهرت في هذه المرحلة من تاريخ الجغرافية العربية أيضاً (الرحلات) ، إلا أنها اتخذت نمطاً مغايراً لما عهدناه في فترة القرن الرابع الهجري ، إذ أن الرحلات الجديدة كانت ذات طابع أدبي عموماً وذات صفة اخبارية سطحية . وقد لعب العامل الديني دوراً رئيسياً في تشجيع هذا النمط من الكتابة الجغرافية ، فقد كان دافع أغلب كتاب (الرحلات) حج بيت الله الحرام ، وتهيأت لهم الفرصة بذلك لزيارة بلدان

عديدة من ديار الاسلام فدونوا عنها مشاهداتهم . وقد ركز هؤلاء الرحالة عموماً على ذكر المشاهد الدينية والمزارات والمساجد ، كما اهتموا اهتماماً خاصاً بلقباء علماء الدين والزهاد والمتصوفين . وقد وردت في كتاباتهم المعلومات البشرية والاقتصادية وكذلك المعالم الطبوغرافية للمدن والبلدان التي زاروها بصورة عرضية . وبالرغم من ذلك فقد حفلت بعض تلك الرحلات بمعلومات اتنولوجية واقتصادية قيمة للغاية . وتعتبر رحلة ابن جبر أفضل نموذج لهذا النمط من الكتابة الجغرافية ، غير ان رحلة ابن بطوطة تتفوق عليها فيما اشتملت عليه من معلومات عن أقطار آسيا الوسطى والجنوبية والجنوبية الشرقية . واشتهرت كذلك رحلة العبدري ورحلة الهروي .

- ٢ -

المبادئ التي طرقتها الجغرافية العربية

بالرغم من أن الجغرافية العربية كانت عموماً جغرافية نفعية هدفها الرئيسي خدمة الحكام والتجار ، مما جعلها أساساً جغرافية عملية وصفية ، الا انها مع ذلك عاجلت أغراضاً متعددة كما ساهمت في حقول متنوعة . وسندرس في الفصول التالية باسهاب مساهمة الجغرافية العربية في حقول رئيسية أربعة هي : - أولاً - الابحاث الاقليمية والبشرية ، ثانياً - الابحاث الطبيعية ، ثالثاً - الرحلات الجغرافية ، رابعاً - الابحاث الفلكية والرياضية . غير اننا سنوضح في هذه العجالة مساهمة الجغرافيا العربية بصورة عامة في العلم الجغرافي القديم .

فأما ما يتعلق بالابحاث الاقليمية والبشرية فانها تمثل أهم اضافات الجغرافية العربية الى العلم الجغرافي القديم . فقد اشتملت على مادة غزيرة عن بلدان العالم القديم ذات جوانب متعددة . ففضلاً عن المعرفة الجغرافية البحتة بجهات نائية كجهات غربي وأواسط افريقيا وأواسط آسيا والهند الصينية والهند وجزر المحيط الهندي ، بل وحتى ببعض جهات سيبيريا ، فقد أمدتنا بمعلومات طيبة عن شعوب تلك الجهات مما يمكن أن يكون - ذو - فائدة عظيمة في الدراسات التاريخية والانثروبولوجية . والحقيقة ان المعلومات ذات الصلة البشرية هي أعظم قيمة في كتب الجغرافية العربية من أية معلومات طبيعية وطوبوغرافية أخرى وهي التي تكسبها أهميتها الخاصة^(٧) . ففضلاً عن أن تلك المعلومات يمكن أن ترسم لنا بوضوح ما حدث من تغير في المنظر الطبيعي Landscape في كثير من أقطار العالم الاسلامي ، فانها توضح لنا كذلك نوع العلاقة بين البشر وبيئتهم الطبيعية في مختلف المراحل التاريخية . لذلك يمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا من أوائل من كتب في حقل الجغرافية البشرية ، وان

S. M. Ali, Arab Geographi, Institute of Islamic studies, Aligrah 1959, P. 5. (V)

كتاباتهم في هذا الميدان تتفوق في اتساع آفاقها وتنوعها على كتابات الاغريق والرومان . فلقد تناولوا بالوصف مختلف نواحي الحياة البشرية ، متحدثين عن العادات والتقاليد والحرف والادب والطبقات الاجتماعية والمأكل والملبس ، الى آخر ما يتصل بحياة الانسان . ولم يقتصروا على هذه الجوانب فحسب بل طرقتوا مواضع أخرى من مواضيع الجغرافية البشرية ، وهي علاقة الانسان ببيئته الطبيعية . غير اننا لا يمكن أن ندعي بأنهم كانوا مبتكرين في هذا الميدان ، اذ أنهم تأثروا في الحقيقة بأراء الجغرافيين الاغريق والرومان . وخير من بحث في العلاقة بين البيئة الطبيعية والانسان عبد الرحمن بن خلدون في (مقدمته) الشهيرة . فقد أوضح أثر الحرارة على أخلاق البشر ، كما بين ارتباط بنائهم الفسيولوجي بالأقاليم المناخية . وقد عزا سواد بشرة سكان الاقليم الاول والثاني الى افراط الحر في هذه الجهات ، كما عزا بياض بشرة سكان الاقليم السابع والسادس الى افراط البرد في الجهات القريبة من المنطقة القطبية ، مما يتبع ذلك أيضاً زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر^(٨) . وأشار كذلك الى أن أخلاق السودان (الزنج) عموماً (التميزة بالخفة والطيش وكثرة الطرب تعود الى استيلاء الحر على امزجتهم لانهم ساكنين في الاقليم الحار ، في حين أن سكان البلاد الباردة يتصفون بالليل الى الجدية والكآبة^(٩) .

ومن المواضيع البشرية الأخرى التي طرقتها الجغرافيون العرب والمسلمون وكانوا رواداً فيها ما يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم (جغرافية المدن) Urban Geography ، وقد ساهم المؤرخون في قسط وافر من هذه الكتابات . فهناك أمثلة عديدة من المؤلفات التي بحثت في وصف المدن وتاريخها وحفلت بالمعلومات الطبوغرافية والاقتصادية والبشرية . ومن أمثلتها كتاب المقرئ (المعنون) (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) والذي اشتهر باسم (خطط المقرئ) ، وكتاب (خطط بغداد) لأبي طاهر طيفور وكتاب (وصف مكة) للزرقي ، و (كتاب الاحاطة) للسان الدين الخطيب ، وكتاب الرازي في وصف قرطبة وخططها . وقد برع الاندلسيون على نحو الخصوص في وصف المدن الكبيرة وأقاليمها^(١٠) . كذلك أورد

(٨) مقدمة ابن خلدون - تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى لمصطفى محمد ، القاهرة ، ص ٦٠ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(١٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس - للدكتور حسين مؤنس - مدريد ١٩٦٧ ، ص ٥٥٥ .

العلامة ابن خلدون أيضاً في (مقدمته) الشهيرة دراسة فذة عن نشأة المدن وتطورها وشرح مقومات المدينة وأثر البدو في هدمها او مدها بدم جديد^(١١) .

وأما ما يتعلق بالابحاث الطبيعية في الجغرافية العربية والتي تتناول بالدرس النواحي المناخية والهيدروغرافية والجيومورفولوجية ، فلا يمكننا الادعاء بأن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا مبتكرين فيها دائماً . ويمكن القول أن الجوانب النظرية في هذه الأبحاث ضعيفة عموماً وهي تعكس تأثراً شديداً بأراء الكتاب الاغريق والرومان . فالدراسات المتعلقة بتوزيع الحرارة على سطح الارض وعلاقتها بالنبات والحيوان والانسان ، وأثر أشعة الشمس واختلاف زوايا سقوطها في كمية الحرارة ، وتوزيع الاقاليم الحرارية على الكرة الأرضية ، واشتداد البرد في المناطق القطبية وارتفاع الحرارة في المناطق الاستوائية بشكل لا يسمح بسكنى تلك الجهات ، هي أساساً آراء يونانية وقد نقلت مباشرة او اقتبست بصورة أو بأخرى . كذلك حال الدراسات المتعلقة بالطبقات الجوية والأمطار والرياح المختلفة . كما ان الملاحظات الجيومورفولوجية المتعلقة بتكوين الجبال والسهول ، واختلاف توزيع اليابس والماء على الكرة الأرضية باختلاف الأزمان ، وطغيان البحار على اليابسة وتقهرها في العهود الجيولوجية السابقة ، هي آراء يونانية أيضاً . غير أن الجوانب العملية في الأبحاث الجغرافية الطبيعية تكشف عن استقلال في الشخصية وعن تأثر سطحي جداً بالأراء اليونانية - الرومانية . وخير ما يمثل الجوانب العملية في الجغرافية الطبيعية العربية هي الدراسات العديدة التي كتبت عن توزيع البحار والبحيرات والانهار والنهيرات التي تعكس خبرة ودراية واسعة للغاية لم تتوفر في مؤلفات الجغرافيين الرومان والاغريق بما في ذلك كتاب (جغرافيا) لبطليموس . ولا ريب ان أمثال تلك الكتابات تمثل اضافة قيمة للفكر الجغرافي القديم .

أما ما يتعلق بالرحلات الجغرافية فيمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد ضربوا بسهم وافر في هذا الميدان ، وانهم قد خلفوا ثروة غنية جداً . وفيما عدا هيرودوت لم يشهد الفكر الجغرافي اليوناني أو الروماني رحالة من طراز المسعودي أو الادريسي أو ابن حوقل أو المقدسي أو ابن بطوطة . وقد سبق ان ذكرنا بان الكتابات الجغرافية العربية قد اعتمدت منذ البداية على الخبرة الشخصية واتخذت من الاسفار هدفاً مركزياً لها . ولذلك فان «الرحلة» تمثل الوجه المشرق في الجغرافية العربية ، وفي

(١١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٨٥ .

بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والانثروبولوجية عن جميع مناطق العالم القديم . ولعل رحلات التاجر سليمان وابن فضلان والمسعودي والغرناطي وابن بطوطة خير مصداق على ذلك .

وأما ما يتعلق بالجغرافية الفلكية والرياضية فلا ريب انها تعكس تأثراً بعلوم الفرس والهنود واليونان ، الا انها في الوقت نفسه تكشف عن الاضافات العظيمة والاساسية التي قام بها العلماء العرب والمسلمون في هذا الحقل . واذا كان علم الفلك قد تأثر في طوره المبكر بكتاب بطليموس المسمى (المجسطي) ، فان عشرات العلماء العرب والمسلمين قد ساهموا بتطوير هذا العلم حتى استقلوا به عن التأثير اليوناني وبلغوا به الذروة .

ويتفق جميع الباحثين والمستشرقين على الخدمات الجليلة التي أسداها العلماء العرب والمسلمون في تطوير هذا العلم . ولقد ردد الجغرافيون والفلكيون العرب والمسلمون ما سبق للمفكرين الاغريق والرومان ان قرروه من فرضيات عن الارض . فقد آمنوا بأن الارض كروية وانها ثابتة لا تتحرك في وسط الكون . كما أيدوا بأن الجزء المعمور منها هو الربع الشمالي فقط ، وان الجزء الجنوبي منها غير مسكون . وقد اعتقدوا أيضاً أن المنطقتين الإستوائية والقطبية غير مسكونتين بسبب شدة حرارة الاولى وعظم برودة الثانية . وقد وضعوا تعريفاً صحيحاً لخط الاستواء وللمدارين وللقطبين . كذلك قاموا بانجاز عملية فلكية عظيمة هي قياس درجة من درجات العرض بصورة عملية . وقد مكّتهم ذلك من التوصل الى تقدير مقارب لمحيط الارض . وقاموا أيضاً بوضع ازياج دقيقة لتعيين حركات الكواكب في افلاكها واستخراج مواضعها من السماء ، وحققوا في هذا الفن الرياضي براعة عظيمة . وقد أدى تبحرهم في هذا الفن الى تطوير آلة الاصطrolab التي كانت تستخدم في رصد الكواكب والى ابتكار آلات هندسية عديدة . كذلك أدى الاهتمام البالغ بعلم الفلك الى بناء المراصد الضخمة في مدن عديدة من بلدان العالم الاسلامي الشاسعة ، وكان البعض منها على درجة بالغة من الدقة والضبط . وهكذا تنوعت انجازاتهم في هذا الحقل فمكنتهم من رصد تحركات النجوم والكواكب في السماء واستخدام مجموعاتهما في التعرف على الاتجاهات في عرض البحر ، كما مكنتهم من تعيين مواقع البلدان على خطوط العرض والطول ، بل ومكنتهم أيضاً من رسم خارطة جيدة للارض .

أثر الجغرافية العربية في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط

بعد أن أوضحنا تطور الجغرافيا العربية عبر القرون والميادين التي طرقتها لا بد لنا من ايضاح أثرها على الفكر الجغرافي الاوروبي في العصور الوسطى . ولكي يتوضح لنا ذلك الأثر ينبغي لنا أن نستعرض باختصار التقدم الذي حققه الفكر الجغرافي في عهد الاغريق والرومان ، ثم التدهور الذي أصابه في بداية العهد المسيحي ليتبين لنا الدور الهام الذي اضطلعت به الجغرافية العربية في تاريخ الفكر الجغرافي .

ولقد اصطلح مؤرخو الفكر الجغرافي على أن البدايات العلمية للجغرافية اليونانية تقتصر على بدء النهضة العلمية الاغريقية في القرن السادس قبل الميلاد . ومنذ بواكيرها الاولى انقسمت الجغرافية الى فرعين رئيسيين هما الجغرافية الرياضية ، وقد اهتمت بدرجة رئيسية بعلم الفلك وما يرتبط به من ظاهرات أرضية ، أي انها ركزت على الجانب النظري ، والجغرافيا الوصفية وقد اهتمت بوصف مدن واقطار العالم القديم وشعبها ، وهي تمثل الجانب العملي من الجغرافيا . والحقيقة ان (علم الجغرافية) استمد تسميته من طبيعة كتاباته الوصفية ، اذ ان كلمة (جغرافيا) اليونانية تتألف من مقطعين هما Geo ومعناه « الأرض » و Graphia ومعناه « وصف » . ولا يسعنا في هذا المجال ان نشرح انجازات الاغريق والرومان في التعرف على جهات الارض المختلفة . والواقع انهم قصرُوا جهودهم على معرفة المناطق المسكونة من الأرض والتي سموها (العالم المأهول) ECUMENE ، وستحدث عن هذا الجانب بالتفصيل في موضع آخر . غير اننا لا بد أن نشير هنا بأن الجغرافيين الاغريق والرومان ساهموا مساهمة طيبة في الكشف عن جهات واسعة من العالم القديم . فقد أمدونا بمعلومات جيدة عن أقطار جنوب ووسط أوروبا وغربيها ، وأقطار شمالي أفريقيا (وخصوصاً مصر وليبيا وتونس) ، وأقطار جنوب غربي آسيا ، ولا سيما البلاد العربية وايران . كما أمدونا بمعلومات ثانوية عن الهند وجهات أواسط آسيا .

غير أن انجازاتهم العظيمة في الحقيقة ترتبط بالجغرافيا الفلكية والرياضية التي برزوا فيها الى أبعد الحدود . ومع أن الأغريق استفادوا فائدة كبرى من العلوم السابقة في الفلك والرياضيات ، ولا سيما علوم البابليين ، إلا أن إضافاتهم في هذا الحقل كانت متقدمة وأصيلة . فلقد توصلوا الى رصد تحركات الكواكب والنجوم والقمر على مدار العام بصورة دقيقة ، ووضعوا قائمة باسماء عدد كبير من الكواكب والنجوم . كذلك توصلوا الى تقدير معقول لحجم الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض . وقد ربطوا حركات المد والجزر في البحار بتحركات القمر ، وإن كان ربطهم غامضاً نوعاً ما . كذلك أدركوا بأن أشعة الشمس وزوايا سقوطها على الأرض هي المسؤولة بدرجة رئيسية عن توزيع الحرارة على الكرة الأرضية . واهتموا اهتماماً خاصاً بالأرض ومركزها في الكون . وقد ساد بينهم منذ وقت مبكر الاعتقاد بكروية الأرض ، ولم يعد هذا الافتراض موضع نقاش . كذلك تركز لديهم الاعتقاد بأن الأرض تقع في مركز الكون وانها ثابتة لا تتحرك ، وأن الشمس وبقية الكواكب تدور حولها . ومن المعتقد أن العالم الوحيد الذي رفض فكرة ثبات الأرض ودوران الشمس حولها هو أريستارخس الاسكندردي (في القرن الثالث قبل الميلاد) الذي نادى بأن الشمس هي التي تحتل مركز الكون وإن الأرض وبقية الكواكب تدور حولها .

ومن الأمور التي شغلت أذهان الإغريق أيضاً قياس محيط الأرض . وقد أتبعنا وسائل متعددة لهذا الغرض ، كما أعطيت تقديرات مختلفة . غير أن أفضلها وأدقها هي الطريقة التي أتبعها أراتوستنس (أراطوسطيني) (القرن الثالث قبل الميلاد) والتي جاءت بنتيجة مقاربة جداً للرقم الحقيقي لمحيط الأرض ، حيث بلغ تقدير أراتوستنس ٢٦٦٠ ميلاً ، في حين يبلغ الرقم الحقيقي حوالي ٢٥٠٠٠ ميل .

كذلك قام الجغرافيون الإغريق والرومان بمحاولة قياس مساحة الجزء المأهول من الأرض . ولم تكن تقديراتهم موفقة في هذا الخصوص ، لا سيما وأن معلوماتهم عن الأرض المأهولة كانت ناقصة بدرجة كبيرة . غير أنهم أدركوا بأن الجزء المعروف من الأرض لا يمكن أن يكون المنطقة الوحيدة المسكونة ، وخننوا وجود قارات أخرى إضافة الى القارات القديمة الثلاث المعروفة آسيا وأوروبا وإفريقيا ، وافترضوا انها ربما تقع وراء المحيط الأطلسي أو في جنوب الكرة الأرضية . وقد أيد البعض منهم امكانية الانطلاق من الطرف الغربي من الأرض عبر المحيط الأطلسي والوصول الى الطرف الشرقي .

وقد توصلوا أيضاً الى رسم خرائط دقيقة نوعاً ما للمناطق المعروفة من الأرض في

عهدهم ، وخصوصاً للجهات المحيطة بالبحر المتوسط ، واتبعوا في الرسم وسائل علمية تعتمد على تحديد خطوط العرض والطول بطريقة فلكية وتعيين مواضع الأرض استناداً اليها .

واهتم الجغرافيون الإغريق والرومان كذلك اهتماماً خاصاً بالابحاث الطبيعية في حقل الجغرافيا . ويمكن القول أن أهم الجوانب التي استأثرت باهتمامهم هو الجانب المناخي لارتباطه بصورة وثيقة بالابحاث الفلكية . وقد اتخذت المدرسة اليونانية من تقسيم الأرض الى أقاليم مناخية أساساً لبحائها في هذا الميدان ، وبذل الجغرافيون اليونانيون اهتماماً خاصاً بآثار المناخ على الحياة الحيوانية والنباتية والبشرية . ولقد قسم الكتاب اليونانيون الأوائل الأرض المأهولة الى ثلاثة أقاليم أو أحزمة ، واحد شمالي بارد وآخر جنوبي حار وثالث أوسط معتدل ، وربطوا كل إقليم منها بنوع خاص من النباتات والحيوانات ، كما ربطوا التقدم الحضاري والصفات الخلقية للإنسان وبنائه الفسيولوجي (لا سيما بشرته) بنوعية الاقليم المناخي . ثم تطور هذا التقسيم فيما بعد الى تقسيم سباعي يستند الى خطوط العرض . وقد توصلوا الى تحديد خطوط الغرض بواسطة آلة خاصة هي (الاصطرلاب) ، وميزوا بين اقليم Klimata وآخر على أساس طول النهار في كل منها . وقد اتفقوا أيضاً على أن المنطقة الاستوائية لا تصلح للسكنى بسبب شدة حرارتها ، وأن المنطقة القطبية لا تصلح للاستيطان أيضاً بسبب شدة برودتها .

واهتم الجغرافيون الإغريق أيضاً بالابحاث الجيومورفولوجية ، ولا سيما ما يتعلق بتكون البحار وطغيانها على الأراضي المجاورة . وقد عللوا ذلك بأن البحار تمثل البقية الباقية من مسطح مائي عظيم اتساع تقلصت مساحته واشتدت ملوحته بفعل حرارة الشمس . وكانت أبرز أدلتهم على ذلك وجود الاصداف والقواقع البحرية ورواسب الاملاح داخل اليابس القاري بعيداً عن البحار . كما أرتأى البعض منهم بأن سواحل البحر وأطراف اليابس القاري تحدث بها تغييرات على امتداد فترات زمنية طويلة ، وقد تحدث التغييرات في أعقاب هطول أمطار غزيرة . واعتقدوا أيضاً بأن بعض السهول كانت تحتلها البحيرات في يوم من الأيام ، ثم ارتفعت قيعان تلك البحيرات بفعل حركة أرضية . وقد قاموا بدراسة ظاهرة الارساب النهرية وأدركوا أهميتها في طمر الخلجان الضحلة وفي إضافة أراضي جديدة .

كذلك حاول الكتاب اليونانيون أن يفسروا ظاهري الزلازل والبراكين وإن لم يتوصلوا الى الحقيقة . فاعتقد البعض بأن الأثير الحار الملتهب في باطن الأرض يتلمش طريقاً للخروج فيحدث تلك الاهتزازات بالأرض . وافترض البعض الآخر أن هناك

رياحاً تدخل الى باطن الارض من الجو الخارجي ، وفي نفس الوقت تتولد من المياه الجوفية رياح أخرى بفعل الحرارة ، فاذا مرت هذه الرياح خلال المنافذ والمسارب الموجودة في قشرة الأرض سببت الاهتزازات ، وقد تمس هذه الرياح النار فتنفجر مندفعة الى الخارج على شكل براكين .

وهكذا نلاحظ بأن الجغرافيين الاغريق قد قدموا الفكر الجغرافي في شتى الميادين والحقول ، النظري منها والعملي . وكان المفروض أن يستمر هذا التقدم عبر القرون ، الا ان تبني الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٤ م . قد أدى الى فرض التفكير الديني على الفكر الاوروبي . وقد أصبحت الكنيسة هي المركز الثقافي الوحيد في بلدان أوروبا كما أصبح رجال الدين هم القيمون على الثقافة . لذلك أخذوا يحاولون الملاءمة بين العلوم اليونانية والرومانية المتقدمة وبين تعاليم العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الانجيل) . وذاعت مفاهيم جغرافية متخلقة ونسخت النظريات العظيمة المتطورة عن الأرض وظواهرها الطبيعية والبشرية وشكلها وحجمها وأقطارها وتوارت في زوايا النسيان . وقد رفضت جميع الأفكار القديمة باعتبارها علماً كاذباً لم يستطع أن يهدي البشرية الى طريق النور ، وباعتبار انها تناقض ما ورد في الكتاب المقدس ، وساد المثل القائل (ليكن الله وحده صادقاً وجميع البشر كذابين) . واستند الى هذا المثل دعاة المدرسة الفكرية التي سميت بـ (مدرسة الانكار العنيف) . وكان من أبرز آراء كتاب هذه المدرسة أن الأرض عبارة عن جسم مسطح طوله ضعف عرضه وهو ذو زوايا قائمة ، وانها مستقرة على المياه ومحاطة بالمياه ، وتمتد حولها المحيطات الشاسعة ، ووراء هذه المحيطات يوجد الفردوس العظيم . ثم احرزت الأفكار عن الارض بعض التقدم تمثلت بالخارطة المسماة (O in T (Orbis Terrarum) أو الخارطة الرومانية ، والتي أصبحت الخارطة المعتمدة في ذلك العهد . وتصور هذه الخارطة الأرض على شكل حرف (O) يتوسطه الحرف T الذي يمثل البحر المتوسط ، بينما تشغل آسيا النصف الشمالي من الدائرة وافريقيا الربع الجنوبي الشرقي منها وأوروبا الربع الجنوبي الغربي . وقد احتلت مدينة القدس قلب الخارطة ورسم نهر النيل على الجهة اليمنى للبحر المتوسط ونهر الدون على الجهة اليسرى منه ، وحدد موقع الفردوس في أقصى قارة آسيا وراء البحار . وفقدت المعلومات النظرية - على سذاجتها - أهميتها شيئاً فشيئاً واقتصرت الجغرافية على مجرد وصف مدن معينة تمر بها طرق الحج الى بيت المقدس ، مما جعلها عبارة عن كتب دليلة Guide Books يقوم بكتابتها قساوسة ورجال دين .

في مثل هذا الظرف الذي بلغت فيه العلوم الجغرافية أقصى درجات التدهور والانحطاط برزت الجغرافية العربية في الميدان . وقد استفادت فائدة كبرى من الآراء اليونانية والرومانية في شتى الحقول ، كما سبق أن أشرنا ، حيث عمل المترجمون العرب على نقل أهم المؤلفات الجغرافية والرياضية والفلكية الى اللغة العربية . ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الابداع الذاتي التي طوّرت فيها العلماء العرب والمسلمون علم الفلك والجغرافيا والرياضيات وبقية العلوم الاخرى تطويراً هاماً . ولذلك فقد كانت خدمة العرب للفكر الجغرافي خدمة مزدوجة ؛ فقد حفظوا تراث الاغريق من الضياع ، كما قدموا المفاهيم الجغرافية في حقول متعددة ولا سيما حقل الجغرافية الفلكية والوصفية . وفي ذلك يقول العلامة كراتشكوفسكي : « لقد وضع جليلاً لدى العلماء الاوروبيين ان الأهمية الأساسية للأدب الجغرافي العربي تستند الى ما أسهم به من مادة جغرافية جديدة . . . كما ان الجغرافيين العرب وحدهم هم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التي أورثها اليونانيون للعصور الوسطى » (١٢) . وقد اتجه الاوروبيون في بداية نهضتهم العلمية الى اللغة العربية ليتدارسوا علوم اليونان والرومان ويفيدوا من ثمار الفكر العربي والاسلامي . كما انهم نقلوا بعض التراث اليوناني - الروماني من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية . ومثال ذلك أن أول ترجمة لكتاب بطليموس المجسطي (الجامع) قد تمت من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية بقلم جيرارد القرموني Gerard of Cremona عام ١١٧٥ م . كذلك تمت ترجمة كتب يونانية أخرى من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية . وقد لعبت الترجمة دوراً مهماً في ايقاظ الفكر الاوروبي من سباته العميق .

وكان للمدرسة المسماة مدرسة طليطلة أثر فعال في تلك الیقظة ، حيث قامت بترجمة عدد كبير من مؤلفات العرب واليونان في الفلك والفلسفة والرياضيات الى اللغة اللاتينية . كذلك تولى جيرارد القرموني ترجمة عدد كبير من المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، ومن بينها كتابات أولاد موسى بن شاكر والخوارزمي والفرغاني والنيريزي وثابت بن قرة وجابر بن الاقلح والزرقالي . وساهم كذلك مترجمون آخرون في هذا الميدان منهم أفلاطون التيفولي Plato of Tivoli وميخائيل سكوتس Micheal Scotus وروبرت أوف شستر Robert of Chester وهرمانوس الالماني Hermanus Allema nus وهم ينتمون جميعاً الى القرن الثالث عشر الميلادي (١٣) .

(١٢) كراتشكوفسكي ، ص ٢٢ .

(١٣) جهود المسلمين في الجغرافيا - تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحي عثمان (سلسلة الألف كتاب) - مطابع دار =

وقد أدت هذه الحركة النشطة في الترجمة من العربية الى اللاتينية الى التأثير بالأفكار العربية ، وانعكس هذا التأثير في كتابات العديد من الكتاب ، منهم ادلارد أوف باث Adlard of Bath وساكرويسكو Sacrobosco وروجر بيكون Roger Bacon^(١٤) . وكانت أشد الحقول تأثراً بالأراء العربية هما حقلاً الجغرافية الفلكية والرياضية والكشوف الجغرافية . ففي الرياضيات كانت آراء ونظريات الخوارزمي المثل الذي يحتذى ، حتى أن مصطلح (اللوغاريتيمات) باللغة اللاتينية اشتق من اسمه الذي كان يلفظ (الغوريثمي) Al—gorithmi . ولقد اعتبره مؤرخ الفكر العالمي العلامة سارتون Sarton « واحداً من أكبر رياضيي جميع العصور على الإطلاق ، إذا أخذنا في الاعتبار اختلاف الظروف »^(١٥) .

وأما في حقل الفلك فقد استفاد العلماء الاوروبيون فائدة عظيمة من الأزياج التي وضعها الفرغاني والبتاني والزرقالي والخوارزمي وغيرهم ، وأصبحت اسماء Algorithmi and Albategnius and Alfarganus من الاسماء الذائعة في علم الفلك الاوروبي . وهناك العديد من الاسماء العربية للنجوم التي كانت تستعمل في كتب الملاحة الغربية ، ومن بينها الاسماء التالية^(١٦) :

الدبران Aldebran القائد Alkaid الطائر Altair بيت الجوزاء Betelgeuse المرقب Markab المرفق Mirfak الرجل Regal فم الحوت Famalhut .

كذلك استفاد العلماء الاوروبيون من الآلات الفلكية التي قام العرب بتحسين البعض منها ، كآلة (الأسطرلاب) وآلة (اللبنة) و (البوصلة) ، وابتكروا البعض الآخر ك (المزولة الشمسية) و (الحلقة الصغرى) و (الحلقة الكبرى) و (سداس الفخري) وغيرها .

ولا ريب ان بداية عصر الكشوف الجغرافية الاوروبية قد تأثر أيضاً الى حد غير قليل بالأفكار الجغرافية العربية . فلقد شجعت آراء الجغرافيين المسلمين عن كروية الأرض ومقدار محيطها كريستوف كولومبوس على القيام بمغامرته الكبرى في الانطلاق نحو الشرق عن طريق الغرب . . . تلك المغامرة التي أدت الى اكتشاف الأمريكتين . فقد

= القلم - القاهرة ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢١٣ - ٢١٧ .

(١٥) Sartan, G., Introduction to the history of Science, Baltimore 1946, Voi. I. P. 563 .

(١٦) من الوجهة الجغرافية - للدكتور محمد محمود الصياد ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢٨ .

أخذ بنظر الاعتبار حسابات الجغرافيين المسلمين بالميل العربي (وهو أكبر من الميل الايطالي) لمحيط الأرض ، مضيفاً الى ذلك تقديرات بطليموس الخاطئة ، مما جعله يعتقد أن عبور المحيط الاطلسي الى الشرق لن يتطلب سوى أيام قليلة^(١٧) . كذلك ساعدت معلومات الجغرافيين العرب عن الصحراء الافريقية الكبرى وجهات غربي افريقيا عدداً من المكتشفين على اقتحام داخل هذه القارة . ومن المعروف ان اكتشاف فاسكو دي غاما لطريق الهند البحري في عام ١٤٩٨ لم يتم الا بالاستعانة بخبرة ملاح عربي (لعله ابن ماجد) الذي قاده بسلام عبر مياه المحيط الهندي . والواقع ان الملاحين الاوروبيين استفادوا كثيراً من معلومات الملاحين المسلمين في التعرف على طبيعة السفر في مياه المحيط الهندي وبحر الصين . وكان الملاحون والجغرافيون العرب قد اكتسبوا في هذا الميدان معرفة واسعة منذ أقدم العصور ، وقد بلغت ذروتها في مؤلفات شهاب الدين احمد بن ماجد الذي يقال انه ألف ما يقرب من ثلاثين كتاباً في هذا الموضوع . ولعل أشهر مؤلفاته (الفوائد) الذي ضم معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهم الملاحين في البحر الاحمر والمحيط الهندي وبحر الصين ، كما جمع فيه خبراته الواسعة التي اكتسبها عن هذه البحار واعماقها وشطوط المرجان فيها وجزرها وموانئها والرياح التي تهب عليها الى غير ذلك مما يهم الملاحين^(١٨) .

ولقد تأثر الاوروبيون أيضاً بما أحرزه الجغرافيون العرب من تقدم في فن الخرائط ، ولا سيما ما يتعلق منها بالخرائط البحرية التي يطلق عليها اسم (خرائط البورتلاني) Portlani . ومع أن أصل تلك الخرائط يحوطها الغموض ، غير أن معرفة العرب بشواطئ المحيط الهندي والبحر العربي وامتلاكهم لخرائط متقدمة عن تلك الجهات يشير الى انهم ربما كانوا مصدر تلك الرسوم . وعلى أية حال فالذي لا ريب فيه أن تلك الخرائط قد تأثرت الى درجة ما بالنماذج الاسلامية السابقة لها ان لم تكن قد اقتبست منها ، فضلاً عن تأثرها بالكتابات الجغرافية العربية^(١٩) .

وهكذا نلاحظ ان الجغرافية العربية قد استطاعت ان تقدم الشيء الكثير للعلم الجغرافي مما ساهم مساهمة طيبة في بعث الجغرافية العلمية الحديثة .

(١٧) أخذ كولومبوس بقياس العرب لطول الدرجة من محيط الأرض وهو ٥٦ ٢/٣ ميل ، الا انه لم يكن يعلم بأن الميل العربي يزيد على الميل الايطالي ٣٨٤ متراً . وهنا موضع خطأ حساباته .

(١٨) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(١٩) نفيس أحمد ، ص ١٢٨ .

الفصل الثاني

في الجغرافية الوصفية والاقليمية

ان الجغرافية لوصفية والاقليمية التي اتخذت اسم (علم المسالك والممالك) تمثل أبرز الحقول في الجغرافية العربية ، وقد أصاب العلامة كراتشكوفسكي كبد الحقيقة بقوله : « ان منهج الجغرافية الوصفية هو الذي يسترعي النظر بغزارة مادته ، وهو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبق عليه طابعه المميز »^(١) .

ولا يمكننا بطبيعة الحال ان نستعرض في هذا الفصل جميع ما كتبه الجغرافيون العرب في هذا الحقل ، ولكننا سنركز على نقاط معينة يمكن أن نتوصل عن طريقها الى تقدير قيمة وأهمية كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين في هذا الحقل . وهذه النقاط هي :

أولاً - مفهوم الجغرافيين العرب والمسلمين لفكرة « الاقليم » .

ثانياً - اضافات الجغرافيين العرب والمسلمين للمعرفة عن « الربع المعمور » .

ثالثاً - مميزات الكتابات الجغرافية الوصفية والاقليمية العربية .

(١) كراتشكوفسكي ، ص ١٨ .

مفهوم الجغرافيين العرب والمسلمين لفكرة «الاقليم»

لقد تأثرت الجغرافية العربية منذ ولادتها بفكرة «الاقاليم» . وكانت مهمة الجغرافية الوصفية المبكرة التعرف على أقاليم الأرض وما فيها من دول . وكان يتنازعها في البدء مفهومان «للأقاليم» : المفهوم الايراني والمفهوم اليوناني ، وكل منهما يقسم الأرض المأهولة الى سبعة أقاليم^(١) .

فأما المفهوم الايراني فقد كان هو السائد في الكتابات الجغرافية المبكرة ، وهو مفهوم لا يعتمد على أسس علمية معينة شأن المفهوم اليوناني . فهو يعتبر ايران (أو ايرانشهر) الاقليم المركزي (الرابع) الذي تحيط به بقية أقاليم الأرض . وهو يقسم المعمورة الى سبعة دوائر هندسية متساوية بحيث تكون الدائرة الرابعة في الوسط والدوائر الست تحيط بها من جميع الجهات . وقد نقل ياقوت الحموي عن حمزة الاصفهاني قوله أن الأرض مستديرة الشكل والمسكون منها دون الربع وهذا الربع ينقسم قسمين براً وبحراً ، ثم ينقسم هذا الربع سبعة أقسام يسمى كل منها بلغة

(٢) يقول الدكتور ابراهيم شوكت ان قسمة الأرض الى سبعة اقاليم جاءت عن طريق ولع العرب بالتجسيم وربطهم الحوادث بالنجوم . وما أن يوتات العرب للعبادة قدما كانت للكواكب السبعة بما في ذلك الشمس والقمر ، لذلك سمو هذه على الأقاليم ، وعللوا أسباب اختلاف الأقاليم بطوائفها الى هذه النجوم . ثم أن الله سبحانه وتعالى قال لهم انه خلق سبع سموات ومثلها أرضين ، ولربما كانت قسمة النجوم وتوزيعها على سبعة أقاليم تفسيراً للآية الكريمة . ثم أن رقم سبعة كعد له حكم شاذ حتى في قواعد اللغة العربية وعلل ذلك وجود الثمانية ، ثم أن أيام الاسبوع عددها سبعة والقسمة قديمة عندهم . فكل ما مر من الأسباب وغيرها أوجت بقسمة الأرض الى سبعة أقاليم ، وهذا تقسيم لم يؤخذ من أحد من الناس وأصله واضحة (تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به ، ص ١١) .

أما البيروني فيقول بصدد ذلك : (وأما الحقيقة لآ جعلوها سبعاً فما أجمل واجده بالطريق البرهاني فان الكافة لم يتنازعوا الا عند الكواكب السارة مستدلون عليه بأيام الاسبوع التي لا يختلف فيها ولا في المبدأ الموضوع لها من يوم الأحد مختلف الأمم) .

الفرس «كشخر» وقد استعارت العرب من السريانيين للكشخر اسماً وهو «الاقليم»^(٣) . كذلك نقل الحموي عن البيروني أن الفرس قسموا الممالك المطيفة بإيرانشهر في سبع كشورات وخطوا حول كل مملكة دائرة وسموها كشخرا ، ذلك أن الدوائر المتساوية لا تحيط بواحدة منها متماسة الا اذا كانت سبعاً تحيط ست منها بواحدة^(٤) . ولقد اشتمل التقسيم الايراني على الاقاليم التالية^(٥) :

١ - الاقليم الاول : المسمى الهند ، وهو الى الشرق الشمالي من الاقليم الرابع المركزي وحدّه مما يلي المشرق السند والبحر الى الديبل من أرض السند والجزائر المنسوبة اليهم من الديبجات والزباج ، وآخر حدوده مكران الى حدود البصرة فيما بين الهند واليمن .

٢ - الاقليم الثاني المسمى الحجاز وهو الى الجنوب من الاقليم الرابع مباشرة ، وحدّه مما يلي مصر وعدن واليمن وبادية العرب وبلاد الجزيرة بين نهرى الفرات ودجلة الى أرض الثعلبية مما يلي العراق .

٣ - الاقليم الثالث المسمى مصر وهو الغرب الشمالي من الاقليم الرابع ، وحدّه أرض الحبشة مما يلي أرض الحجاز الى البحر الأخضر مما يلي الروم الى نصيبين مما يلي العراق ، يدخل فيه مصر والاسكندرية الى أقصى المغرب والسودان الذين في البراري والبربر .

٤ - الاقليم الرابع المسمى بابل وهو في الوسط ، وحدّه مما يلي الهند والديبل ومما يلي الحجاز الثعلبية ومما يلي الروم نصيبين ومما يلي مصر الشام ومما يلي خراسان نهر بلخ ، وفيه العراق والجبل وخراسان وسجستان وزابلستان وطخارستان .

٥ - الاقليم الخامس المسمى الروم وهو الى الغرب الجنوبي من الاقليم الرابع ، وحدّه مما يلي مصر الخليج ومما يلي المغرب البحر الأخضر* ومما يلي الترك ياجوج ومما يلي العراق نصيبين وفيه الروم وفرنجة والاندلس وجرجان وأذربيجان الى باب الابواب .

٦ - الاقليم السادس المسمى ياجوج وماجوج وهو الى الشمال من الاقليم الرابع

(٣) معجم البلدان - ياقوت الحموي ، طبعة داري صادر - بيروت سنة ١٩٥٥ الجزء الاول ، ص ٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٦) المقصود به بحر العرب .

مباشرة ، وحده مما يلي المغرب الترك ومما يلي الخزر البحر ومما يلي المشرق الصين ومما يلي العراق نهر بلخ وفيه الخزر والترك والغز وخزخييز وكيماك واصنافهم والروس والصقالبة .

٧ - الاقليم السابع المسمى الصين وهو الى الشرق الجنوبي من الاقليم الرابع ، وحده مما يلي المغرب ياجوج وماجوج ومما يلي المشرق البحر المحيط ومما يلي الهند قشмир ومما يلي خراسان نهر بلخ وفيه الصين والتبت والختن وبلاد ما وراء النهر والاتراك المحاذية لها .

وكما أشرنا سابقاً فان هذا المفهوم للاقليم لم يؤخذ به الا في البدايات المبكرة للكتابات الجغرافية العربية حينما كانت متأثرة بالأراء الفارسية والهندية . ومن الأمثلة على التأثير هذا المفهوم أيضاً ما ورد في حديث ابن الفقيه الهمداني عن الاقليم في مؤلفه (مختصر كتاب البلدان) المؤلف في نهاية القرن الثالث الهجري حيث قال (١٦) :

« وقالوا ان الاقليم سبعة ، اقليم في ايدي العرب واطليم في ايدي الروم واطليم في ايدي الحبشة واطليم في ايدي الهند واطليم في ايدي الترك واطليم في ايدي الصين واطليم في ايدي ياجوج وماجوج ، لا يدخل هؤلاء أرض هؤلاء ولا هؤلاء الى هؤلاء . فالاقليم الاول مبتدؤه من أرض المحرق التي تدعى باليونانية ريامياروس ومنتهاه أرض سرنديب ، وسكانه سود قباج الوجه عراة كالسباع واعمارهم طويلة ودوابهم وطيرهم اعظم من عامة البهائم والطير ، وطوله خمسة آلاف وخمسمائة فرسخ وعرضه مائتان وخمسة وثمانون فرسخ . والاقليم الثاني من العرض أرض سرنديب ومنتهاه أرض الحبشة ، وهناك معدن الزبرجد والبيضاء ، ومنتهاه من قبل شرقيه أرض السند قريب من كابل وزابلستان ، وهناك سباع ضارية وحشرات وطير ممتعة وأهلها أقصر أعماراً وهم دون الاول في القبح . والاقليم الثالث مبتدؤه عرض أرض الصفد وجرجان حتى ينتهي الى أرض الترك وحد الصين الى أقصى المشرق ، ومن غربيه نحو مصر ومن شرقيه السند وعدن ، ومنتهاه عرض أرض الشام وفارس واصبهان ، وهناك ناس حكما ، وعرضه وطوله مثل الاول . والاقليم الرابع بلاد بابل متوسط الاقليم وهو افضلها مزاجاً ، ومبتدؤه من افريقيا الى بلخ الى مشرق الارض ، وعرضه وطوله

(٦) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمداني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن عام ١٨٨٥ ، ص ٦-٧ .

الجنوب



الشمال

شكل ١ : مخطط للأقاليم السبعة حسب المفهوم الايراني

كالاول . والاقليم الخامس قسطنطينية والروم والخزر وعرضه وطوله كالاول . والاقليم السادس فرنجة وأمم أخرى وعرضه وطوله كالاول . والاقليم السابع الترك ورجاهم ونساؤهم متركو الوجوه لغلبة البرد عليهم وسباعهم صغيرة ولا يوجد هناك حشرات ولا هوام .

غير ان هذا المفهوم الاقليمي ما لبث ان أهمل تدريجياً حتى لم يعد يتكرر ذكره في كتب الجغرافية العربية ، وحل محله المفهوم الاقليمي اليوناني . وكانت الافكار الاغريقية - الرومانية قد بدأت تسيطر على كتابات الجغرافية العربية منذ أواخر القرن الثالث الهجري حينما نشرت أكثر من ترجمة لكتابي بطليموس (المجسطي) و (جغرافيا) . وكان التقسيم اليوناني الاقليمي للارض المعمورة يستند الى أسس علمية أكثر من التقسيم الايراني ، اذ انه يعتمد على تحديد مواضع الارض على أساس فلكي . ولقد بلغ هذا المفهوم الاقليمي أوج نضجه على يدي بطليموس حيث قسم الارض المعمورة الى سبعة أقاليم على هيئة احزمة عريضة تمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب فوق خط الاستواء ، ويختلف كل اقليم عن الآخر بعدد ساعات النهار فيه . ويبدأ الاقليم الاول بحوالي خط عرض ١٦° جنوباً وينتهي الاقليم السابع بحوالي خط عرض ٦٣° شمالاً . وتتفاوت عروض الاقاليم فيما بينها بحيث تختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من اقليم الى آخر . ونظراً لان الجغرافيين والفلكيين العرب الاوائل قد وقعوا تحت تأثير كتابي (الجغرافيا) و (المجسطي) ، فقد ساد في كتاباتهم التقسيم البطليموسي للارض المعمورة ، كما اعتمدوا عليه في تحديد الاطوال والعروض والمواقع . ولا شك ان كتاب الخوارزمي المعنون (صورة الارض) يمثل أفضل انعكاس وصل الى ايدينا للاقاليم البطليموسية في الجغرافية العربية ، بيد أن هناك اختلاف بين الباحثين بشأن هذا الكتاب . فمنهم من يعتقد انه ليس سوى ترجمة مختصرة لكتاب (جغرافيا) لبطليموس ، ومن هؤلاء ناشر المخطوطة هانس فون مزيك الذي جعل عنوانه (كتاب صورة الارض من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار استخراجة أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب جغرافيا الذي ألفه بطليموس القلوذي) (٧) . غير أن عدداً آخر من الباحثين يرى بأن كتاب الخوارزمي هذا لا علاقة له بكتاب جغرافيا لبطليموس . وينفي أحدهم بشدة مثل هذه العلاقة مؤكداً بأن

(٧) راجع كتاب (صورة الارض) - لمحمد بن موسى الخوارزمي ، نشر مكتبة المثنى عن طبعة هانس فون مزيك .

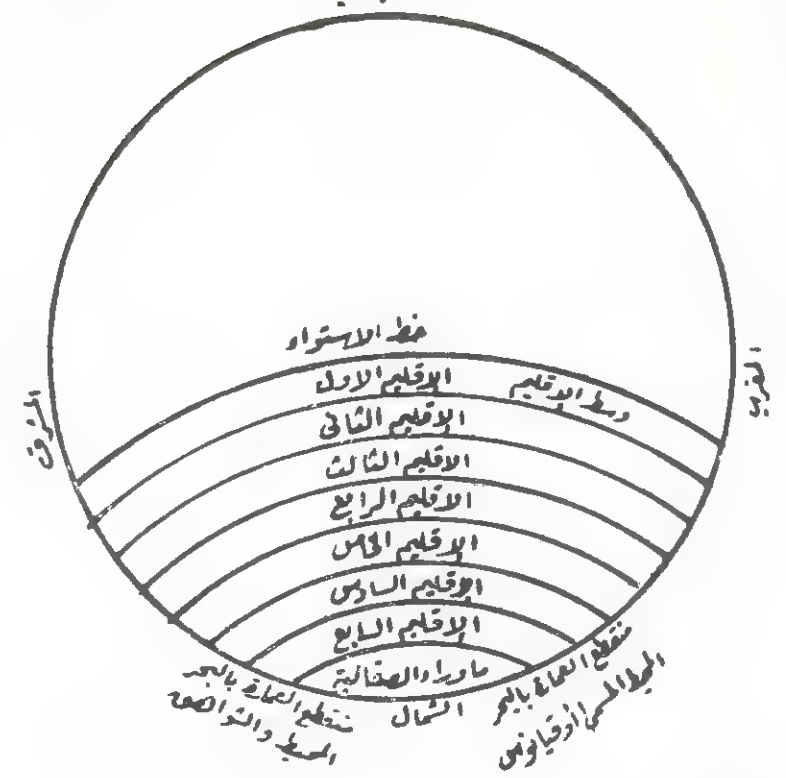
الخوارزمي قد ألف كتابه هذا قبل اطلاعه على ترجمة الكندي لذلك الكتاب (٨) . ويذهب كرايمر نفس هذا المذهب ، ويقول بصدد ذلك (« ان جداول كتاب صورة الارض للخوارزمي قد رتب على طريقة الاقاليم السبعة وهي الطريقة التي مهر فيها العلماء المسلمون على ما يظهر قبل أن يتلقوا جغرافية بطليموس ، ومن ثم أصبحت هذه الطريقة مذهباً شائعاً في المصنفات الفلكية الاسلامية وفي كثير من الرسائل الجغرافية بعد أن كانت في الجغرافية القديمة فكرة ثانوية . . » (٩) .

ومهما يكن الأمر فان تقسيم الخوارزمي لاقاليم الارض المعمورة يكشف عن تشابه مع تقسيم بطليموس ، الا أن الخوارزمي اعتبر الحد الجنوبي للمعمور من الارض خط عرض ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة جنوب خط الاستواء في حين اعتبره بطليموس خط عرض ١٦ درجة جنوباً ، كما انه جعل خط الطول الرئيسي (خط صفر) يبدأ عند الساحل الافريقي الغربي ، بينما يبدأ خط الطول (صفر) في التقسيم البطليموسي عند جزائر السعادة (جزر كناري) ، أي ان بينهما حوالي عشر درجات . وقد أورد الخوارزمي حدود أقاليم الارض المعمورة السبع على النحو التالي (١٠) :

الأقاليم	الدرجات	الدقائق	الدرجات	الدقائق	عروض الأقاليم
١ - الاقليم الاول من	٠٠	٠٠ الى ١٦	٢٤	١٦	٢٤
٢ - الاقليم الثاني من	١٦	٢٤ الى ٢٤	٥	٧	٤١
٣ - الاقليم الثالث من	٢٤	٥ الى ٣٠	٢٢	٦٠	١٧
٤ - الاقليم الرابع من	٣٠	٢٢ الى ٣٦	٥	٥	٤٣
٥ - الاقليم الخامس من	٥٦	٥ الى ٤١	٥	٥	١٠
٦ - الاقليم السادس من	٤١	٥ الى ٤٥	٠٠	٣	٥٥
٧ - الاقليم السابع من	٤٥	٤٠ الى ٤٨	٠٠	٣	٠١

(ما خلف الاقليم السابع الى درجة عرض ٦٣ وهو آخر العمران)

(٨) راجع بحث ابراهيم شوكت المعنون (تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به) ، ص ٨ - ٩ .
(٩) الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية - تأليف الدكتور أحمد سوسة - الباب الاول ، منشورات نقابة المهندسين العراقية - بغداد ١٩٧٤ ، ص ١٢٣ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
(*) من المقيّد أن نشير هنا الى أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا يدوّنون درجات العرض والطول للاقاليم =



شكل ٢ - مخطط للاقاليم السبعة حسب المفهوم البطليموسي (عن ياقوت الحموي)

ولقد ظل هذا المفهوم الاقليمي للارض المعمورة ذي الملامح البطليموسية اليونانية

بالحروف بدلا من الارقام وقد أعطوا تلك الحروف الارقام التالية :

أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، ص = ٩٠ ، ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ، ذ = ٧٠٠ ، ظ = ٨٠٠ ، ض = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠ .

سائداً في كتابات الجغرافية العربية وروّجه على نحو الخصوص الفرغاني والخوازمي وسهراب والبيروني والادريسي ، الا ان امتدادات كل اقليم من تلك الاقاليم وما يشتمل عليه من بلدان الأرض كانت تتسع باتساع معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن جهات الارض المعمورة . والحقيقة ان استعراض كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين عبر القرون عن الاقاليم السبعة توضح بنا مدى ما بلغت الجغرافية العربية من تقدم في معرفتها بجهات الارض المأهولة . وسنستعرض في الصفحات التالية كتابات ثلاثة من الجغرافيين المسلمين الكبار عن الاقاليم السبعة تمثل مختلف مراحل تطور المعرفة الجغرافية العربية ببلدان الارض ، وهم ابن رسته وياقوت الحموي وابن خلدون .

قال ابن رسته في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) المؤلف في حوالي عام ٢٩٠ هـ متحدثاً عن الاقاليم السبعة (وهو ينقل عن الخوارزمي كما يبدو) : « ذكر الاقاليم السبعة واسماء مدنها المشهورة » .

الاقليم الاول يتبدى من المشرق من اقاصي بلاد الصين ويمر على الصين ثم يمر على سواحل البحر في جنوب بلاد السند ثم يمر في البحر على جزيرة الكول ويقطع البحر الى جزيرة العرب وارض اليمن . فيكون فيه من المدائن المعروفة مدينة ظفار وعمان وحضرموت وعدن وصنعاء وما وراء تبالة وجرش ومهرة وسبأ . ثم يقطع الاقليم بحر قلزم فيمر على بلاد الحبشة ويقطع نيل مصر وفيه هناك مدينة ملك الحبشة تسمى جرمي ودنقلة مدينة النوبة ثم يمر الاقليم في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر الى أن ينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الثاني يتبدى من المشرق فيمر على بلاد الصين ثم على بلاد الهند ثم بلاد السند وفيه المنصورة والنيرون والديبل ثم يمر بملتقى البحر الاخضر وبحر البصرة ويقطع الجزيرة العربية في ارض نجد وارض تهامة وفيه من المدن هناك اليمامة والبحرين وهجر ومدينة يثرب والبحار ومكة والطائف وجدة ثم يقطع بحر القلزم ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل وفيه من المدن هناك مدينة قوس واخميم واستاي واتصنا واسنوان ثم يمر بارض المغرب في وسط بلاد أفريقية ثم يمر على بلاد البربر فينتهي الى بحر المغرب .

والاقليم الثالث يتبدى من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ثم على بلاد الهند وفيه مدينة القندهار وسجستان وجيرفت والسرطان ثم على سواحل البصرة ، وفيها من المدن مدينة اصطخر وفسا وجور ونيسابور وشيراز وسيراف وجنابا وسينين

وماهيريوبان ويمر بكور الاهواز والعراق وفيها البصرة وواسط وبغداد والكوفة والانباء وهيت . ثم يمر على بلاد الشام وفيها من المدن الحيار وسلمية وحمص ودمشق وصور وعكا والطبرية وقيسارية ورسوف وبيت المقدس ورملة وعسقلان وغزة ومدكين وقلزم ثم يقطع الى أسفل أرض مصر وفيها الفرما وتينس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم والاسكندرية . ثم يمر على بلاد برقة ثم على بلاد أفريقية وفيها مدينة القيروان وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الرابع يبتدىء من المشرق فيمر ببلاد التبت ثم على خراسان فيكون فيها من المدن فرغانة وخجندة واشروشنه وسمرقند وبخارا وبلخ ومرو الروذ ومرو وسرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان وديباوند وقزوين والديلم والري واصبهان وقم وهمذان ونهاوند والدينور وحلوان وشهرزور وسر من رأى والموصل وبلد نصيبين وآمد ورأس العين وقالي قلا وشمشاط وحران والرقه وقرقيسيا . ويمر على شمال الشام ففيه من المدن بالس ومنبج وسميساط وملطية وزبطرة وحلب وقنسرين وانطاكية وطرابلس والمصيصة والكنيسة السوداء وأذنة وطرسوس وعمورية ولاذقية ثم يمر في بحر الشام على جزيرة قبرص ورودرس . ثم يمر في أرض المغرب على بلاد طنجة وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الخامس يبتدىء من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمر على شمال خراسان وفيها من المدن الطراز مدينة التجار ونويكت واسيجاب والشاش وطرازبند وخوارزم واذربيجان وكور ارمينية وبرذعة نشوى وسيسجان وأرزن وخلاط . ويمر في بلاد الروم على خرشنه وقره والرومية الكبيرة ، ثم يمر بساحل بحر الشام مما يلي الشمال ثم على بلاد الاندلس حتى ينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم السادس يبتدىء من المشرق ويمر على بلاد مأجوج ثم على بلاد الخزر فيقطع بحر طبرستان الى بلاد الروم فيمر على جرزان وأماسيا وهرقله وخلقيدون والقسطنطينية وبلاد برجان وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم السابع يبتدىء من المشرق من شمال يأجوج ثم يمر على بلاد الترك ثم على سواحل بحر طبرستان مما يلي الشمال ثم يقطع بحر الروم فيمر ببلاد برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب .

وأما وراء هذه الاقاليم الى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فانه يبتدىء من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمر على بلاد التغرغز وأرض الترك ثم على بلاد اللان ثم

على الأبر ثم على برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب .

فهذه مواضع عمران الارض ومواضع بحورها مما يعرف . فأما ما وراء ذلك فأرضين مجهولتان لم يصل اليها أحد من هذه الاقاليم ولا ذكر أحد انه عاين أحداً من تلك الارضين فلا يعلم ما فيها من نبات أو حيوان ، الا أنه قد نعلم اضطراراً انه غير ممكن أن يكون في المطالع التي يفرط حرها أو بردها حيوان أو نبات ^(١٢) .

فاذا ما انتقلنا الى حديث ياقوت الحموي عن الاقاليم السبعة (المنقول عن أبي الريحان البيروني كما يشير الى ذلك صراحة) والذي ورد في كتابه (معجم البلدان) المؤلف عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م . وجدنا تقدماً واضحاً في المعرفة الجغرافية بالجهات المتطرفة من قارة أوروبا وآسيا وأفريقيا . وقد ورد لديه التعريف بالاقاليم السبعة على النحو التالي :

« فالاقليم الاول : أوله حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار قدماً واحدة ونصفاً وعشراً وسدس قدم ، وآخره حيث يكون ظل الإستواء فيه نصف النهار قدمين وثلاثة أخماس قدم ، فهو من المشرق يبتدىء من أقصى بلاد الصين ويمر على ما يلي الجنوب من الصين ، وفيه جزيرة سرنديب ، وعلى سواحل البحر في جنوب بلاد السند ، ثم يقطع البحر الى جزيرة العرب وأرض اليمن ، ويقطع بحر القلزم الى بلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر وينتهي الى بحر المغرب ، فوق وسطه قريباً من أرض صنعاء وحضرموت ، ووقع طرفه الذي يلي الجنوب قريباً من أرض عدن ، ووقع طرفه الذي في الشمال بتهامة قريباً من مكة ، ووقع فيه من المدن المعمورة مدينة ملك الصين ، وجنوب السند ، وجزيرة الكرك وجنوب الهند ، ومن اليمن : صنعاء وعدن وحضرموت ونجران وجرش وجيشان وصعدة وسبأ وظفار ومهرة وعمان . ومن بلاد المغرب تبالة ، ومدينة صاحب الحبشة جرمي ، ومدينة النوبة دمقلة وجنوب البرابر وغانة من بلاد سودان المغرب الى البحر الاخضر .

الاقليم الثاني : حيث يكون ظل الاستواء في أوله نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار ، قدمين وثلاث أخماس قدم ، وآخره حيث يكون ظل الاستواء فيه نصف النهار ثلاثة اقدام ونصفاً وعشر سدس قدم ، ويبتدىء في المشرق فيمر على بلاد

(١٢) الاعلاق النفيسة - تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته - منشورات مكتبة المتن عن طبعة ليدن ، ص ٩٦ - ٩٩ .

الصين وبلاد الهند وعلى شمالها جبال قامرون وكنوج والسند ويمر بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة ، ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة والبحرين ، ثم يقطع بحر القلزم وينزل مصر الى أرض المغرب ، وفيه من المدن مدن بلاد الصين والهند ومن السند المنصورة ، وبلاد التتر ، والدبيل ويقطع البحر الى أرض العرب ، الى عمان ، فيقطع في وسطه مدينة الرسول (ص) يشرب ، ووقع في أقصاه الذي يلي الجنوب وراء مكة قليلاً ، ووقع في طرفه الأدنى الذي يلي الشمال بقرب الثعلبية ، وكل واحد من مكة والثعلبية من اقليمين ، وكذلك كل ما كان في سمتها ، ووقع في هذا الاقليم من مشهور المدن مكة والمدينة وفيد والثعلبية واليمامة وهجر وتباله وجدة والطائف ووجدة ومملكة الحبشة وارض البجة ، ومن أرض النيل : قوص واخميم وانصتا واسوان ، ومن المغرب : افريقيا وجبال من البربر الى أرض المغرب .

الاقليم الثالث : أوله حيث يكون الظل نصف النهار اذا استوى الليل والنهار ثلاثة اقدم ونصفاً وعشراً وسدس عشر قدم ، وآخره حيث يكون ظل الإستواء فيه نصف النهار أربعة اقدم ونصفاً وثلاث عشر قدم ، فيبلغ النهار في وسطه أربع عشرة ساعة ، وهو يبتدىء من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ، ثم الهند ثم السند ثم كابل وكرمان وسجستان وفارس والاهواز والعراقيين والشام ومصر والاسكندرية وفيه من المدن بعد بلاد الصين في وسطه بالقرب من مدين في شق الشام ، وأقصا في شق العراق ، وصارت الثعلبية وما كان في سمتها شرقاً وغرباً في طرفه الأقصى الذي يلي الجنوب ، وصارت مدينة السلام فارس وقندهار والهند ، وحد أرض السند الملتان ، ونهاية ، وكرور وجبال الافغانية وهور الشام وطبرية وبيروت ، في حده الأدنى الذي يلي الشمال ، وكذلك كل ما كان في سمت ذلك شرقاً وغرباً بين اقليمين . ووقع في هذا الاقليم من المدن المعروفة : غزة ، وكابل ، والرخج وجبال زبلستان وسجستان واصفهان وبست وزرنج وكرمان . ومن فارس اصطخر وجور وفسا وسابور وشيراز وسيراف وجنابة وسينيز ومهروبان وكور الأهواز كلها ، ومن العراق : البصرة واسط والكوفة وبغداد والانبار وهيت والجزيرة . ومن الشام : حمص في بعض الروايات ودمشق وصور وعكا وطبرية وقيسارية وارسوف والرملة والبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ، ومن أرض مصر : فرما وتيس ودمياط والفسطاط والاسكندرية والقيوم . ومن المغرب برقة وأفريقية والقيروان وقبائل البربر في أرض المغرب وتاهرت والسوس وبلاط طنجة وينتهي الى البحر المحيط .

الاقليم الرابع : وهو حيث يكون الظل اذا استوى الليل والنهار في آذار نصف

النهار أربعة اقدم وثلاثة أخماس قدم وثلاث خمس قدم . ويبتدىء من أرض الصين والتبت والختن وما بينهما من المدن ، ويمر على جبال كشمير وبلور وبرجان وبذخشان وكابل وغور وهراة وبلخ وطخارستان ومرو وقوهستان ونيسابور وقومس وجرجان وطبرستان والري وقم وقاشات وهمذان وأذربيجان والموصل وحران وعزاز والثغور وجزيرة قبرص ورودس وصفلية الى البحر المحيط على الزقاق بين الاندلس وبلاد المغرب ، فوقع طرف هذا الإقليم الأدنى الذي يلي العراق بالقرب من بغداد وما كان على سمتها شرقاً وغرباً ووقع طرفه الأدنى الذي يلي الشمال بالقرب من قالقلا وساحل طبرستان الى أردبيل وجرجان وما كان من هذا سمت ، وفيه من مشاهير المدن غير ما ذكره : نصيبين ودارا والرقتان ورأس عين وسميساط والرهاء ومنبج وحلب وقنسرين وانطاكية وحمص في رواية ، والمصيصة وأذنة وطرسوس وسر من رأى وحلوان وشهرزور وماسبذان والدينور ونهوند واصفهان ومراغة وزنجان وقزوين والكرخ وسرخس واصطخر وطوس ومرو الروذ وصيدا والكنيسة السوداء وعمورية واللاذقية .

الاقليم الخامس : أوله حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار خمسة اقدم وثلاثة أخماس قدم وسدس خمس قدم ووسطه حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار ستة اقدم ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار شرقاً أو غرباً ستة اقدم ونصف عشر وسدس عشر قدم ، والذي بين طرفيه عرضاً نحو من مائة وثلاثين ميل في الزاوية .

ويبتدىء من أرض الترك المشرقين ويأجوج المسدودين ، ويمر على أجناس الترك المعروفين بقبائلهم الى كاشغر والاصيفون وزاشت وفرغانة واسيجاب وشاش واشروسنة وسمرقند وبخارا وخوارزم وبحر الخزر الى باب الابواب وبرذعة وميافارقيين وأرمينية ودروب الروم وبلادهم ، وعلى رومية الكبرى وأرض الجلالقة وبلاد الاندلس وينتهي الى البحر المحيط . ووقع في وسطه بالقرب من أرض تفليس من بلاد ارمينية ومن جرجان وكل ما كان في هذا سمت من البلدان شرقاً وغرباً ، ووقع طرفه الذي يلي الجنوب بالقرب من خلاط ودبيل وسميساط وملطية وعمورية ، وما كان في سمت هذا من البلدان شرقاً وغرباً ، ووقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال بالقرب من دبيل ، وفي سمت بلدان يأجوج ومأجوج .

الاقليم السادس : أوله حين يكون الظل نصف النهار في الاستواء سبعة اقدم وستة أعشار وسدس عشر قدم ، يفضل آخره على أوله بقدم واحدة فقط ، يبتدىء من

مساكن ترك المشرق من قاني وقون وخرخيز وكيماك والتغزغز وأرض التركمانية وفاراب وبلاد الخزر وشمال بحرهم واللان والسريير بين هذا البحر وبحر طرابزنده ، ويمر على أرض القسطنطينية وأرض الفرنجة وشمال الاندلس ، حتى ينتهي إلى بحر المغرب ، وعرض هذا الاقليم في بعض الروايات نحو من مئتي ميل ونيف ، طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال ، فوقع بالقرب من أرض خوارزم ووراءها من طرابزنده الشاش مما يلي الترك ، ووقع وسطه بالقرب من القسطنطينية ، ومن أمل : خراسان وفرغانة ، وقد وقع في هذا الاقليم في رواية بعضهم كثير من المدن المذكورة في الاقليم الخامس وغيرها ، ومنها : سمرقند وباب الخزر والجبل اطراف بلاد الاندلس التي تلي الشمال ، اطراف بلاد الصقالبة التي تلي الجنوب ، وهرقلة .

الاقليم السابع : أوله حيث يكون النهار في الاستواء سبعة أقدام ونصفاً وعشرًا وسدس عشر قدم كما هو في الاقليم السادس لأن آخره أول هذا ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار في الاستواء ثمانية أقدام ونصفاً ونصف عشر قدم ، وليس فيه كثير من العمران ، إنما هو في المشرق غياض وجبال يأوي إليها فرق من الترك كالمستوحشين ، ويمر على جبال باشغرو وحدود البجناكية وبلدي سرار وبلغار والروس والصقالبة والبلغرية وينتهي إلى البحر المحيط . وقليل من وراء هذا الاقليم من الأمم مثل أيسو ورائك وبوزة وأمثالهم . ووقع في طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع الطرف الأقصى الشمالي من الاقليم الخامس ، وطرفه الأقصى في الاقليم السادس الذي يليه ، وذلك سمت خوارزم وطرابزنده شرقاً وغرباً ، ووقع في طرفه الأقصى الذي يلي الشمال في أقاصي أراضي الصقالبة شرقاً وأطراف الترك الذين يلون خوارزم في الشمال ، ووقع وسطه في اللان ، ولم يقع فيه مدن معروفة فتذكر ، وأطول نهار هؤلاء في أول الاقليم خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وأوسطه ست عشرة ساعة وآخره ست عشرة ساعة وربع (١٣) .

أما حديث ابن خلدون عن الاقاليم السبعة (والذي اعتمد فيه بدرجة رئيسية على الادريسي) فإنه يمثل أقصى اتساع للمعرفة عن الربع المعمور كما ورد في كتابات الجغرافية العربية . وقد شرح ابن خلدون الاقاليم السبعة في (مقدمته) المؤلف في

(١٣) ياقوت الحموي - المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٣٢ .

أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على النحو التالي :

« الاقليم الاول : وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الاقليم وإنما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ، ويقال إنها معمورة . وقد بلغنا أن سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقتلواهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان . فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتضرون الأرض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتلهم بالحجارة يرمونها إلى خلف وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة . ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها ، لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهاجها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب . وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذة بحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلاف مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمون الكناص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لأنها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها . وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبداه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اولئك . وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغاناه وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها . وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم للم وهم كفار ويكتنون في وجوههم واصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا اناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربما

مساكن ترك المشرق من قاني وقون وخرخيز وكيماك والتغزغز وأرض التركمانية وفاراب وبلاد الخزر وشمال بحرهم واللان والسرير بين هذا البحر وبحر طرابزنده ، ويمر على أرض القسطنطينية وأرض الفرنجة وشمال الاندلس ، حتى ينتهي الى بحر المغرب ، وعرض هذا الاقليم في بعض الروايات نحو من مئتي ميل ونيف ، طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال ، فوقع بالقرب من أرض خوارزم ووراءها من طرابزنده الشاش مما يلي الترك ، ووقع وسطه بالقرب من القسطنطينية ، ومن أمل : خراسان وفرغانة ، وقد وقع في هذا الاقليم في رواية بعضهم كثير من المدن المذكورة في الاقليم الخامس وغيرها ، ومنها : سمرقند وباب الخزر والجبل واطراف بلاد الاندلس التي تلي الشمال ، واطراف بلاد الصقالبة التي تلي الجنوب ، وهرقلة .

الاقليم السابع : أوله حيث يكون النهار في الاستواء سبعة أقدام ونصفاً وعشرًا وسدس عشر قدم كما هو في الاقليم السادس لان آخره أول هذا ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار في الاستواء ثمانية أقدام ونصفاً ونصف عشر قدم ، وليس فيه كثير من العمران ، انما هو في المشرق غياض وجبال يأوي اليها فرق من الترك كالمستوحشين ، ويمر على جبال باشغرو وحدود البجناكية وبلدي سرار وبلغار والروس والصقالبة والبلغرية وينتهي الى البحر المحيط . وقليل من وراء هذا الاقليم من الأمم مثل أيسو ورائك وبوزة وأمشاهم . ووقع في طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع الطرف الأقصى الشمالي من الاقليم الخامس ، وطرفه الأقصى في الاقليم السادس الذي يليه ، وذلك سمت خوارزم وطرابزنده شرقاً وغرباً ، ووقع في طرفه الأقصى الذي يلي الشمال في أقاصي أراضي الصقالبة شرقاً واطراف الترك الذين يلون خوارزم في الشمال ، ووقع وسطه في اللان ، ولم يقع فيه مدن معروفة فتذكر ، وأطول نهار هؤلاء في أول الاقليم خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وأوسطه ست عشرة ساعة وآخره ست عشرة ساعة وربع (١٣) .

أما حديث ابن خلدون عن الاقاليم السبعة (والذي اعتمد فيه بدرجة رئيسية على الادريسي) فانه يمثل أقصى اتساع للمعرفة عن الربع المعمور كما ورد في كتابات الجغرافية العربية . وقد شرح ابن خلدون الاقاليم السبعة في (مقدمته) المؤلفة في

(١٣) ياقوت الحموي - المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٣٢ .

أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على النحو التالي :

« الاقليم الاول : وفيه من جهة غريبه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ، ويقال انها معمورة . وقد بلغنا ان سفائن من الافرنج مرّت بها في أواسط هذه المائة وقتلواهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا الى خدمة السلطان . فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعر وماشيئهم المعز وقتلهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة . ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها ، لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهاجها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب . واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلاف مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباض وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانا ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها . وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبداه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اولئك . وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانه وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها . وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم للمم وهم كفار ويكتنون في وجوههم واصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا اناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفياقي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة وربما

يأكل بعضهم بعضاً وليسوا في عداد البشر . وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدراين ووركلان . فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح . وقال صاحب كتاب زخار انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن . ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن . وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي . وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي واصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر . وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان ، وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه . وفي شرقي بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتلصرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم ، وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال ، ويخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر الساء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل الهند ، وكذا ضبطه ابن سعيد . فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمس منها في بحيرة وبينها ستة أميال . ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة انهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في اسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال . وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ، ويخرج الشرقي منه ذاهباً الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيها بينهما . وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد في بحيرة ملحقة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول . وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلق ، وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد الى فوق الجنادل . وبين الجنادل واسوان اثنتا عشرة مرحلة . والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الان خراب وبها آثار العمارة

القديمة . وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهباً الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر انه ليس من هذا النيل . والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ، ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة او فيما على سواحل من جهة الشمال ، وليس منها في هذا الاقليم الاول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال بحران وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب ، وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليها كما نذكره في الاقليم الثاني وما بعده . فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم والهابط من البحر الهندي . وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي تمتد مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلاً فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريباً من مصر . وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك ، وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ، ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ، ومنها على ساحله بلد علي ابن يعقوب . وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضاً . وينعطف من جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة . من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل . وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة . ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر آخر في هذا البحر كثيرة العدد ، وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد . وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك

متعددون ، وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا . وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها ، فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن ، وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدها الى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطي وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين . ومن مدنه الشهيرة خانكو وقيالته من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها . وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله .

الاقليم الثاني : وهو متصل بالاول من جهة الشمال ، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها . وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الأعلى منها أرض قنورية ، وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ، ثم مجالات زغاوة من السودان . وفي الجانب الأسفل منها صحراء نستر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولتونة ومسراته ولطة ووريكة . وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ، ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق . وبعدها من هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان . وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة . وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباحوتين ، ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر ، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه . وعليه من أعلاه بلد أسنا وأرمنت . ويتصل كذلك حافته الى اسيوط وقوص ثم الى صول . ويفترق النيل هنالك على شعبتين ينتهي الايمن منها في هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر . وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب الى جهة الشمال ، وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يللم الى بلاد يثرب . في وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب

في العدو الغربية من هذا البحر . وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتباله وجرش الى عكاظ من الشمال ، وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز ، وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر ، وتحتها أرض اليمامة ، وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ، ثم أرض الشحر ، وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر . ويذهب في هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة من أعلاها مدينة قلهاث وهي ساحل الشحر ، ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ، ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء . وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ، ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران . ويقابلها بلاد الطويران وهي من السند أيضاً ، فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند ، ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب . وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقاً بلاد بلهرا ، وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل ، وبعدها شرقاً الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشيمير الداخلة وقشيمير الخارجة عند آخر الاقليم . وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ، ويتصل فيه الى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه الى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون . ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم .

الاقليم الثالث : وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ، ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره . وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة . ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول ، وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ، ثم بلاد سجلماسة ، ثم قطعة من صحراء نستر المفاوز التي ذكرناها في الاقليم الثاني . وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهي . وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة ، وهم آخر المصامدة فيه ، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة ، وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل

زناته . ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة ، وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم . ثم أن جبل درن هذا من جهة غربية مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه . ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراکش واغمات وتاذلا ، وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى ومدينة سلا ، وفي الجوف عن بلاد مراکش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ، وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها . وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان اصيلا والعرايش . وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان . وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقاً فينتهي الى بلاد الشام . فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالاً فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده . ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ، ثم قسطنطينية في الشرق منها . وفي آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعاً الى جنوب المغرب الاوسط بلد أشير ، ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل اوراس المتصل بدرن كما مر ، وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق . والجزء الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول . ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله . فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كلها مفاوز ، وفي الشرق منها بلد غدامس ، وفي سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الاقليم الثاني كما مر . والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسة والأوبس ، وعلى ساحل البحر بلدة بونة . ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد افريقية ، فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم السوسة ثم المهدية . وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزو وقفصة ونفزاوة . وفيها بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطلة . وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي . وبازائها في الجنوب جبل دمر ، ونقرة من قبائل هواة متصلة بجبل درن . وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سوقة بن مشكورة على البحر ، وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضاً فيه جبل درن ، الا انه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في البحر الرومي ، ويسمى هنالك طرف اوثنان .

والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه الى ان يضايق ما بينه وبين جبل درن . فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها . ثم زويلة بن خطاب ، ثم رمال وقفار الى آخر الجزء في الشرق . وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت ، على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ، ثم اجدابية ، ثم برقة عند منعطف الجبل ، ثم طلسمه على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحه الى آخر الجزء . وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق ، وأسفل منها بلاد هيب ورواحه . ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب . وعلى سمتها شرقاً بلاد الفيوم وهي على مصب احد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم . وعلى سمتة شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني . ويفترق هذا الشعب افتراقاً ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطونوف وزفتي ، وينقسم الايمن منها من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي . فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط . وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية اسافل الديار المصرية كلها محشوة عمراً وفلجاً . وفي الجزء الخامس من هذه الاقاليم بلاد الشاد واكثرها على ما أصف وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في ممره مبتدئ من البحر الهندي الى الشمال ينعطف أخذاً الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس . وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ، ثم جبل الطور ، ثم ايلة مدين ، ثم الحوراء في آخرها . ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربية عليها القرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضاعف ما بينها من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا الى أرض الشام . وفي غربي هذا الباب قحص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام اربعين سنة كما قصه القرآن . وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كما نذكره . وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية ، وعسقلان

وبينها طرف هذا البحر . ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق . وعلى هذه القطعة اكثر سواحل الشام ، ففي شرقه غزة ثم عسقلان ، وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ، ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ، ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع . ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام . ففي طرفه عند ايلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر الى مكة ، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ، ثم ينعطف قليلا . وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل وهي اسافل الحجاز ، وفوقها جبل رضوي وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها . وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك . وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ، ثم الاردن ثم طبرية . وفي شرقيها بلاد الغور الى أذرعات ، وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز . وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها . وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام . وفي الشرق من بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء . وفي الجزء السادس من اعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس . وفي اسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة القادسية ومغايض الفرات ، وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة . وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والابلة من اسافل الجزء من شماله . ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول اخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس . وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاها متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه . وعلى عدوتها الغربية منه اسافل البحرين وهجر والاحساء ، وفي غربها أخطب والضمان وبقية أرض اليمامة . وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً . ووراءه الى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان . وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودار أبجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي

قاعدتها كلها . وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وصدى وسابور والسوس ورام هرمز وغيرها . وارجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان جبال الاكراد متصلة الى نواحي اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراؤها في أرض فارس وتسمى الرسوم . وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص ، ويلها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودن والشيرجان وجيرفت ويزدشير والبهرج . وتحت أرض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان . ومدينة اصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله . ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان ، وكوهستان في الجنوب ، وأرض كوهستان في الشمال غرباً . ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان وفي وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها . ومن مدن سجستان بست والطاق . وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء . وفي الجزء الثامن من غربه وجنوب مجالات الجلع من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها . وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند . وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ، ثم في الشمال غرباً الى آخر الجزء بلاد هرات اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطارقان والجوزجان ، وتنتهي خراسان هنالك الى نهر جيحون . على هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ ، وفي شرقيه مدينة ترمذ . ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك . وهذا النهر جيحون مخرجه من بلاد وجر في حدود بدخشان مما يلي الهند . ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب . ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمتة الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما نذكره . ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة انهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وانهار اخرى من جبال البتم من شرقيه ايضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ، ومن هذه الانهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغرباً بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء . ويعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء مشرقاً بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء

ويحول بين الترك وبين بلاد الختل . وليس فيه الا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبنى فيه باباً كسد ياجوج وماجوج . فاذا خرج نهر وختاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى ان يمر في بلاد الوخش . ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ، ثم يمر هابطاً الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان . وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان . وفي العدو الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال ، وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ، ويمر تحته نهر وختاب كما قلناه فيتصل عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال . وانهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال . ونهر بلخ يخرج من جبال البتم مبدؤه عند الجوزجان ويصب فيه من غربية بلاد أمد من خراسان . وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصفد واسروشنه من بلاد الترك . وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم الى شمالها . وفي الجزء التاسع من غربه أرض التبت الى وسط الجزء . وفي جنوبها بلاد الهند . وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء . وفي أسفل هذا الجزء شمالاً عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالاً . ويتصل بها من غربها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . ومن شرقها أرض التفرغز من الترك الى الجزء شرقاً وشمالاً . وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين واسافله . وفي الشمال بقية بلاد التفرغز ، ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك . وقبلتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك ، والصعود الى اعلاه من خارجه صعب في الغاية . وفي الجزيرة حيات قتاله وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال اهل تلك الناحية بما يلهمهم الله اليه . واهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظواغن رحالة اهل ابل وشاة وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل . وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهند والعراق .

الاقليم الرابع : يتصل بالثالث من جهة الشمال . والجزء الاول منه في غربيه

قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوباً الى آخره شمالاً وعليها في الجنوب مدينة طنجة . ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالاً وقصر المجاز وسبته جنوباً ويذهب مشرقاً الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم . وينفسح في ذهابه بتدرج الى ان يغمر الأربعة الاجزاء وأكثر الخامس من هذا الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ما يرقه ثم منرقة ثم سرديانية ثم صقلية وهي أعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في اجزائها التي وقعت فيها . ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه ويمر مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس . ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضيقاً في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفضي الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطنش ذاهباً الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه . وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها مدينة سبته على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس . ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً ويخرج الى الثالث وأكثر العماراة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الاندلس ، الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريق عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنقب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً . وعلى مقربة منه شريش ثم لبلة ، وقبلتها فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ، ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة . وتحت هذه شتمرية وشلب على البحر المحيط غرباً . وفي الشرق عنهما بلطوس وماردة وبابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رباح . وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غرباً . وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها شتيرين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف . ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبيل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقاً مع آخر الجزء من شماليه فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه . وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورة ثم

طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم . وعند اول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية وهذه غربي الاندلس . واما شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لفتبة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء في الشرق . وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تاتاخان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء . ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالا عنها . ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا . والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقاً ويمر في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل وتسمى أرض غسكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة . وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم ازبونة . وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرهما . ففي غربيه جزيرة سرادنية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلزم وطرابغة ومازر ومسيني ، وهذه الجزيرة تقابل أرض افريقية وفيما بينهما جزيرة اعدوش ومالطة . والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر الا ثلاث قطع من ناحية الشمال ، الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض ابكيدة والشرقية من بلاد البنادقة . والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه . والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلثين من الجزء ، ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها الى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه . وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام . ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة . ومن هناك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من

عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق . ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى ان ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر الجزء من الشمال . وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الارمن . وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة . فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا ان فيها أسافل الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر بلد انطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث . وفي شمال انطرطوس جيلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية ، وبعدها شمالا بلاد الروم . وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الاسماعيلية ويعرفون هذا العهد بالفداوية ويسمى مصيات وهو بادية انطرطوس . وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص . وفي الشمال وفي مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ، ويقابلها في شرق الجبل المعرة . وفي شرقها المراغة وفي شمال انطاكية المصيصة ، ثم اذنة ثم طرسوس آخر الشام . ويجاذبها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة ، وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ، ويقابل عين زربة منبج آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان ، وفي ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا . وأما بلاد الارمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالي . ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطاً الى الشمال ومغرباً حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية . ويمر نهر سيحان موازياً لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام . ثم يمر بين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغرباً فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها . وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الراقصة والركة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وأمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه . ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن جنوباً الى أن يتجاوزا جبل السلسلة ، فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف الى

الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقعة ويخرج الى الجزء السادس . ويمر دجلة في شرق آمد وينعطف قريباً الى الشرق فيخرج قريباً الى الجزء السادس . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق الى قرب آخر الجزء . ويعترض من آخر العراق هنالك جبل اصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغرباً الى ان يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمتة بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية . ففي الغربية من جنوبها مخرج الفرات من الخامس ، وفي شمالها مخرج دجلة منه . اما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ، ويمر من قرقيسيا غير بعيد ، ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جداول . من هنالك يمر جنوباً ويبقى صفيين في غربيه ، ثم ينعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين ويخرج جميعاً في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية . ويخرج الفرات من الرحبة مشرقاً على سمتة الى هيت من شمالها ، يمر الى الزاب والانبار من جنوبها ثم يصب في دجلة عند بغداد . وأما نهر دجلة فاذا ادخل في الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكرت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك . ويمر على سمتة جنوباً وفي غرب القادسية الى ان ينتهي الى بغداد . ويختلط بالفرات ثم يمر جنوباً على غرب جرجاريا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهري الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة . ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقتها ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولاء ، وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة . وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقاً الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان من الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غرباً عند ملتقى الجبلين والدينور شرقاً عند آخر الجزء . وفي القطعة

الصغرى الثانية طرف من بلاد ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للاكراد ، والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه . وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربيجان ، ومنها تبريز والبيدقان . وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطن وهو بحر الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه معظم بلاد الهلوس ، وفيها همدان وقزوین وبقيتها في الاقليم الثالث . وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب وجبل يخرج من غربيها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وانه يحيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية . ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها ، وتحت هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ، ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس . ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه . ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً الى آخر هذا الجزء . ومن جنوبه من هنالك قزوین ومن جانبيه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان . ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربيه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمتة مشرقاً ويانحرف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربيه . ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام . ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان . وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراياذ وحافات هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان . ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ، ثم مرو الشاهجان آخر الجزء . وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً وكل هذا تحت الجبل . وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزئين الشمال والشرق مفاز معطلة . وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب الى الشمال ، ففي عدوته الغربية رمم وأمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم . ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله . ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة

والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك . وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصفد وقاعدتها سمرقند ، ثم سردار وأشنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقاً ، وفي الشمال عن سمرقند وسردار وأشنه أرض ايلاق ، ثم في الشمال عن ايلاق أرض الشاش الى آخر الجزء شرقاً . ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة . يخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس . ويختلط معه ايلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تحوم بلاد التبت . ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة . وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث . وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب ، وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة . وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد اسبيجاب وطراز . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال . وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية . ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج ، وهذه الامم كلها من شعوب الترك . انتهى .

الاقليم الخامس : الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم . فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث . ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقاً عنها ، وفي جرفها سمورة ، وفي الشرق من سلمنكة ايلة آخر الجنوب ، وأرض قستالية شرقاً عنها ، وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ، ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شتياقو ومعناه يعقوب . وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب ، وشرقاً عن قستالية وفي شمالها وشرقيها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقاً وشمالاً . وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجزة

فما بينها وبين برغشت . ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرناه من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجراً على بلاد الاندلس من جهة الشرق ، وثناياه لها أبواب تفضي الى بلاد غشكونية من أمم الفرنج . فمنها من الاقليم الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومي ، وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال ، ومنها من الاقليم الخامس طلوثة شمالاً عن خريدة . وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقاً وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد ليونة . وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء . وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما . وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلية في جون من البحر . وعلى رأس هذه القطعة شمالاً بلاد جنوة . وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينها جون داخل من البر في غربيه نيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك الافرنجية ومسكن البابا بطركهم الأعظم ، وفيها من المباني الضخمة والهياكل والكنائس العادية ما هو معروف الاختبار . ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس ، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الخواريين وهما مدفونان بها . وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصيصة الى آخر الجزء . وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج . وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو ثلث منه ، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط . ومن شماله بلاد انكلابية في الاقليم السادس . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء . في شرقي بلاد قلورية بلاد انكليودة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي

ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي . ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يؤازره ويذهب معه الى الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد انكلابية من أمم اللمانيين كما تذكر . وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داماً ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة ، فاذا ذهبوا الى المغرب فبينها بلاد حروايا ثم بلاد الالمانيين عن طرف الخليج . وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر ، ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما . وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى ان يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقاً الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر . وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القباصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث . والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم . وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان ، وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الامم الى ان صارت للتركمان . وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس . وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية . وفي شرقي عمورية نهر قباقيب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع . وهناك في غربيه آخر جزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبون على سمته وقد مر ذكرهما . وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته وفي مؤازرته حتى يخالطه عند بغداد . وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافرقين ، ونهر قباقيب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه واسافلها الى آخر الجزء شمالاً ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقيب أرض عمورية كما قلناه . والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقيب وهي عريضة . وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد حرشنة . وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة

من بحر نيطش الذي يمد خليج القسطنطينية . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق . وفيها بلدان ، أردن في الجنوب والغرب ، وفي شمالها تفليس وديبل ، وفي شرق أردن مدينة خلط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية . ومن هنالك يخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع ، وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الاكراد المسمى بأرمي وقد مر ذكره في الجزء السادس منه . ويتأخم بلاد ارمية في هذا الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد اذربيجان . وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان . وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان . ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطه ببلد ميافرقين ، ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في اسفل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر . وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانياً كالأبواب تفضي من الجانبين . ففي جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب . وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد ارمينية وبينها في الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان . وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها . وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطش الذي يمد خليج القسطنطينية وقد مر ذكره . ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد اطرايزدة . وتتصل السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء الى ان ينتهي شرقاً الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول . ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالاً . والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخارج جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين . وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضاً . وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر اتل في هذا البحر . ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك ، يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان

يلقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه الى بقيته في الاقليم السادس ، ثم يعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ، ويذهب مغرباً الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوباً الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا منه وهو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السريسر وأرض الخزر واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي . والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك ، وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها انهار كثيرة من أرض اربعمائة ميل وماؤها حلو . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء . وفي الجنوب عن بحيرة عرعرون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعرون وبه سميت البحيرة . وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة انهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركسن من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية . ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى يعطف أول دخوله من الجزء العاشر ، وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه ، واحاط من أوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغرباً الى آخره ، وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ، ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً الى الشمال وذهب على سمتة الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكره ، وبقيت منه القطعة التي احاط بها جبل قوقيا الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج . وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يأجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه الى شماله الا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه ، وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم .

الاقليم السادس : فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقاً من الناحية الشمالية ، ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريباً من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخله بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولاً وعرضاً وهي كلها أرض

بريطانية . وفي باهما بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صافس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس . والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة اكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه الى شرقيه انفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء . وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخمة وبقيتها في الاقليم السابع . وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمندية وبلاد اقلادش متصلين بها ، ثم بلاد افرنسية جنوباً وغرباً من هذا الجزء ، وبلاد برغونية شرقاً عنها ، وكلها لأمم الافرنجة ، وبلاد اللمانين في النصف الشرقي من الجزء ، فجنوبه بلاد أنكلايه ، ثم بلاد برغونية شمالاً ، ثم أرض هويكة وشطونية ، وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض افريرة وكلها لأمم اللمانين . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء الرابع ويمر مغرباً بانحراف الى الشمال الى ان يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي . وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب أرض جثولية ، وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غرباً الى ان يقف في النصف الشرقي . وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش فيقع قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج . وبينهما في الزاوية بلد مسيناه ، وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج من سمتة مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول الف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل . ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها الى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطنش متصلة بارض البيلقان من الاقليم الخامس ، وفي شرقيه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطنش . وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غرباً أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر . وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الاقليم . وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطنش وينحرف

قليلاً إلى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قمانية . وفي جنوبه منفسحاً إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس ، وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض برطاس ، وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار . وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياكوة المعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده . ويذهب بعد مفارقتة مغرباً فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جاوزه جبل سياه بعد مفارقتة بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غرباً . وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها . ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس ، وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب ويخناك وهم أمم الترك . وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولنج من الترك في الناحية الشمالية غرباً والأرض المنتنة وشرق الأرض التي يقال أن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد . وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الاثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس في الجزء السابع منه ، وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الأرض المنتنة من ثلاثة بنايع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالاً إلى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغرباً غير بعيد ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ويرجع إلى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغرباً ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ، ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج إلى الاقليم الخامس في الجزء السابع منه منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية . والجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد السركس منهم أيضاً . وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه إلى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه مغرباً وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع إلى سمتة الاول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب وفي وسطه هنا

السد الذي بناه الاسكندر ، ثم يخرج على سمتة إلى الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقي البحر المحيط في شماله ، ثم ينعطف معه من هنالك مغرباً إلى الاقليم السابع إلى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه . وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن . وقد ذكر عبد الله بن خردادبة في كتابه في الجغرافيا ان الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزعاً وبعث سلاماً الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا . وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد مأجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق .

الاقليم السابع : والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج . فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلترا التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطاف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً . ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب إلى الشرق . والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة في جنوبه تتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلونية . وفي شمالها جزيرة برعاقبة (وفي نسخة بوقاعة) مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق . والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمازك من الترك ، وفي شرقها بلاد طست ، ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل . ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه . وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية ، وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل . وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال . وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء

ارض التتارية من الترك (وفي نسخة التركمان) الى آخره . وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيه . وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف . وفي شرق بلاد القمانيه بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه . وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغر التي كان مبدؤها في الاقليم السادس . وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغر منعطف نهر أثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر . وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية ارض يخنك من أمم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء . ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحر ، ثم بقية الارض المنتنة الى آخر الجزء شرقاً . وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه . وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجهة الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الأقطار تمتع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفي وربما رثي فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال . وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد . وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يحوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس . ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه . وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله . والجزء العاشر غمر البحر جميعه » (١٤) .

تلك هي المفاهيم الرئيسية لفكرة « الاقليم » في الجغرافية العربية . غير ان هناك مفهوما آخر لمصطلح « الاقليم » قد برز على أيدي كتاب الجغرافية الاقليمية الاوائل وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، وقد قصدوا به المنطقة الجغرافية

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣ - ٨١ .

المحددة طبيعياً أو سياسياً ، وربما ادارياً أيضاً . وقد أشار ياقوت الحموي الى هذا النوع من « الاقليم » بقوله : « الاصطلاح الاول وهو اصطلاح العامة وجمهور الأمة وهو جار على ألسنة الناس دائماً ، وهو ان يسموا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى اقليماً نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية وغير ذلك . فالاقاليم على هذا كثيرة لا تحصى » (١٥) .

وقد أوضح الاصطخري استخدامه لمصطلح « الاقليم » الذي ينتمي الى هذا النمط بقوله : « أما بعد فاني ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك ، وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ، ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة افردتها مفردة مصورة تحكي موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والانهار وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم » (١٦) .

كذلك أشار ابن حوقل الى استخدامه لمصطلح « الاقليم » في هذا المعنى بقوله : « وقد عملت له كتابي هذا بصفة اشكال الارض ومقدارها في الطول والعرض واقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالاعمال المجموعة اليها . ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض لأن الصورة الهندية التي بالقوذايان ، وان كانت صحيحة ، فكثيرة التخليط ، وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع وما في اضعافها من المدن والاصقاع وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الانهار والبحار . . » (١٧) .

وهكذا يتضح ان المفهوم الاقليمي لهؤلاء الجغرافيين يختلف عن المفهومين الايراني واليوناني . فهو لا يتبع قوالب متفق عليها ، بل يخضع للمنهج الذي يتخذه الجغرافي في شرحه للاقطار المعنية . ولذلك فقد اختلف هؤلاء الجغرافيون الاقليميون فيما بينهم في تحديدهم لاقاليم الاسلام كما سنوضحه فيما بعد .

(١٥) ياقوت الحموي ، ص ٢٦ .

(١٦) المسالك والممالك - لأبي اسحاق ابراهيم الفارسي الاصطخري (المعروف بالكرخي) - منشورات وزارة الثقافة القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥ (حققه الدكتور محمد جابر عبد المال الحلي) .

(١٧) صورة الارض - لابن حوقل - منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ص ١٠ .

اضافات الجغرافيين العرب والمسلمين للمعرفة عن «الربع المعمور»

لاحظنا ان فكرة «الاقاليم السبعة» التي ثبتها بطليموس فلكياً وتأثر بها العرب في كتاباتهم الفلكية والجغرافية تشمل ما كان يسمى «الربع المعمور»، وهي المنطقة الشمالية من الأرض التي كان الجغرافيون يعتقدون انها وحدها التي يمكن أن يسكنها البشر وأن ما عداها أرض خالية لعدم صلاحيتها بسبب البرد أو الحر أو لانها مغمورة بالبحار. وقد عبر عن هذا المفهوم المسعودي في قوله:

«والأرض قسمان على ما قدّمنا أحدهما مسكون والآخر غير مسكون والعامر المسكون منهما على أقسام أحدهما مفرط الحر وهو ما كان من جهة الجنوب لان الشمس تقرب منه فيلتهب هواؤه والآخر الشمال وهو مفرط البرد لبعده الشمس عنه. وأما المشرق والمغرب فمعتدلان، وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر. وأما الذي ليس بمسكون فعلى قسمين أيضاً أما أن يفرط فيه البرد لبعده الشمس عنه، أو يفرط فيها الحر لقربها منه فلا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات. فالموضع الذي بعده في الشمال عن خط معدل النهار ست وستون درجة لا يمكن أن يكون فيه نشوء لافراط البرد عليه لبعده الشمس عنه. وإن ما كان عرضه ستة وستين جزءاً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة ستة أشهر نهار لا ليل فيه وستة أشهر ليل لا نهار فيه يبطل نهاره في الشتاء وليله في الصيف. والموضع الذي بعده في الجنوب من خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لافراط الحر عليه لقرب الشمس منه. قال المسعودي فأما أبطليموس فإن أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولي في أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية وإن عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاثة وستون جزءاً. وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب اليه في حدود المعمور من الأرض. وذهب أبطليموس الى ان نهاية العمارة في جهة الجنوبي تحت الموازي الذي بعده من معدل النهار ستة عشر جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة وربع

وسدس. وذهب قوم الى ان الموضع الذي لا يمكن ان يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب واحد وعشرون جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة، وإلى هذا ذهب يعقوب بن اسحاق الكندي في كتابه في رسم المعمور من الأرض» (١٨).

وكان الربع المعمور يشتمل في عرف الجغرافيين الاغريق والرومان على الاجزاء الجنوبية والوسطى من قارة اوروبا والاطراف الجنوبية من شمالي القارة لغاية جزيرة ثيول THULE الواقعة في شمال الجزر البريطانية حيث يبلغ طول النهار حوالي عشرين ساعة، وعلى الاجزاء الغربية والوسطى والشرقية وبعض الاجزاء الجنوبية من قارة آسيا، وعلى الاجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من قارة افريقيا التي تضم بلدان المغرب العربي وليبيا ومصر والحشة وجزءاً من أرض السودان وجزءاً من الساحل الصومالي. وكانت حدود هذا الربع المعمور تتمثل غرباً بما يسمى بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) عند جزر الخالدات، وشمالاً بما يسمى المحيط الشمالي (الذي افترض انه يقع غير بعيد عن البحر الاسود)، وشرقاً في أقصى عمران الصين عند مدينة (سيلا)، وجنوباً بما يسمى البحر الشرقي. وقد أخذ الجغرافيون العرب والمسلمون في البداية بهذا المفهوم للأرض المعمورة، واعتبروا المناطق المسكونة من الأرض هي الاجزاء المذكورة اعلاه، ولعل خير من قدم لنا صورة للمناطق المعمورة من الأرض بهذا المفهوم ابو اسحاق الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك)، ونقلها عنه فيما بعد بالنص ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض). وقد أورد تلك الصورة على النحو التالي: «وقسمة الأرض على الجنوب والشمال. فإذا أخذت من المشرق من الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين الى الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط من أرض المغرب بأرض الاندلس فقد قسمت الأرض قسمين، وخط هذه القسمة يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلد الهند ووسط مملكة الاسلام، حتى يمتد الى أرض مصر الى المغرب، فما كان في حد الشمال من هذين القسمين فأهله بيض، وكلما تباعدوا في الشمال ازدادوا بياضاً، وهي أقاليم باردة. وما كان مما يلي الجنوب من هذين القسمين فإن أهله سود. وكلما تباعدوا في الجنوب ازدادوا سواداً، وأعدل هذه الاماكن ما كان في الخط المستقيم وما قاربه. وسنذكر كل أقليم من ذلك بما يعرف قربه ومكانه من الاقليم الذي يصاحبه.

فأما مملكة الاسلام فإن شرقها أرض الهند وبحر فارس، وغربها مملكة الروم

(١٨) التبيه والاشراف - لابي الحسن علي المسعودي - منشورات خياط، بيروت ١٩٦٥ - ص ٢٤ - ٢٥.

وما يتصل بها من الارمن واللاتن والران والسرير والخزر والروس بلغار الصقالبة وطائفة من الترك ، وشماليتها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الاتراك ، وجنوبها بحر فارس . وأما مملكة الروم فان شرقها بلاد الاسلام وغربها وجنوبها البحر المحيط ، وشمالها حدود عمل الصين ، لأننا ضمنا ما بين الاتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الامم الى بلد الروم . وأما مملكة الصين فان شرقها وشمالها البحر المحيط ، وأما جنوبها فمملكة الاسلام والهند وأما غربها فهو البحر المحيط ، ان جعلنا يأجوج ومأجوج وما وراءهم الى البحر من هذه المملكة . وأما أرض الهند فان شرقها بحر فارس ، وغربها وجنوبها بلاد الاسلام ، وشمالها مملكة الصين . فهذه حدود هذه الممالك التي ذكرناها . وأما البحار فان اعظمها بحر فارس وبحر الروم ، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط ، واعظمها طولاً وعرضاً بحر فارس ، والذي ينتهي اليه بحر فارس من الارض من حد الصين الى القلزم . فاذا قطعت من القلزم الى الصين على خط مستقيم كان مقداره مائتي مرحلة^(٩) . وذلك انك اذا قطعت من القلزم الى ارض العراق في البرية كان نحو شهر ، ومن العراق الى نهر بلخ نحو من شهرين ، ومن نهر بلخ الى آخر الاسلام في حد فرغانة ثيف وعشرون مرحلة . ومن هناك الى ان تقطع أرض الخزلية كلها فتدخل في عمل التغزغز نيف وثلاثون مرحلة . ومن هذا المكان الى البحر من آخر عمل الصين نحو من شهرين . فأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم الى الصين في البحر طالت المسافة عليه لكثرة المعاطف والتواء الطرق في هذا البحر . وأما بحر الروم فانه يأخذ من البحر المحيط في الخليج الذي بين المغرب وأرض الأندلس حتى ينتهي الى الثغور الشامية ومقداره في المسافة نحو من سبعة أشهر ، وهو أحسن استقامة واستواء من بحر فارس . وذلك أنك اذا أخذت من قم هذا الخليج أدتكم ريح واحدة الى آخر هذا البحر . وبين بحر القلزم - الذي هو لسان بحر فارس - وبين بحر الروم على سمت القرم أربع مراحل ، غير أن بحر الروم يجاوز القرم نحواً من مائة وثمانين مرحلة . وقد فصلنا في مسافات المغرب ما يغني عن اعادته . فمن مصر الى أقصى المغرب نحو من مائة وثمانين مرحلة . فكان ما بين أقصى الأرض من المغرب الى اقصاها من المشرق نحو من أربعمائة مرحلة . وأما عرضها من اقصاها في حد الشمال الى اقصاها في حد الجنوب فانك تأخذ من ساحل البحر المحيط حتى تنتهي الى أرض يأجوج ومأجوج ، ثم تمر على ظهر

(٩) المرحلة هي ما يقطعه المسافر خلال يوم واحد وتساوي حوالي خمسة وثلاثين كيلومترا.

الصقالبة ، وتقطع أرض بلغار الداخلة والصقالبة ، وتغني في بلد الروم الى الشام حتى تخرج من أرض الشام وأرض مصر والنوبة . ثم تمتد في برية بين بلاد السودان وبلاد الزنج حتى تنتهي الى البحر المحيط . وهذا خط ما بين جنوبي الارض وشمالها . فأما الذي أعلمه من مسافة هذا الخط فان من ناحية يأجوج الى ناحية بلغار وأرض الصقالبة نحو من أربعين مرحلة . ومن أرض الصقالبة في بلد الروم الى الشام نحو من ستين مرحلة . ومن أرض الشام الى أرض مصر نحو من ثلاثين مرحلة . ومنها الى أقصى النوبة نحواً من ثمانين مرحلة حتى تنتهي الى هذه البرية . فذلك مائتان وعشر مراحل كلها عامرة . وأما ما بين يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الشمال ، وما بين براري السودان والبحر المحيط في الجنوب فقفر خراب ما بلغنا أن فيه عمارة ، ولا أدري مسافة هاتين البريتين الى شط البحر المحيط كم هي ، وذلك ان سلوكهما غير ممكن لفرط البرد الذي يمنع من العمارة والحياة في الشمال ، وفرط الحر المانع من الحياة والعمارة في الجنوب . وأما ما بين الصين والمغرب فمعمور كله . والارض كلها مستديرة والبحر المحيط محف بها كالطوق . ويأخذ بحر الروم وبحر فارس من هذا البحر . فأما بحر الخزر فليس يأخذ من هذا الخليج ، وانما هو بحر لو أخذ السائر على ساحله من الجزر على أرض الديلم وطبرستان وجرجان والمفاضة على سياه كوه لرجع الى مكانه الذي سار منه من غير أن يمنعه مانع الا نهراً يقع فيه . وأما بحيرة خوارزم فكذلك . وفي أعراض بلاد الزنج ومن وراء أرض الروم خليجان وبحار لم نذكرها لقصورها عن هذه البحار وكثرتها . ويأخذ من البحر المحيط خليج حتى ينتهي الى ظهر الصقالبة ، ويقطع أرض الروم على القسطنطينية حتى يقع في بحر الروم . وأرض الروم حدها من البحر المحيط على بلاد الجلالة وافرنجة ورومية وأثينا الى القسطنطينية ، ثم الى أرض الصقالبة ، ويشبه أن يكون نحواً من شهرين . وقد بينا أن من الثغور الى أقصى المغرب مائتين وعشر مراحل ، والروم المحض من حد رومية الى حد الصقالبة ، فأما ما ضمنا من بلد الروم من الافرنجة والجلالة وغيرهم فان لسانهم مختلف ، غير أن الدين والملك (المملكة) واحد ، كما ان في مملكة الاسلام السنة مختلفة والملك واحد . وأما مملكة الصين فانها نحو من أربعة أشهر في ثلاثة أشهر . فاذا أخذت من قم الخليج حتى تنتهي الى دار الاسلام مما وراء النهر فهو نحو من ثلاثة أشهر . واذا أخذت من حد المشرق حتى تقطع الى حد المغرب في أرض التبت ، وتمر في أرض التغزغز وخرخيز وعلى ظهر كيماك الى البحر فهو نحواً من أربعة أشهر . ولمملكة الصين السنة مختلفة . فأما الاتراك فكلها من التغزغز وخرخيز وكيماك

والغزّة والخزجية فألستهم واحدة يفهم بعضهم عن بعض ، فأما أرض الصين والتبت فلهم لسان مخالف لهذه الألسنة ، والمملكة كلها منسوبة الى صاحب الصين المقيم بخمّدان ، كما ان مملكة الروم منسوبة الى الملك المقيم بالقسطنطينية . ومملكة الاسلام منسوبة الى أمير المؤمنين المقيم ببغداد . ومملكة الهند منسوبة الى الملك المقيم بقنوج ، وديار الاتراك متميزة . فأما الغزّة فان حدود ديارهم ما بين الغزّ وكيماك وأرض الخزجية وبلغار . وحدود دار الاسلام ما بين جرجان الى فاراب وأسييجاب . وأما ديار الكيماكية فانهم من وراء الخزجية من ناحية الشمال ، وهم فيما بين الغزّة وخرخيز وظهر الصقالبة ، وبأجوج هم في ناحية الشمال اذا قطعت ما بين الصقالبة والكيماكية ، والله أعلم بمكانهم وسائر بلادهم . وأما خرخيز فانهم ما بين التفرغز وكيماك والبحر المحيط وأرض الخزجية . وأما التفرغز فانهم ما بين التبت وأرض الخزجية وخرخيز ومملكة الصين . وأما الصين فانهم ما بين البحر والتفرغز والتبت ، والصين نفسه هو هذا الاقليم ، وانما نسبنا سائر بلاد الاتراك اليها في المملكة ، كما نسبنا سائر مملكة الروم الى أرض رومية والقسطنطينية ، وكما نسبنا سائر ممالك الاسلام الى ايران شهر - وهو أرض بابل . وأرض الصقالبة عريضة طويلة نحواً من شهرين في مثلها ، وبلغار الخارجة هي مدينة صغيرة ليس فيها أعمال كثيرة ، واشتهارها لانها فرضة لهذه الممالك . والروس قوم بناحية بلغار فيما بينها وبين الصقالبة ، وقد انقطعت طائفة من الاتراك عن بلادهم فصاروا فيما بين الخزّ والروم يقال لهم البجناكية وليس موضعهم بدار لهم على قديم الايام ، وانما انتابوها فغلبوا عليها . وأما الخزر فانه اسم لهذا الجنس من الناس ، وأما البلد فانه مصر ، يسمى اثل ، وانما سمي باسم النهر الذي يجري عليه الى بحر الخزر . وليس لهذا المصر كثير رساتيق ولا سعة ملك ، وهو بلد بين بحر الخزر والسرير والروس والغزّة . وأما التبت فانها بين أرض الصين والهند وأرض الخزجية والتفرغز وبحر فارس وبعضها في مملكة الهند وبعضها في مملكة الصين ، ولهم ملك قائم بنفسه يقال أن أصله من التبابعة والله أعلم . وأما جنوبي الارض من بلاد السودان فان بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكثف ، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال ، غير أن حدّاً له ينتهي الى البحر المحيط ، وحدّاً له إلى برية بينه وبين أرض المغرب ، وحدّاً له الى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات ، وحدّاً له ينتهي الى البرية التي قلنا انه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر . وبلغني أن طول أرضهم نحواً من سيمائة فرسخ في نحوها . غير أنها من البحر الى الواحات أطول من عرضها . وأما أرض النوبة فان حدّاً لها ينتهي

الى أرض مصر ، وحدّاً لها الى هذه البرية التي بين أرض السودان ومصر ، وحدّاً لها الى أرض البجّة ، وبراري بينها وبين القلزم ، وحدّاً الى هذه البرية التي لا تسلك . وأما الحبشة فانها على بحر القلزم ، وهو بحر فارس ، فينتهي حدّها الى بلاد الزنج ، وحدّها الى البرية التي بين النوبة وبحر القلزم ، وحدّها الى البجّة والبرية التي لا تسلك . وأما أرض الزنج فانها أطول من أرض السودان ولا تتصل بمملكة غير الحبشة ، وهي بحذاء اليمن وفارس وكرمان الى أن تحاذي أرض الهند . وأما أرض الهند فان طولها من عمل مكران في أرض المنصورة والبذهة وسائر بلد السند الى أن تنتهي الى قنوج ، ثم تجوزه الى أرض التبت نحواً من أربعة أشهر . وانما تركنا ان نذكر في طول الاسلام حد المغرب الى الاندلس لانها مثل الكم في الثوب . وليس في شرقي المغرب ولا غربيها اسلام لانك اذا جاوزت مصر في أرض المغرب كان جنوبي المغرب بلاد الاسلام وشمالي المغرب بحر الروم ، ثم أرض الروم . ولو صلح ان يجعل طول الاسلام من فرغانة الى أرض الاندلس لكان مسيرة ثلاثمائة وعشر مراحل ، لان من أقصى فرغانة الى وادي بلخ نيفاً وعشرين مرحلة . ومن وادي بلخ الى العراق نحواً من ستين مرحلة . ومن العراق الى مصر نحواً من خمسين مرحلة . وقد بينا في مسافات المغرب ان من مصر الى أقصاه مائة وثمانون مرحلة . وقصدت في كتابي هذا تفصيل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً حتى يعرف موقع كل اقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الاقاليم » (١٩) .

ومن الواضح ان الجغرافيين العرب والمسلمين قد وسعوا في مفهوم الربع المعمور فيما بعد ، فمددوه نحو شمال أوروبا وآسيا (بلاد يورا وشعوب يأجوج ومأجوج) ، كما مددوه نحو الشرق بما تجمع لديهم من معارف عن الصين ، كذلك وسعوا في آسيا الجنوبية بعد أن خبروا عن كثب المناطق المسكونة في جنوب القارة في الملايو والهند الصينية وجزر المحيط الهندي . كذلك مددوا الربع المعمور على الساحل الجنوبي الشرقي لافريقيا في المناطق التي أطلقوا عليها اسم سفالة الزنج والتي تصل الى جنوبي الساحل الموزمبيقي ، وتوغلوا به عدة درجات جنوبي خط الاستواء في افريقيا الداخلية . ولم تكن معرفتهم تقتصر على مجرد تحديد اسماء مواضع جديدة ضمن الاقاليم السبعة اليونانية ، بل تضمنت معلومات جديدة متنوعة عن الاوضاع الطبوغرافية والاقتصادية والبشرية لتلك الجهات لم تكن قد وردت في المؤلفات السابقة . وسنستعرض في الصفحات التالية ما أنجزه الجغرافيون العرب والمسلمون من

اضافات الى المعلومات الاغريقية والرومانية عن القارات القديمة الثلاث .

١ - قارة أوروبا :

لقد تفوق الجغرافيون العرب والمسلمون على سابقهم من الاغريق والرومان في معرفة الجهات القصية من القارة الاوروبية . فحدود الارض المعمورة في قارة أوروبا مثلاً كما فهمها الاغريق والرومان لم تكن تتجاوز الجهات الوسطى من أوروبا . فـجغرافي كبير مثل سترابو STRABO (اصطرابون) مثلاً ، قد جعل المحيط الشمالي قريباً جداً من شمالي البحر الاسود ، في حين ان بوليبيس POLYBIUS يشك أساساً في وجود المحيط الشمالي . والواقع ان احاديث الجغرافيين الاغريق والرومان عن شمالي أوروبا ، وعلى نحو الخصوص عن منطقة البحر البلطقي في شمال غربي أوروبا ، كانت غامضة للغاية بالرغم من ان تجار العنبر كانوا يرتادون تلك المنطقة . وكانت معظم معلومات الجغرافيين تستند الى التقارير التي كتبها بـثياس PYTHIAS المرسيلي ، والتي اشار فيها الى جزيرة اطلق عليها اسم (ثيول) THULE ذكر انها تقع في أقصى النواحي الشمالية من الارض المعمورة في قارة أوروبا . وما زال الباحثون يختلفون حول حقيقة تلك الجزيرة ؛ فهي ايسلندة أم الجزء الجنوبي من سكانديا أم شبه جزيرة جتلاند ، ولعلها ليست في الحقيقة سوى الطرف الشمالي لاسكتلندا . أما احاديث الجغرافيين الاغريق والرومان عن شعوب شمال أوروبا فتستند الى الخرافة ، فقد اطلقوا عليهم اسم (الهيروبوريون) وزعموا انهم يعيشون حياة سعيدة مجردة من المتاعب البشرية وانهم يقتاتون على الاعشاب ومنتجات الحيوانات . بل ان جغرافياً كبيراً كبطليموس نفى وجود سكان في شمالي أوروبا ، وجعل المعمورة فيها تنتهي في آخر الاقليم السادس عند الجزر البريطانية .

أما الجغرافيون المسلمون فقد كان لديهم تصور واضح عن جهات شمالي أوروبا بالرغم من عدم اهتمامهم بامثال تلك الجهات باعتبارها خارج نطاق بلدان الاسلام . فهناك اشارات متكررة لدى المسعودي والبيروني وحتى الغرناطي بأن تلك المناطق سودها البرد الشديد بحيث تتعذر الزراعة فيها ، وان سكانها البحريين يقتاتون على السمك . ولعل البيروني والادريسي كانا من أكثر الجغرافيين دقة في الحديث عن تلك الجهات . فقد حدد البيروني بصورة صحيحة موقع المحيط الشمالي الذي يلتف حول شبه جزيرة اسكندناوة ، كما اطلق على سكانها اسم « الوردك »^(٢١) ، وأشار الى

(٢٠) القانون المسعودي - لأبي الريحان البيروني نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند - حيدر آباد ١٩٥٤ ، ص ٥٣٧ .

براعتهم في صناعة السيوف الحديدية . وقد اتفق جميع الجغرافيين المسلمين الذين اشاروا الى تلك الجهات بان النهار قد يطول في اثناء الصيف فيها بحيث يتجاوز احدى وعشرين ساعة ، بينما تنعكس الآية في فصل الشتاء .

وهناك حديث متكرر أيضاً لدى الجغرافيين المسلمين عن جهات شمال أوروبا التي أطلق عليها اسم بلاد (يورا) وبلاد (ويسو) . ومثال ذلك ما ذكره القزويني في كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) عن بلاد ويسو التي قال عنها : « انها بلاد وراء بلاد البلغار بينهما مسيرة ثلاثة أشهر ، ذكروا ان النهار يقصر عندهم حتى لا يرون شيئاً من الظلمة ، ثم يطول الليل حتى لا يرون شيئاً من الضوء ، واهل البلغار يحملون بضائعهم اليها للتجارة » . وقال عن بلاد يورا : « انها بلاد بقرب بحر الظلمات . . . وان النهار عندهم في الصيف طويل جداً حتى أن الشمس لا تغيب عنهم مقدار اربعين يوماً . وفي الشتاء ليهم طويل جداً حتى تغيب الشمس عنهم مقدار اربعين يوماً ، والظلمات قريبة منهم »^(٢١) .

وتنعكس معرفة الجغرافيين العرب والمسلمين أيضاً بجهات شمال أوروبا في اقاليم الادريسي حيث مدد الأرض المعمورة في شمالي أوروبا حتى فنلندا وشمال روسيا وبلاد اللاب ووضع ذلك كله في الاقليم السابع الذي يمتد عملياً في خرائطه لغاية درجة ٧٢ شمالاً وان ذكر في المتن بأن أقصى المعمور في أوروبا يصل الى درجة ٦٨ شمالاً^(٢٢) .

أما ما يخص شرقي أوروبا فكانت معلومات الرومان والاغريق عنها مبعثرة وغير دقيقة . فهيرودوت وبطليموس مثلاً يمددان بحر آزوف في خارطتيهما الى جهات موغلة في الشمال . كما ان بـليني PLINY يعتبر سكان شرقي أوروبا من الاسكيثيين من آكلي لحوم البشر ، بينما يشكو هيرودوت بأن اولئك الاقوام لا يسمحون لأحد بدخول مناطقهم . ولم تكن معلومات بطليموس عن هذه الجهات بأفضل من معلومات سابقه ، فهو يعين في خارطته في تلك الجهات من أوروبا مثلاً سلاسل جبال عديدة اعتماداً على أقوال الرواة ، بينما لا نكاد نعرف منها سوى سلسلة واحدة هي سلسلة جبال الكربات .

أما الجغرافيون العرب والمسلمون فكانت معرفتهم بجهات شرقي أوروبا تتفوق

(٢١) آثار البلاد واخبار العباد - لذكرى القزويني ، منشورات دار صادر بيروت ، ص ٦١٧ - ٦٢٠ .
(٢٢) حسين مؤنس ، ص ٢٠٨ .

على معلومات سابقهم بدرجة واضحة . فالأحاديث عن بلاد الصقالبة وشعوبها (والتي كان يقصد بها منطقة الشعوب السلافية عموماً) ، كان يتكرر لدى عدد من الجغرافيين من أمثال المسعودي والادريسي والبيروني والغرناطي . وقد حفلت كتب أبي حامد الغرناطي - بالرغم مما تضمنته من خرافات ومبالغات - بمعلومات طيبة عن جهات شرقي ووسط أوروبا ، ولا سيما بلاد المجر ، وذكرت أبرز المظاهر الطبيعية والعادات الاجتماعية . ولم يكن يخلو أي كتاب جغرافي عربي عام عن الكلام على جهات شرقي أوروبا .

٢ - قارة آسيا :

لقد فاقت معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن قارة آسيا معلومات سابقهم من الجغرافيين الاغريق والرومان بدرجة عظيمة . ففيما عدا إيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، لم تكن معلومات الاغريق والرومان واضحة او دقيقة عن مناطق وشعوب أواسط آسيا وشرقيها وجنوبيها الشرقي وجنوبها . ويمكن القول ان معارف الاغريق والرومان ظلت قاصرة على الرقعة التي شملتها فتوحات الاسكندر الكبير . فلم يكونوا يعرفون سوى معلومات مشوشة وغير دقيقة عن أراضي ما وراء النهر وشعوبها (شرقي نهر جاكزارتس واوكسوس) . أما شمال آسيا (جهات سيبيريا) فكانت في عرفهم صحارى غير مأهولة . كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا الى الشمال من الهند الصينية . بل أن معلوماتهم كانت ضئيلة جدا عن مظهر جغرافي بارز في غربي آسيا وهو بحر الخزر الذي جعله اراثوستنس ERATHOSTENES (اراطوسطيني) متصلاً بالمحيط الشمالي ، وجعله ارسطو متصلاً بالبحر الأسود بقناة جوفية . ولقد أكد بليبي بأن بعض الهنود قاموا برحلة من الهند الى بحر الخزر عن طريق المحيط الشمالي !

وظلت كذلك المنطقة الواقعة شمالي بحر الخزر وشرقيه شبه مجهولة لدى الكتاب الاغريق والرومان . فقد رسم بليبي مثلاً ساحلاً الى الشرق من خليج الخزر ونثر فيه صحارى جليدية متعاقبة واضعاً في هذه المنطقة الاسكيثيين آكلي لحوم البشر . أما بطليموس فقد جعل منطقة الاسكيثيين تتلاشى تجاه الشمال في أرض مجهولة تمتد فيها بعض سلاسل الجبال وتتناثر بعض القبائل (٢٣) .

(٢٣) تطور الفكر الجغرافي - للدكتور شريف محمد شريف ، منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

ولم يكن لدى الجغرافيين الاغريق والرومان أيضاً فكرة عن الأنهار الكبرى التي تجري في شمال القارة الاسيوية وتصب في المحيط المتجمد الشمالي ، كنهري ينساي ولينا . بل إن نهراً عظيماً كنهير الفولغا لم يكن معروفاً لدى الجغرافيين الرومان الا بصورة مشوشة ، ولم يكتشفوا مصبه في بحر الخزر الا في وقت متأخر . أما الجغرافيون العرب والمسلمون فقد سجلوا معلومات دقيقة ومفصلة عن بحر الخزر وحوض الفولغا والشعوب التي تقطن حوضه الأدنى . ولا يكاد يخلو أي كتاب من الكتب الجغرافية الاقليمية من وصف لبحر الخزر، وقد أجمع الجغرافيون المسلمون على كونه بحيرة مغلقة . ولقد تحدث العديد منهم عن نهر الفولغا (الذي كانوا يسمونه نهر آتل) ووصفوا مجراه ومصبه في بحر الخزر ، واعتبروه احد انهار الدنيا الكبرى . ولقد تحدث عنه ابن حوقل في كتابه (صورة الارض) حديثاً مفصلاً ورسم له خارطة . ويمكن القول ان ما ذكره ابو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) عن بحر الخزر يمثل تلخيصاً طيباً لمعرفة الجغرافيين العرب الاوائل عن هذا البحر . قال ابو الفدا :

« ذكر بحر الخزر . هذا بحر ملح لا يتصل بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور المتقدم ذكرها بل هو بحر منفرد قريب من الاستدارة . قال الشريف الادريسي طوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة ميل وهو مدور الشكل الى الطول وقيل مثلث الشكل الشكل كالقلم . وعن القاضي قطب الدين أن طوله من الشرق الى الغرب مائتان وسبعون فرسخاً وعرضه مائتا فرسخ ويسمى بحر الخزر وبحر جرجان وبحر طبرستان . وبتدئ فنصفه من جانبه الغربي ثم الجنوبي ثم الشرقي ثم الشمالي حتى نصل الى جانبه الغربي من حيث ابتدأنا . فنقول ان غاية تغريب هذا البحر حيث الطول ست وستون درجة والعرض نحو احدى واربعين عند باب الحديد . وهناك بالقرب من باب الحديد دربندشروان . ثم يمتد جنوباً من باب الحديد واحداً وخمسين فرسخاً، وهناك مصب نهر الكر . ثم يمتد البحر مشرقاً بانحراف الى الجنوب ستة عشر فرسخاً فيمر على موغان وهي من أعمال أردبيل ثم يمتد جنوباً ومشرقاً حتى يبلغ غايته في الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة ، وهذا غاية ما يبلغه في الجنوب . وطول جانبه الجنوبي المذكور سبع وسبعون قبالة آمد طبرستان . وفي ساحله الجنوبي بلاد الجبل والديلم . ثم يمتد البحر مشرقاً حتى يتجاوز بلاد الجبل الى ابسكون وهي حيث الطول تسع وسبعون وخمس واربعون دقيقة والعرض سبع وثلاثون وعشر دقائق . ونهاية ما يبلغه في المشرق حيث الطول ثمانون درجة والعرض نحو أربعين وعند جرجان وهي قريبة من البحر المذكور وفي شرقيه المفازة التي بين جرجان وخوارزم . ثم بعد نهايته

الشرقية المذكورة تمتد شمالاً ومغرباً حتى يبلغ نهايته في الشمال حيث العرض نحو خمسين درجة والطول تسع وسبعون . ويقع في شماليه بلاد الترك وجبل سياكوه وفي شماليه وغريبه يصب نهر الأتل النهر العظيم الذي يقال انه أكبر أنهار تلك البلاد . وقد حكى لي بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر انهم لما انتهوا في الشمال الى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافي بماء متغير اللون فقليل لهم هذا ماء الأتل حيث اختلط بالبحر . . وأخبرنا أهل تلك البلاد أن الأتل عند مصبه في بحر الخزر المذكور يصير ألف نهر ونهر . . وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة فيها عمارة ولكن فيه جزائر فيها مياه وغياض منها جزيرة سياكوه وهي جزيرة كبيرة بها عيون وأشجار . . . ومنها جزيرة بجذاء مصب نهر الكر بها مياه وغياض . . . » (٢٤) .

ولقد وصف ابن حوقل نهر اتل (نهر الفولغا) على النحو التالي : « ونهر أتل له شعبة من جانبه الشرقي فتخرج من ناحية خرخيز وتجري فيما بين الكيماكية والغزية وهي حد ما بين الكيماكية والغزية ثم يذهب مغرباً على ظهر بلغار ويعود راجعاً الى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر . ويقال انه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ويبقى عمود النهر جارياً الى خزران حتى يقع في البحر . ويقال ان هذه المياه اذا كانت مجتمعة باعلاه في نهر واحد زاد على جيحون كثرة وغزر ماء وفسحة على وجه الارض ، ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها انها تنتهي الى البحر عن أماكن تتساقط اليه بقرب بعضها من بعض . ويجري في البحر داخل مائه مسيرة يومين ويغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء في وسطه لعذوبتها وحلاوتها ويتبين في البحر لونه من لون ماء البحر » (٢٥) .

وأما المعلومات الخاصة بشعوب حوض الفولغا الأدنى ومنطقة بحر الخزر فلا يكاد يخلو منها أي كتاب من كتب الجغرافية الإقليمية ، لا سيما وان بعض تلك الشعوب قد تبنى الديانة الاسلامية مبكراً . وهناك تفصيلات واسعة في كتاب ابن حوقل والكتب الإقليمية التالية عن مدن هذه الجهات وانتاجها الاقتصادي وعن عادات سكانها . غير أن أقدم تسجيل جغرافي عن منطقة الفولغا الأدنى هو ما ورد في مذكرات ابن فضلان

(٢٤) تقويم البلدان - لعماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بابي الفدا - منشورات مكتبة المثنى ، عن طبعة رينود ودي سلان ، ص ٣٥ - ٣٦ .
(٢٥) صورة الأرض - لابن حوقل ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

الذي أرسله الخليفة المقتدر موفداً الى تلك الجهات عام ٩٢١ م . فلقد تحدث في تلك المذكرات التي سميت بـ (رحلة ابن فضلان) عن بلاد بلغار الفولجا وشعبها واصفاً بعض المظاهر الطبيعية والتقاليد الاجتماعية . ولعله كان أول من تحدث عن ظاهرة قصر الليل والنهار في تلك الجهات (٢٦) . ومن الكتابات الجغرافية الهامة عن تلك الجهات أيضاً كتابات أبي حامد الغرناطي والمسعودي وابن بطوطة . وتكتسب معلومات الغرناطي البشرية عن هذه المنطقة أهمية خاصة بالرغم مما يشوبها من خرافات .

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن أقاليم آسيا الوسطى وتركستان (والتي كان يطلق عليها اسم بلاد ما وراء النهر) فالتفصيلات عنها غزيرة للغاية ، لا سيما وان بعض الجغرافيين المسلمين يتمنون الى تلك الأقطار كالبيروني مثلاً . وقد تنوعت التفصيلات الجغرافية عن جهات آسيا الوسطى تنوعاً عظيماً فهي طوبوغرافية طوراً ، ومناخية طوراً آخر ، واقتصادية طوراً ثالثاً ، كما انها تناولت بصورة مفصلة المدن وخططها وتطورها التاريخي . وهناك معلومات انثروبولوجية من الدرجة الاولى تبعثت في الكتب الجغرافية الإقليمية وفي بعض كتب الرحلات كرحلة ابن بطوطة مثلاً . ولعل من أفضل الكتب التي درست آسيا الوسطى كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي وكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري ، وجميعها من المؤلفات الجغرافية المبكرة . غير أن المعلومات البشرية المفصلة والقيمة عن تلك الجهات كانت تتناثر في صفحات كتب الرحلات المتأخرة من أمثال رحلات ابن بطوطة والجويني وعبد الرزاق .

وكان للجغرافيين العرب والمسلمين أيضاً معلومات طيبة عن شمال آسيا ، فقد كان البيروني أول من سمى نهر انجارا وتحدث عن شعوب أقليم بيكال في سيبيريا الشرقية (٢٧) . وكانوا يطلقون على شمالي آسيا اسم (بلاد الظلمة) . وقد أورد المسعودي بعض التفصيلات عنها في الجزء الاول من كتابه (مروج الذهب) ، كما تحدث ابن بطوطة عن أهم السلع التي كان يتاجر بها سكان تلك الجهات ، وشرح طريقتهم في المتاجرة وهي الطريقة التي يطلق عليها اسم (التجارة الصامتة) .

أما ما يتعلق بالصين فلم يكن الجغرافيون الاغريق يعرفون عنها شيئاً ، الا ان

(٢٦) راجع (رحلة ابن فضلان) تحقيق الدكتور سامي الدمان - منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق - دمشق ١٩٥٩ .
(٢٧) نفيس أحمد ، ص ٣٣ .

معلومات الرومان عنها كانت تنامي منذ القرن الثاني الميلادي بسبب اشتداد الرغبة لدى سكان روما المترفين للحصول على الحرير الصيني . وكانت القوافل التجارية التي تحمل الحرير الصيني عبر الاراضي الاسيوية تتخذ طريقاً معيناً ، يطلق عليه اسم طريق الحرير العظيم . وكان هذا الطريق ذا شعبتين ، الاولى تمر بخوتان وطشقرجان وتنتهي الى (بكترا) ، بينما تمر الاخرى الى الشمال مجتازة قشغر وسمرقند وتنتهي بمرو ، وكانت اقصى نقطة تصل اليها هي مدينة بلخ . وكان كلا الطريقين ينتهي في موضع يطلق عليه اسم (برج الحجر) كانت تتجمع فيه تجارة الحرير . ولم تكن معلومات الجغرافيين الرومان لتتجاوز مدينتي مرو وبكترا ، وهي معلومات غامضة نقلها تجار الحرير عن بعض الانهار والجبال والمدن الصينية . اما البحر الواقع شرقي الصين فلم تكن لديهم عنه سوى معرفة نظرية . ولذلك فلم تشتمل خريطة بطليموس على معلومات واضحة عن الصين ، وكل ما هنالك انها حددت موضع مدينة سيرا SERA واعتبرتها عاصمة لبلاد السيرس SERES التي يشتغل سكانها بصناعة الحرير ، وربما كان اقليم سيرس يمثل جزءاً من شمالي الصين . كذلك حددت الخارطة موقع مدينة (ثيناي) THINAE واعتبرتها عاصمة لاقليم سيناى SINAE الذي يقع الى الجنوب من اقليم سيرس ، وهي لا تبعد كثيراً عن ميناء كاتيغارا CATTIGARA ولم يتفق الباحثون على حقيقة مدينة ثيناي او ميناء كاتيغارا . وقد تساءلوا ان كانت مدينة ثيناي ما هي سوى كلمة مرادفة لكلمة سيناى ؟ أم هي مدينة لويانج أم نانكينغ ؟ كما تساءلوا عن حقيقة ميناء كاتيغارا ، هل هو كانتون ؟ أم هانوي ؟ أم سايجون ؟ أم ميناء ستغافورة القديم ؟ ولم يتوصلوا الى جواب نهائي لهذه الاسئلة^(٢٨) .

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن الصين فهي جيدة ومتنوعة عموماً ، وان كانت أغنى بالجوانب البشرية منها بالجوانب الطبيعية . والحقيقة أن معلومات الجغرافيين المسلمين عن الصين ترجع الى عهد مبكر وقد استقيت من السفراء والتجار والبحارة . وقد استطاع الملاحون العرب ان يتوغلوا على امتداد الساحل الصيني نحو الشمال لغاية شبه جزيرة كوريا واطلقوا على بحر الصين الشمالي اسم (بحر صنيخي) . ويبدو ان أقدم المعلومات الموثوقة عن الصين هي تلك التي خلفها لنا التاجر سليمان والتي جمعها سليمان السيرافي في الكتاب المسمى (أخبار الصين والهند) . وبالرغم من قدم هذا المصدر (عام ٨٥١ م) فلم تتفوق عليه المصادر التالية

(٢٨) راجع : الارتداد والكشف الجغرافي - تأليف هـ . وود وترجمة شاكر خصبك ، منشورات المكتبة المصرية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

في معلوماتها البشرية عن الصين . ولعل رحلة ابن بطوطة هي الوحيدة التي أضافت معلومات بشرية جديدة عن الصين لم تكن قد وردت في الكتاب المذكور ، بينما نجد كثيراً من الجغرافيين المسلمين قد اعترفوا في غير تحفظ من مناهل هذا الكتاب . ومن المراجع المبكرة ايضاً التي تليه في أهميتها الكتاب المعتبر (عجائب الهند بنره وبحره) لبزرگ بن شهريار الذي يرجع الى أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع . وينبغي ان نؤكد هنا بأن الصلات التجارية بين الصين واقطار العالم الاسلامي كانت قوية منذ وقت مبكر . وكان التجار العرب يتبادلون السلع مع التجار الصينيين عن طريق الموانئ الهندية الجنوبية في بداية الامر حيث كانت ترد اليها المراكب الصينية باعداد غفيرة . غير ان التجار المسلمين والعرب ما لبثوا ان عرفوا طريقهم الى الصين حتى لقد تكونت جالية كبيرة منهم في ميناء الصين الجنوبي المسمى (خانفو) - ميناء كانتون - بحيث حملت ملك الصين على تولية رجل مسلم يحكم بينهم ممثلاً عنه . وقد ذكر ابن بطوطة انه التقى بعدد كبير من التجار العراقيين اثناء تجواله في الصين . ومن الجدير بالذكر ان اهم السلع التي كان يستوردها التجار العرب من الصين هي الحرير والكافور والمسك والتوابل^(٢٩) . ومن أهم المعلومات التي اوردها ابوزيد السيرافي عن الصين هي التالية^(٣٠) :

● يقال ان ملك الصين من امهات المدن أكثر من مائتي مدينة ، ولكل مدينة ملك وخصي ، وتحت كل مدينة مدائن . فمن مدائنهم خانفو وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة ، وانما تسمى مدينة اذا كان لها جادام . والجادام مثل البوق . ولكل مدينة اربعة ابواب . فعلى كل باب من الجادام خمسة تنفخ في اوقات من الليل والنهار ، وعلى باب كل مدينة عشرة طبول تضرب معه ، وانما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك وبه يعرفون اوقات الليل والنهار ، ولهم علامات ووزن للساعات ، ومعاملتهم بالفلوس وخزائهم كخزائن الملوك وليس لاحد من الملوك فلوس سواهم وهي عين البلاد .

● ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم . واهل الصين اهل جمال وبياض نقي متشرب حرة وهم أشد الناس سواد شعور ونساؤهم يجربون شعورهن .

(٢٩) العرب والملاحة في المحيط الهندي - تأليف جورج فضلو حوراني وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢١٨ .

(٣٠) أخبار الصين والهند - لابي زيد السيرافي ، ص ٢٠ - ٢٧ .

● وانهار البلدين (يقصد الصين والهند) جميعاً عظام . فيها ما هو أعظم من أنهارنا . والأمطار بالبلدين جميعاً عظام .

● وأهل الصين أشبه بالعرب في اللباس والدواب . وهم في هيئتهم ومواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقية والمناطق .

● وبلاد الصين أنزه وأحسن (من الهند) . . وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة . وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواء (من الهند) . . وطعام الصين الخنطة والارز . . . وحيطان أهل الصين الخشب . .

● وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون اليها وهم كتب دين .

● ووراء بلاد الصين من الأرض التفرغز ، وهم الترك ، وخاقان تبت . هذا عما يلي بلاد الترك . فأما ما يلي البحر فجزائر السيللا وهم بيض يهادون صاحب الصين ، ويزعمون انهم لم يهادوه لم تطهرهم السماء . ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكى عنهم وهم بزة بيض .

وتحدث القزويني أيضاً عن الصين في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) ومما قاله عنها : « بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الاقليم الاول الى الثالث ، عرضها أكثر من طولها ، قالوا نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين . وانها كثيرة المياه كثيرة الاشجار كثيرة الخيرات وافرة الثمار من أحسن بلاد الله وأزهاها ، وأهلها أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة ، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس ، لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل والكركدن ودينهم عبادة الاوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ وهم بيوت للعبادات .

وبأرض الصين الذهب الكثير والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها ، وبها من الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر وفي جزائرها أشجار الطيب كالقرنفل والدارصيني ونحوها .

ولأهل الصين يد باسطة في الصناعات الدقيقة ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم » (٣١) .

والواقع ان هناك اشارات كثيرة عن الصين متناثرة في كتب الجغرافية العربية ،

وليس أدل على ذلك من قول أبي الفدا في جغرافية (تقويم البلدان) عند الكلام عن الصين ما نصه :

« وقد ذكر أصحاب كتب المسالك والممالك في كتبهم بلاداً كثيرة ومواضع وأنهاراً وغيرها في اقليم الصين ، ولم يقع لنا ضبط اسمائها ولا تحقيق أحوالها فصارت كالمجهولة لدينا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين اليها لنستعلم منه أخبارها فاضربنا عن ذكرها » (٣٢) . ومع ذلك فإن أبي الفدا يتحدث عن مدينة خانفو (كانتون) والتي حول العرب لفظها في عهد متأخر الى (خنسا) ومدينة زيتون (وهي ميناء شنجو) ، كما يذكر مدناً أخرى مثل نيجو وخانجو والسيلي وجمكوت وخافو وساكجو . أما رحلة ابن بطوطة فقد اشتملت على معلومات اقتصادية وبشرية متنوعة وغزيرة عن الصين لم تكن قد وردت في أي مرجع آخر (٣٣) .

ومن المعلومات المبكرة والهامة عن الصين أيضاً تلك التي نقلها المسعودي عن ابن وهب القرشي والتي تناولت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وكذلك المعلومات التي دونها التاجر تميم بن بحر المتطوعي والذي اعتبره بعض الباحثين أقدم مصدر استقى منه العرب معلوماتهم عن الطريق البري الى الصين . كذلك تعتبر رحلة أبي دلف مسعر بن مهلل البنبوعي الخزرجي الى الصين والتي اوفده فيها الامير الساماني نصر بن احمد حوالي عام ٩٤٢ م . من الرحلات التي زودت الجغرافيين العرب بمعلومات طيبة عن الصين . والمهم في الامر ان معلومات الجغرافيين والرحالة المسلمين عن الصين قلما كانت تتضمن مبالغات أو تحريفات أو اختلافات .

أما ما يتعلق بالهند فإن معلومات الجغرافيين الاغريق والرومان عنها ترجع الى وقت مبكر . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد روى المؤرخ الجغرافي هيرودوت في كتابه (تاريخ العالم) نقفاً متفرقة عن الهند وشعوبها ، كما قام كاتب اغريقي آخر هو كتياس CTESIAS في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد بوضع كتاب عن الهند حافل بالخرافات ، وان اشتمل على بعض المعلومات الجيدة . واعتبرت الهند (والتي كانت في نظر الاغريق مجرد اقليم لنهر السند) أقصى بقعة في شرقي العالم المعمور ، وبالغ

(٣٢) أبو الفدا ، ص ٣٦٢ .

(٣٣) راجع : (ابن بطوطة ورحلته) لشاكر خصبك ، مطبعة الاداب بالنجف ١٩٧١ ، ص ٢٤٦ - ٢٧٩ .

الكتاب عموماً بحجمها . ولقد تنامت معلومات الجغرافيين الاغريق عن الهند اثر حملات الاسكندر الكبير ، وان لم تتجاوز أيضاً اقليم السند . وظلت الخرافات أساساً للمعلومات عن الهند ، وان بات نهر السند وسلسلة جبال هيمالايا معروفة للجغرافيين الاغريق معرفة جيدة ، بينما بقي تصورهم لنهر الكنج يشوبه الغموض . ولقد اهتم الرومانيون بالهند اهتماماً خاصاً لا سيما بعد ان أدت اكتشافات هيپالوس - HIPPA LUS الى كسر احتكار العرب للتجارة في المحيط الهندي والى اتباع طريق بحرية معينة الى الهند بالاستعانة بالرياح الموسمية ، حيث استطاع الرومان الحصول على السلع الهندية بصورة مباشرة . ولقد اتسعت المعرفة الرومانية بالهند فشملت اقليم الدكن حيث كانت تصل السفن الرومانية الى الموانئ الجنوبية الغربية . ويقال ان بعض السفن الرومانية استطاعت في عهد الجغرافي استرابون الوصول الى مصب نهر الكنج ، الا ان ذلك ليس مؤكداً^(٣٤) . ومن المؤكد أن المعرفة الرومانية بالجانب الشرقي للهند كانت ضئيلة للغاية . ولم ينجح أي من الكتاب الاغريق أو الرومان في رسم تصور صحيح للهند . فقد بالغ اراتوستيني مثلاً في خارطته بمد بروز الهند نحو الشرق ، كما الغى بطليموس كتلة الهند الممتدة نحو الجنوب بان جعل الساحل الجنوبي لآسيا أقرب الى الاستقامة . هذا فضلاً عن انه جعل المحيط الهندي بحيرة مغلقة . وكانت معلوماته ومعلوماته سابقة من الجغرافيين الاغريق والرومان مشوشة للغاية عن الجزر الاندونيسية الكبرى وجزر المحيط الهندي عموماً .

ومهما تكن قيمة معلومات الجغرافيين الاغريق والرومان عن الهند فان معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين تتفوق عليها بدرجة واضحة . والواقع ان هناك ما يبرر هذا التفوق . فصلة العرب بشبه القارة الهندية قديمة جداً . وقد ظل ابناء الساحل الجنوبي لجزيرة العرب يحتكرون تجارة العالم مع الهند لقرون طويلة قبل أن يكتشف هيپالوس الروماني في القرن الثاني الميلادي طريقاً بحرياً معيماً الى الموانئ الهندية الجنوبية بمساعدة الرياح الموسمية . ولم تضعف الصلات التجارية بين سواحل الجزيرة والخليج العربي في أي عصر من العصور بل ازدادت أهمية في عصر ازدهار الدولة الإسلامية (ولا سيما في العصر العباسي) ، كما ظل التجار والملاحون العرب يسيطرون على التجارة المحيطية مع الهند . ومن المعروف ان فاسكودي غاما قد استعان بمشرد عربي

(٣٤) شريف محمد شريف ، ص ٤٦٤ .

حينما قام بمغامرته الكبرى في الالتفاف حول الرأس الأفريقي والوصول الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي ثم الهندي ، ويقال ان ذلك المرشد هو الملاح المشهور ابن ماجد . وبعد أن نجح القائد العربي محمد القاسم في فتح السند عام ٨٩ هـ توثقت الصلات بين الهند والعالم الاسلامي والعربي . وأخذ الجغرافيون المسلمون يبدون اهتماماً خاصاً بالهند باعتبارها أحد أجزاء العالم الاسلامي . ومنذ عهد مبكر بدأت المعلومات المتنوعة تتجمع عن الهند وخصوصاً ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والبشرية ، كما أثارت المظاهر الطبيعية البارزة اهتمام الجغرافيين كنهر السند والكنج وجبال هيمالايا . فقد قرن الجاحظ مثلاً منابع السند بمنابع نهر النيل باعتبار ان التماسيح توجد في كل منها . كذلك أثارت المدن الهندية الرئيسية اهتماماً خاصاً لدى عدد من الجغرافيين المبكرين أمثال الاصطخري واليعقوبي وابن حوقل . غير أن هناك ثلاث مراجع جغرافية رئيسية تنفرد بأهمية خاصة بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن الهند ، وهي كتاب (أخبار الهند والصين) لسليمان السيرافي ، وهو أول مصدر عربي موثوق يتحدث عن شعوب الهند ، والثاني (كتاب الهند) لليروني المسمى أيضاً (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة) ، والذي يعتبره الجغرافيون اثنود أنفسهم أفضل ما كتب عن الهند في العصور الوسطى^(٣٥) ، وكتاب (رحلة ابن بطوطة) الذي يشتمل على ثروة غزيرة من المعلومات البشرية والاقتصادية عن الهند . فضلاً عن هذه المصادر الرئيسية فلم يكن يخلو أي كتاب جغرافي عربي من معلومات عن الهند . فقد ذكر ابن رسته مثلاً في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) طائفة من عادات الهند واديانهم^(٣٦) ، كما تحدث الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) أو (الاقاليم) عن بلاد السند وأهم مدنها وانتاجها الزراعي بشيء من التفصيل^(٣٧) . وأشار الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتابه (مختصر كتاب البلدان) الى الفروق في العادات الاجتماعية بين سكان الهند وسكان الصين^(٣٨) . أما اشارات الادريسي الى الهند فقد كانت أكثر دقة ولا سيما في وصفه للمدن الهندية ولانتاج البلاد الاقتصادي ولطبقات السكان . قال الادريسي متحدثاً عن أجناس الهند : « وأهل الهند سبعة

(٣٥) راجع كتاب نفيس أحمد ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣٦) الاعلاق النفيسة لابن رسته ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣٧) كتاب الاقاليم (المسالك والممالك) للاصطخري - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة باشراف مولر

MOELLER ، ص ٧٦ - ٧٨ .

(٣٨) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١٣ - ١٦ .

أجناس أحدهم الساكهرية وهم الاشراف منهم وهم عباد الهند ، ثم الكسترية وهم يشربون من الخمور ثلاثة أصناف ، ثم الشودية وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة ، ثم الفسية وهم أصحاب المهن والصناعات ، ثم السندالية وهم أصحاب اللحون وفي نسائهم جمال مشهور . . . (٣٩) .

وقال يصف بعض مدن الهند : « واليدبل (وهي ميناء) كثيرة الناس ، مجدبة الارض قليلة الخصب ، ليس بها شجر وجبالها جرد وسهولها قشفة عديمة النبات . وأكثر بنياهم بالطين والخشب .

وأما بانيه فهي مدينة صغيرة كثيرة النعم رخيصة الأسعار وأهلها أخلاط ولهم رفاهة عيش وكثرة خصب وأكثرهم مياسير . ومن هذه المدينة الى المنصورة ثلاث مراحل ، ومنها الى مامهل الى كنباية على البحر مفازة متصلة لا عامر بها ولا أنيس وليس لاحد بها سلوك لوحشة أرضها وبعد أقطارها .

والروز مدينة حسنة كثيرة الناس حفيلة كثيرة الجمع عامرة الاسواق نافقة التجارات وهي حصينة عليها سوران ويمر النهر بها من جهة المغرب وأهلها في رفاهة وخصب عيش وهي في قدرها تضاهي الملتان . ومدينة قالري على شط نهر مهران السند في غربيه وهي مدينة حسنة حصينة محاسنها ظاهرة وخيراتها وافرة ومتاجرها رابحة .

ومدينة ملتان في آخر بلاد السند وهي مجاورة لبلاد الهند وهي مدينة نحو المنصورة في الكبر ، وبعض الناس يجعلها من بلاد الهند . . . وهي مدينة كبيرة عامرة عليها حصن متين ولها أربعة أبواب وبخارجها خندق محفور ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة ولأهلها أموال طائلة وللملتان نهر صغير عليه مدن ومزارع ويصب في نهر مهران السند . .

وأما مدينة مامهل فهي جامعة عامرة وهي على طريق الداخلين من السند الى بلاد الهند وبها تجارات وحولها حارات وهي قليلة الفواكه كثيرة الكسب والمواشي ، ومنها الى المنصورة تسع مراحل . . .

(٣٩) وصف الهند وما يجاورها من البلاد - من كتاب نزهة المشتاق - منشورات القسم العربي للجامعة الاسلامية عليكرة ١٩٥٤ ، ص ٣٢ - ٥٧ .

وفي البلاد أيضاً توجد مدن دولفة نهر وارة والقندهار وزويلة ولطه وأودغست . وكل هذه المدن على رأس المفازة . وهناك أيضاً كابل وخواش ومسك وموريدس وماديبار وثبه وده ومنيار ومالوه ونياسات وأطراسا ونجه وقشمير السفلى وميدرة وكارموت وقشمير العليا والقنوج وستائر . . ومن المدن الساحلية بروج وسندابور وتانه وفندرينه وجربتق ، وكلكيان وصنجي وتيكار ولولوا وكنجه .

ومن المدن الهندية الاخرى أيضاً سوباره وأساول وسندان وصيمور والجنودور والسندور ولهاور . . . » .

وقال أيضاً يصف بعض عادات الهند :

« وبسط العدل في أهل الهند طبيعة لا يقولون على شيء سواه . . . وبلادهم عامرة وأحوالهم راجحة وادعة . وطعامهم الارز والحمص والبقلاء واللوبياء والعدس والماش والسك والحيوانات التي تموت موتاً طبعياً . ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً كبيراً ولا صغيراً . وأما البقر فانها محرمة عليهم البتة . فاذا ماتت دفنت وهذا فعلهم في البقر خاصة دون سائر البهائم . واذا ضعفت البقر عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر اليها وبالعلف من غير أن تستخدم ظهورها الى ان تموت . .

وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم . . . وهم لا يحزنون كثيراً ولا يقولون بالهموم جملة . . . وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مزجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً ويسوون التراب عليهم ولا يبكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيراً . . . الخ » (٤٠) .

أما (كتاب الهند) للبيروني فهو يعتبر كما اشرنا دراسة اقليمية ممتازة لشبه القارة الهندية حاول مؤلفها ان يفرغ فيها كلما استطاع جمعه من معلومات عن طريق الخبرة الشخصية والقراءة والسماع . ولا ريب ان معلوماته قد فاقت ما اشتمله أي كتاب سابق أو لاحق عن الهند في ذلك العهد . ولقد كتب الجغرافي الهندي نفيس أحمد دراسة مفصلة عن كتاب الهند واستعرض معلوماته الجغرافية الواسعة والميادين المتنوعة التي شملها (٤١) . وقد أوضح بأن هذا الكتاب قد درس الاوضاع الطبيعية لشبه القارة الهندية فتبع ساحلها الغربي من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب وعدد أبرز الموانئ

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٦٠ - ٦٣ .

(٤١) راجع الدراسة في كتاب نفيس أحمد ، ص ٢٤٢ - ٢٧١ .

التي تقع عليه ، ذاكراً أهم الجزر الواقعة الى جنوب الهند مثل جزيرة الزابج وجزر الديبجات وجزيرة سرنديب (سيلان) . وحدد البيروني بدقة مواضع التفاف المحيط حول شبه القارة الهندية واسماء كل موضع فيه . وفي حديثه عن الاجزاء الشمالية للهند أورد تفاصيل كثيرة عن كشمير ووصف المجرى المتعرج لنهر السند ، وأشار الى الجبال العالية ذات القمم السامقة والثلج الدائم . وذكر أن تلك الجبال المسماة هممنت (هيمالايا) تمثل حدود الهند الشمالية كما تمثل منطقة تقسيم المياه ، فما يخرج منها نحو الشمال يتجه صوب آسيا الوسطى وما يخرج منها نحو الجنوب يجري في أرض الهند . وأشار الى وجود جبل ميرود (الذي يمكن أن يعتبر قمة أيفرست) الذي يعلو وجه الارض علواً مفرطاً ولا يمكن الدنو منه في عليائه . ثم شرح سهل الهند الفسيح الذي يقع الى الجنوب من جبال الهيمالايا وفسر تكونه بأنه عبارة عن مخلفات بحيرة قديمة . ثم تحدث عن أنهار الهند وتناول منابعها ومجاريها بالتفصيل محدداً منبع كل نهر والجهات التي يمر عليها ثم مصبه . وتحدث كذلك عن مناخ الهند بفصوله المختلفة وشدد بصورة خاصة على ظاهرة الامطار الموسمية وما ينجم عنها من غزارة مطر في بعض جهات الهند . ثم انتقل من شرح الجوانب الطبيعية الى شرح الجوانب البشرية فأفاض في الحديث عن مدن الهند وما تتميز به كل منها من ميزة تاريخية او سياسية او اقتصادية ، كما حدد المسافات بين مدينة وأخرى بصورة دقيقة . وشرح كذلك السلع الهندية وما تنتجه الهند من زراعة وصناعة . كذلك عرض البيروني لكل شاردة وواردة من عوائد سكان الهند وتقاليدهم واديانهم ولغاتهم وفلسفاتهم وعلومهم . وهكذا يتضح بأن (كتاب الهند) للبيروني هو من أفضل الكتب الجغرافية الاقليمية القديمة وهو يقع في مركز الصدارة بينها . وقد أضاف الى المعرفة عن الهند ثروة عظيمة .

وكان للجغرافيين العرب والمسلمين معلومات طيبة أيضاً عن جزر المحيط الهندي ، ولا سيما جزيرة سيلان (سرنديب) . فقد كانوا يعرفون على وجه التحديد موقع العديد من تلك الجزر ، وخصوصاً الكبرى منها ، كما كانوا على معرفة بمدنها الرئيسية . وبالرغم مما شاب معلوماتهم عن سكان تلك الجزر من مبالغات الا انهم قدموا عنهم حقائق هامة . ويمكن القول أيضاً أن أقدم تقرير عن تلك الجزر قد ورد في كتاب أبي زيد السيراقي ، فما ذكره عن تلك الجزر :

« .. وفي هذا البحر (البحر الشرقي) اذا ركب الى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير انها واسعة لا تضبط ، منها جزيرة يقال لها الرامي فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ومعادن تدعى قنصور يكون

الكافور الجيد منها . ولهذه الجزائر جزائر تليها منها جزائر يقال لها النيان لهم الذهب الكثير وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون . . . وفي هذه الجزيرة - أعني الرامي - فيلة كثيرة وفيها البقم والخيزران وفيها قوم يأكلون الناس وهي تشرع على بحرین هرکند وشلاط .

وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس وفيها خلق كثير عراة . . . فاذا مرث بهم المراكب جاءوا اليها بالقوارب الصغار والكبار وباعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجونه من كسوة لانه لا حر عندهم ولا برد .

ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما اسدمان واهلها يأكلون الناس أحياء . وهم سود ملقفلو الشعور مناكير الوجوه والاعيان طوال الارجل . . . « (٤٢) » .

وقال عن جزيرة سرنديب : « وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هرکند وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الديبجات وبجانب منها مغاص اللؤلؤ وبحرها كله حوها . وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم (ع) وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر . . . وفي هذه الجزيرة ملكان وهي جزيرة عظيمة فيها العود والذهب والجوهر وفي بحرها اللؤلؤ والشنك . . . « (٤٣) » .

أما البيروني فوصف جزر المحيط الهندي على النحو التالي : « فأما الجزائر الشرقية في هذا البحر وهي الى حد الصين أقرب فانها جزائر الزابج ويسمونها الهنود سورنديب أي جزائر الذهب ، والغربية جزائر الزنج ، والمتوسط جزائر الرم والديبجات ومن جملتها جزائر قمير . وجزائر ديوه خاصية هي انها تنشأ فتظهر من البحر قطعة رملية لا تزال تعلو وتنبت وتنمو حتى تستحكم وأخرى منها على الأيام تضعف وتذبل وتذوب حتى تغوص وتبيد . . . وتنقسم هذه الجزائر الى قسمين بما يرتفع منها فتسمى ديوه كوده أي ديبجات الودع يجمعونها من أغصان نارجيل يغرزونها في البحر ، وديوه كنبار الغزل المفتول من ليف النارجيل لحز المراكب . وجزيرة الوقواق من جملة قمير وهو اسم لا كما يظنه العوام من شجرة حملها كرؤوس الناس تصيح ، ولكن قمير الوانهم الى البياض قصار القدود . . . وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان ويحب منهم الأبنوس الأسود . . . الخ » (٤٤) .

(٤٢) أخبار الهند والصين - لأبي زيد السيراقي ، ص ٥٤ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤ .

(٤٤) كتاب الهند (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبي الريحان البيروني ، ص ١٠٣ .

ولقد تحدث الادريسي أيضاً عن جزر المحيط الهندي وفصل على نحو الخصوص في الكلام على سرنديب (سيلان) . وقد ذكر أبرز مدنها مثل مرقايا واغتا وفرسقوري وابدذي وماخالون وحامري وقلباذي وسنيدونا وسندورا وتيري وكنبلي وبرنثلي ومرونة^(٤٥) .

ومن الكتب الجغرافية الأخرى التي تحدثت عن جزر المحيط الهندي (رحلة ابن بطوطة) التي اشتملت على معلومات اجتماعية واقتصادية غزيرة عن تلك الجزر . وتكتسب معلومات ابن بطوطة عن جزر الملديف بالذات أهمية خاصة نظراً لأنه أقام في تلك الجزر ما ينيف على عام ونصف وخبر الحياة فيها عن قرب^(٤٦) .

وأما ما يتعلق بكتابات الجغرافيين المسلمين عن الأقطار العربية الآسيوية وإيران فلا يمكن بطبيعة الحال مقارنتها بكتابات الجغرافيين الاغريق والرومان ، فقد كانت مفصلة للغاية . وقد حظيت جزيرة العرب بدراسات مفصلة (ولا سيما الحجاز) وخاصة ما يتعلق بالمدن والمسافات ، بالنظر لأنها موطن العرب الأصلي وموئل الاسلام ومثوى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . فلقد كتب ابن الحائك الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) كتاب (جزيرة العرب) وهو أوسع الكتب الجغرافية الاقليمية دراسة لجزيرة العرب من ناحية مظاهرها الطبيعية وأجناسها وقبائلها وحاصلاتها المعدنية والحيوانية وطرقها ومواطن الاستقرار فيها . ويقترب من هذه الدراسة المفصلة ما ورد في كتابي (المعجم فيما استعجم) و (المسالك والممالك) لابي عبيد البكري لا سيما الاجزاء الخاصة بجزيرة العرب ، وكذلك كتاب (نزهة المشتاق) للادريسي .

وتحتل الكتب الجغرافية المبكرة بتفصيلات غزيرة عن البلاد العربية وإيران . ولقد كان كتاب ابن خرداذبة المعنون (المسالك والممالك) من أوائل الكتب الجغرافية التي عينت بصورة شاملة أبرز المدن في هذه البلدان والمسافات فيما بينها وأهم انتاجها الزراعي مع بعض المعلومات العامة . ثم تلتها الدراسات الجغرافية الاقليمية التي تناولت البلاد العربية الآسيوية وإيران تناولاً شاملاً ، فتحدثت عن موقعها الجغرافي ومناخها وطبوغرافيتها وأنهارها ومدنها والمسافات فيما بينها وانتاجها الزراعي وصناعاتها ، ولم تترك شاردة ولا واردة الا عُنيت بتسجيلها . وكانت تلك الكتب المبكرة ، وهي

(٤٥) وصف الهند وما يجاورها من البلاد - للادريسي ، ص ٨ .
(٤٦) راجع : (ابن بطوطة ورحلته) لشاكر خضعاك ، ص ٢٣٧ - ٢٤٥ .

بالذات كتاب (المسالك والممالك) للاصطخري و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي ، و (كتاب البلدان) لليعقوبي ، توزع اهتماماتها على البلاد العربية وإيران بصورة متفاوتة حسب انتشاءات مؤلفيها وحسب الاعتبارات الخاصة التي شجعتهم على الكتابة . فاهتم الاصطخري ببلاد فارس ، وابن حوقل بديار العرب ، وفصل المقدسي الكلام عن بلاد الشام ، وخصص اليعقوبي جزءاً كبيراً من كتابه لدراسة مدن العراق . كذلك اشتملت الكتب الجغرافية العامة اللاحقة من أمثال كتب المسعودي والبيروني والحموي والادريسي وابي الفدا على تفصيلات جغرافية وبشرية متنوعة وغزيرة عن البلدان المذكورة . ويمكن القول ان المادة الجغرافية الوصفية لبلدان العالم العربي الآسيوي وإيران ، وكذلك الأقطار العربية الافريقية والاندلس ، هي أثنى ما قدمته الجغرافية العربية للفكر الجغرافي العالمي .

٣ - قارة افريقيا :

لقد تفوق الجغرافيون العرب والمسلمون على الجغرافيين الاغريق والرومان في معلوماتهم عن قارة افريقيا عموماً . الا انه لا بد من القول ان الاغريق والرومان قد بزوههم في كتاباتهم الجغرافية عن مصر بالذات التي وقعت تحت سيطرتهم لقرون عديدة . ومن المعلوم ان معرفة الاغريق والرومان بالقارة الافريقية ، وبمصر والساحل الليبي بالذات ، تعود الى قرون عديدة قبل الميلاد . والحقيقة ان اسم القارة الافريقية يدين بوجوده للجغرافيين الرومان فهم الذين اطلقوا عليها هذه التسمية . وبطبيعة الحال كانت مصر يومذاك أهم قطر افريقي معروف اضافة الى الساحل الليبي الذي كان معروفاً باسم (سيرين) CYRENE . ولقد حفلت كتابات الجغرافيين والمؤرخين المشهورين أمثال هيرودوت وهيكتيوس وسترابو وبوليس بالمعلومات القيمة عن مصر ، وما تزال تفصيلات سترابو عن منطقة الدلتا وفروع نهر النيل العديدة ذات قيمة كبرى . وقد كتب هيرودوت HERODOTUS كثيراً عن الليبيين وعاداتهم ، كما أورد هيكتيوس HECATIUS أيضاً الكثير من التفاصيل عن الساحل الليبي . وكان أهم ظاهرة أثارت اهتمام الكتاب الاغريق والرومان هو نهر النيل ، ذلك انه كان يجري من الجنوب نحو الشمال ، كما انه كان يفيض في فصل الصيف في الوقت الذي تنعدم فيه الأمطار ويسود الجفاف . وقد ذهب الكتاب الاغريق والرومان شتى المذاهب في تفسير ظاهرة فيضانه ، واقترب بعضهم من الحقيقة في ارجاع السبب الى سقوط الأمطار في أواسط القارة أثناء فصل الصيف . غير انهم لم يستطيعوا تحديد منبع النهر ،

ما عدا الجغرافي المتأخر بطليموس الذي أوضح أنه ينبع من بحيرة جنوبي خط الاستواء ومن جبال اطلق عليها اسم جبال القمر . وكانت معرفة الاغريق والرومان بالمناطق الواقعة جنوبي مصر محدودة ، الا انهم كانوا يطلقون عليها عموماً اسم (اثيوبيا) واعتبروها بلاد السود الحقيقيين . كما ان معرفتهم بالجهات الداخلية من القارة كانت غامضة . وقد اعتبر بطليموس الجهات المعمورة من القارة تنتهي بالقرب من خط الاستواء ، وذكر ان ما وراءه بلاد غير مسكونة بسبب شدة الحرارة .

وكانت معرفة الجغرافيين الاغريق والرومان بالساحل الشرقي لافريقيا تنتهي في الحدود الجنوبية للصومال ، والتي اطلق على رأسها اسم (رأس براسيوم) . غير أن معرفتهم بالساحل الغربي كانت تنحدر الى مستوى الخرافة . وقد ساد الاعتقاد بينهم ان من غير الممكن الطواف حول ذلك الساحل نظراً لأن قاع المحيط الاطلسي في تلك الجهات ضحل جداً وكثير الطين والحشائش ، هذا فضلاً عن أن درجة الحرارة مرتفعة للغاية مما قد يؤدي الى إحراق السفن . وكان يروج لمثل هذه الافكار جغرافيون كبار أمثال هيرودوت وبتليموس . وكذلك ساد الاعتقاد بأن الجزء الجنوبي من القارة الافريقية يمتد في أرض يابسة ، وان البحر الأحمر يتصل بالمحيط الهندي مكوناً بحيرة مغلقة . وكان من أشد المتحمسين لهذا الرأي الجغرافي الكبير بطليموس . ولذلك لم يفكر أي مكتشف حتى نهاية القرون الوسطى في الطواف حول القارة الافريقية أو الوصول الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي ، حتى نجح بارثولميو دياز DIAZ ومن بعده فاسكودي غاما DE GAMA في عام ١٤٩٨ في تنفيذ ذلك الرأي الخاطئ .

ومهما يكن الأمر فان معرفة الجغرافيين العرب بالقارة الافريقية عموماً كانت تتفوق بدرجة ملحوظة على معرفة الاغريق والرومان . واذا كان الرومان قد حكموا مصر وجزءاً من الساحل الليبي وبالتالي اتسعت معلوماتهم الجغرافية عن تلك المناطق الافريقية ، فان النطاق المنحصر فيما بين الساحل الاطلسي والبحر الاحمر ، والذي تحده جنوباً الصحراء العربية الكبرى ، ما لبث أن تحول اثر الفتح العربي الى جزء لا يتجزأ من العالم العربي . واجتاز النفوذ العربي مضيق جبل طارق وضم اليه شبه جزيرة ايبيريا ، بل جعلها مركزاً من أعظم مراكز الثقافة في العصور الوسطى . وكان نصيب الجغرافية من الثقافة العربية في أقطار الجناح الغربي من العالم العربي وافراً للغاية ، فبرز

(٤٧) شريف محمد شريف ، ص ٢٩١ .

عشرات الجغرافيين والرحالة في الاندلس وأقطار الشمال الافريقي ، وحفلت مؤلفاتهم الجغرافية الوصفية بالمعلومات عن العالم الاسلامي بصورة عامة وأقطار الشمال الافريقي والاندلس بصورة خاصة . ويأتي الادريسي والبكري وابن سعيد في مقدمة تلك الاسماء اللامعة ، ناهيك عن الزهري والغرناطي وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم . ومنذ وقت مبكر اهتم الجغرافيون العرب بمصر اهتماماً خاصاً ، فاشتملت الكتب الجغرافية الاقليمية على دراسات مفصلة عنها ، كما ورد في (كتاب البلدان) لليعقوبي و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم) للمقدسي . واشتملت كتابات المسعودي على معلومات مفصلة عن مصر ، كما كتب عبد اللطيف البغدادي دراسة خاصة عن مصر ذات معلومات اقتصادية وبشرية غزيرة في كتابه (الافادة والاعتبار) . كذلك حفلت كتب الموسوعات المتأخرة بمعلومات جغرافية عن مصر مفصلة للغاية ولا سيما (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري و (صبح الأعشى) للقلقشندي . أما الاندلس وأقطار المغرب العربي الأخرى فقد وردت عنها تفصيلات ممتازة في كتب الجغرافيين والرحالة المغاربة ، بيد أن أعظمها دقة وتفصيلاً ما ورد في كتاب الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وفي كتاب البكري (مسالك الممالك) . وقد فاقت تلك التفصيلات ما ورد عنها من معلومات في كتب الاغريق والرومان الاوائل . ولم يخل أي كتاب من الكتب الاقليمية المبكرة للاصطخري وابن حوقل والمقدسي من تفصيلات طيبة عن بلدان المغرب العربي . وقد وردت بعض المعلومات المتفرقة كذلك عن الصحراء الافريقية الغربية وعن بعض بلدان افريقيا الغربية ، وخصوصاً في مؤلفات البكري والادريسي وفي رحلة ابن بطوطة التي ضمت معلومات اقتصادية وبشرية عظيمة الاهمية عن افريقيا الغربية . وقد خلت المؤلفات الغربية من أية معلومات عن تلك الجهات سوى ما كتبه ليون الافريقي Leo The AFRICAN في القرن الرابع عشر (ويفترض انه مغربي الأصل أيضاً وان اسمه حسن الوزان) ، وظلت معلومات الجغرافيين العرب عنها معتمدة لدى الجغرافيين الأوروبيين لغاية القرن التاسع عشر . وكانت معلومات الادريسي على نحو الخصوص ذات أهمية بالغة عن جهات افريقيا الداخلية ، ولا سيما بلاد غينيا والنيجر والسنغال . فقد تحدث عن انهارها وأهم مدنها وزراعاتها وعاداتها ، كما تحدث عن جهات السودان الشرقي واقليم منابع النيل الذي شرحه بأفضل مما فعل بطليموس وأكد على ازدواجية منبع النهر^(٤٨) . وقد تفوق الادريسي على بطليموس الاسكندري في تصويره للجهات المأهولة

(٤٨) George. H. T. Kimble, Geography in the Middle ages, London 1938, P. 59.

من القارة الأفريقية ، فقد حدد بطليموس تلك الجهات بما لا يتجاوز شمالي خط الاستواء ، باعتبار المنطقة الاستوائية لا يمكن سكنها بسبب شدة الحر ، في حين أن الإدريسي مدد الجهات المعمورة نحو جنوب خط الاستواء بإقليم وخمين حيث ضمت منابع النيل ونهر النيجر^(٤٩) . كذلك أورد أحد المؤلفين العرب معلومات هامة عن السودان الشرقي ، لعلها كانت الأولى من نوعها ، في الكتاب المسمى (العزيري) الذي ألفه المهلب للخليفة الفاطمي العزيز (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م) والذي اعتمد عليه ياقوت في جغرافيته عن السودان اعتماداً رئيسياً^(٥٠) .

وهكذا يتضح بأن الأدب الجغرافي عن القارة الأفريقية كان غزيراً ، وإن لم يواز بالطبع ما ألف عن قارة آسيا باعتبارها قلب العالم الإسلامي . وقد شمل مناطق في غربي القارة وأواسطها وفي الصحراء العربية الكبرى ، وهي جهات لم يكن للاغريق والرومان عنها سوى معلومات غامضة للغاية . وإذا لم تكن معلومات الاغريق والرومان في الجهات الشرقية من أفريقيا قد تجاوزت الأطراف الجنوبية من الساحل الصومالي ، فقد توغلت معلومات الجغرافيين العرب جنوباً لغاية خط عرض ٢٠ جنوباً فشملت ساحل موزمبيق الذي أطلقوا عليه اسم سفالة الزنج . وقد انتشرت مراكز استيطانهم في مدن متعددة من أمثال ممبسة وزنجبار وملندة وكلوا ، بل وحتى جزيرة مدغشقر التي أطلقوا عليها اسم جزيرة (قمار) أو (قمر) . وإذا كان التصور السائد لدى الجغرافيين الاغريق والرومان بأن القارة الأفريقية تنتهي بأرض يابسة ، فقد آمن العديد من الجغرافيين العرب بأنها محاطة بالبحار ، وكان على رأس من أيد هذا الرأي أبو الريحان البيروني . فقد قال بهذا الصدد : « وأكثر ما يبلغ سالكو البحر الأعظم من جانب المغرب سفالة الزنج ولا يتجاوزونها ، وسببه أن هذا البحر طاعن في البر الشمالي في ناحية المشرق ودخوله في مواضع كثيرة ، وكثرت الجزائر في تلك المواضع . وعلى مثله بالتكافي طعن البر في البحر الجنوبي في ناحية المغرب وسكنه سودان المغرب وتجاوزوا فيه خط الاستواء إلى جبال القمر التي منها منابع النيل . فحصل البحر هناك فيما بين جبال وشعاب ذوات مهابط ومساعد يتردد منها الماء بالمد والجزر الدائمين ويتلاطم فيحطم السفن ويمنع السلاك . ومع هذا فليس يمنع عن الاتصال ببحر اوقيانوس من تلك المضائق ومن جهة الجنوب وراء تلك الجبال ، فقد وجدت علامات اتصالها وإن لم

(٤٩) حسين مؤنس ، ص ٢٠٩ .
(٥٠) كراتشكوفسكي ، ص ٢٣٠ .

يشاهد . وبذلك صار بر المعمورة وسط ما قد أحاط به اتصال^(٥١) .

تلك هي مجمل معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن القارات القديمة الثلاث ، ومنها يتبين أنها تفوق بصورة عامة على معلومات من سبقهم من الجغرافيين الاغريق والرومان ، كذلك يتضح أن حدود (الربع المعمور) لديهم كان أوسع من ذلك الذي حدده الاغريق والرومان .

وينبغي التأكيد أن هذا الاستعراض السريع لا يعطي فكرة حقيقية عن تفوق الجغرافيين العرب والمسلمين في مضمار الجغرافية الإقليمية والوصفية ، إذ أن أهمية الكتب الجغرافية العربية الوصفية والإقليمية تكمن فيما تحتويه من تفصيلات عن الجهات التي درستها ، وهي تفصيلات استمد أغلبها من الخبرة الشخصية ، أي أنها معلومات من الدرجة الأولى . والواقع أن تفوق الجغرافيين العرب والمسلمين على الاغريق والرومان في معرفتهم بأقطار العالم إنما هو أمر طبيعي ، ذلك أن النفوذ الإسلامي امتد في القارات القديمة وخصوصاً آسيا وأفريقيا في جهات لم يستطع النفوذ الروماني أو اليوناني أن يمتد إليها . وقد كانت رقعة العالم الإسلامي أوسع من رقعة الامبراطورية الرومانية في أعظم عهد من عهودها . وقد هيأ ذلك الاتساع مادة جغرافية دسمة عن جهات واسعة من العالم القديم للجغرافيين العرب والمسلمين . وقد صاحب اتساع النفوذ الإسلامي نشاط تجاري عظيم لم تشهد امبراطورية الاسكندر ولا الامبراطورية الرومانية امتد فيها وراء حدود الامبراطورية الإسلامية . فبالنسبة لأوروبا توغل التجار المسلمون في أواسط القارة وشمالها ووصلوا إلى الجهات الاسكندنافية ، هذا فضلاً عن الجهات الشرقية التي باتت مألوفة لديهم . وبالنسبة لأفريقيا ، عبر التجار العرب الصحراء الكبرى وأقاموا صلات تجارية مع جهات إفريقيا الغربية في غانة والنيجر والسنغال ، ووصلوا لغاية خط عرض (١٠) شمالاً ، كما تجولت مراكزهم على امتداد السواحل الشرقية حتى مدغشقر (جزيرة قمر) . أما بالنسبة لآسيا فكان التجار المسلمون يجوبونها من أقصى الشمال (بلاد الظلمة) إلى أقصى الجنوب (الجزر الأندونيسية - جزيرة رامي ومهرجا) ومن أقصى الشرق (بلاد الصين - بلاد الخطا وجزر الواقواق) إلى أقصى الغرب^(٥٢) .

(٥١) منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى - بقلم ر. بلاشير وه. درمون - باريس ١٩٥٧ (الطبعة الثانية) ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

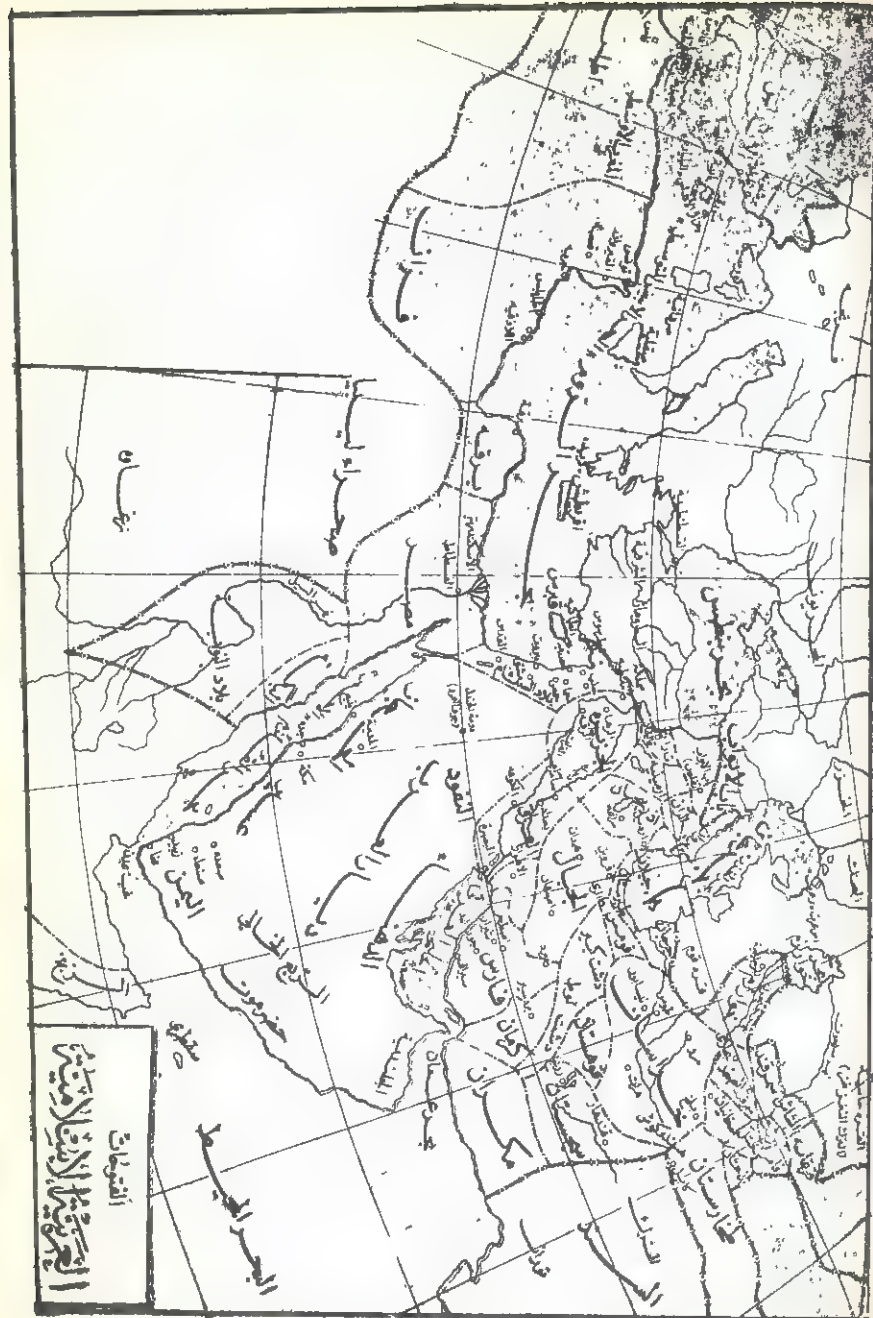
(٥٢) لقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) إلى نوع وحجم التجارة التي كان يزاولها

وهكذا هيأ التجار المسلمون للجغرافيين فرصة ممتازة لجمع معلومات عن أقصى البلدان ، لا تعتمد على التخمين فحسب ، بل على المشاهدة الشخصية . هذا فضلاً عن أن الكثيرين من الجغرافيين كانوا يدونون ملاحظاتهم بأنفسهم لاحتراقهم التجارة إضافة إلى هوايتهم العلمية ورغبتهم في التجوال مما جعل معلوماتهم دقيقة ومضبوطة . وهذا خلافاً لكثير من الجغرافيين الاغريق والرومان الذين اعتمدوا على السماع اعتماداً رئيسياً .

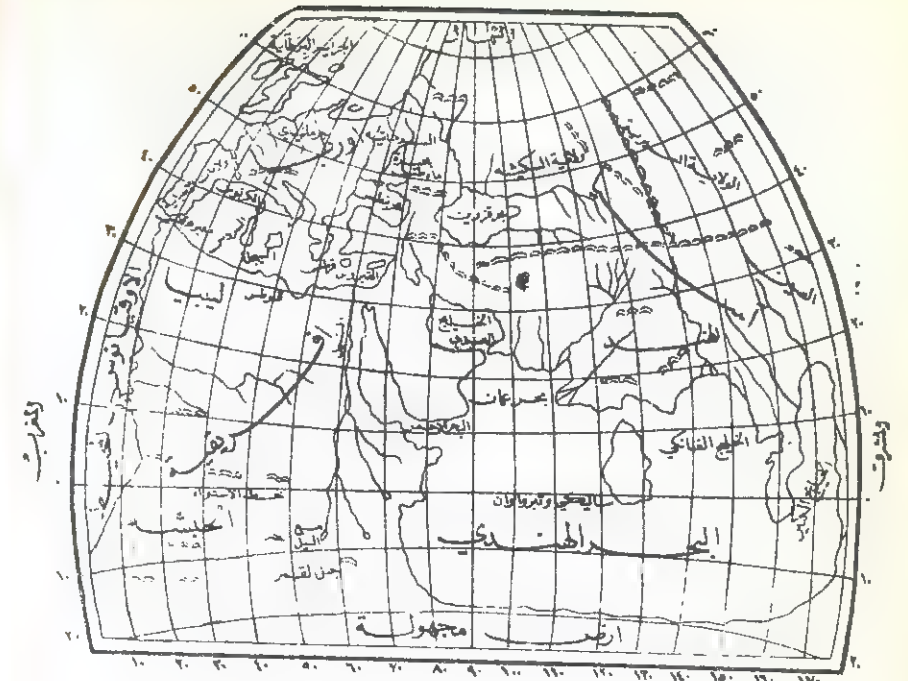
ويمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد اتبعوا منذ البداية الأسلوب الصحيح في كتابة الجغرافية الوصفية ، وهو أسلوب المشاهدة والدراسة الشخصية ، هذا الأسلوب الذي اتبعه اساتذة الجغرافية الحديثة من أمثال همبولدت وراتزل وريختوفن ولا بلاش وديفيز وهنتنجتون . والواقع أن كبار الجغرافيين الاقليميين المسلمين كانوا من الجوالين ، وقد زاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها ، ولا سيما الجغرافيين المبكرين منهم من أمثال اليعقوبي وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي ، وقد أشاروا إلى هذه الحقيقة في كتاباتهم . قال اليعقوبي صاحب كتاب (البلدان) في مقدمته : « قال أحمد ابن أبي يعقوب اني عنيت في عتقوان شباي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأنني سافرت حديث السن واتصلت اسفاري ودام تغري ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فاذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك في . . لدته . . ما هي وزرعه ما هو وساكنيه من هم عرب أم عجم . . شرب أهله . . حتى اسأل عن لباسهم . ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه . . ومسافة ذلك البلد وما بقربه من البلدان . . » (٥٢) .

العرب ضمن القارة الامسيوية على النحو التالي : « ومن الصين (يستوردون) الحرير والكميخا والعود والسروج والسمور والصليبخ والدارصيني والخلونجان والاولاني من الغضار الطيب ، ومن الوقواق الذهب والابنوس ، ومن الزايج والهند العود والصندل والكافور والجوز ، والقرنفل والقاقلة والكبابة والتارجيل والثياب المتخذة من الخشيش والثياب القطنية المخملة وسن الفيل وقرون الكركدن والفضة والعود من شواطئ قمرون (أي اسام) واورانشين (أي اوريسا) والرصاص القلعي من شبه جزيرة ملقا ، ومن سرنديب الياقوت والماس والدر والبلور والسنباذج ، ومن كويم ملي وسندان بساحل المليار الفلفل ، ومن السند البقم والخيزران والساج والقسط والقنا والعاج والذهب والحديد والنحاس من سفالة الزنج والعمير واللبان من بلاد الشحر ومن اليمن الوشي وسائر الثياب والعنبر والبعال والحمير » . ص ٩ .

(٥٢) الاعلاق النفيسة ، ويليهِ البلدان لليعقوبي ، طبع ليدن عام ١٨٩١ ، ص ٣٣٢ .



شكل - ٣ - امتداد التوححات العربية الاسلامية في الثلاثة قرون الاولى للهجرة (من أحمد سوسة)



شكل ٤ - خارطة بطليموس ، وتمثل المفهوم الاغريقي - الروماني للارض المعمورة

وقال ابن حوقل في مقدمة كتابه (صورة الارض) : « وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الاسفار واقتطعتني في البر دون ركوب البحار الى ان سلكت وجه الارض باجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها .. الخ » (٥٣) .

وقال المقدسي في مقدمة كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) : « .. وما تم لي جمعه الا بعد جولاتي في البلدان ودخولي اقاليم الاسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الادباء والقراء .. مع لزوم التجارة في كل بلد والمعايشة مع كل احد والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى

(٥٣) صورة الارض ، لابن حوقل ، ص ١١ .

عرفتها ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها وتنقلي الى الاجناد حتى عرفتها .. الخ » (٥٤) .

وإذا ما استعرضنا حياة أي من الجغرافيين العرب والمسلمين ، ولا سيما الأوائل منهم ، وجدنا انه قد ساح بالفعل في معظم البلدان التي كتب عنها . فقد ساح اليعقوبي في ارمينية وبلاد فارس والهند ، وطاف بالجزيرة العربية وبلاد الشام والمغرب والاندلس . وزار الاصطخري الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وبلاد ما وراء النهر ، اضافة الى تجواله في موطنه بلاد فارس . أما المسعودي فقد اشتملت رحلاته على جهات واسعة من مملكة الاسلام وغيرها من الممالك ، فقد زار بلاد فارس وكرمان والهند وسرنديب ووصل الى بحار الصين ، وتجول في جزر المحيط الهندي ، كما زار أيضاً اذربيجان وجرجان وبلاد ما وراء النهر ووصل الى سواحل البحر الاسود ، اضافة الى تطوافه في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ومصر . أما ابن حوقل فقد أمضى ما يقرب من الثلاثين عاماً يطوف في انحاء العالم الاسلامي ، وقد زار جميع أقطار الاسلام من الهند حتى اسبانيا ، ووصل الى بلاد البلغار والخوض الادنى لنهر الفولغا . كذلك أمضى المقدسي ردهاً طويلاً من عمره يتجول في العالم الاسلامي ، فسافر الى جزيرة العرب وطاف بالعراق والشام ومصر وبلاد المغرب ، كما زار معظم أقطار العجم مثل الديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان ، ولعل البلدين الاسلاميين الوحيديين اللذين لم يزرها هما السند والاندلس . أما الادريسي فقد اتجه في رحلاته الى الأقطار الاوروبية ، ولم يزر الأقطار الاسلامية البعيدة ، مما جعل كتاباته عن البلدان الاوروبية أكثر دقة وأصالة ، وقد تجول في شبه جزيرة ايبيريا وشواطئ فرنسا وايطاليا وجزر البحر المتوسط وبلاد المغرب وغربي افريقيا وآسيا الصغرى واستقر أخيراً في جزيرة صقلية . هذا فضلاً عن الرحلات الواسعة النطاق في العالم الاسلامي وخارجه التي قام بها الرحالة المشهورون أمثال ابن جبیر وابن بطوطة وابو حامد الغرناطي .

ومما زاد في دقة معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين ، اضافة الى تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية ، كونهم ينتمون الى بلدان عديدة ، فمنهم الشامي ومنهم العراقي ومنهم الفارسي ومنهم التركستاني ومنهم المغربي ومنهم الاندلسي .. الخ ، فكان

(٥٤) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، للمقدسي البشاري ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة لندن لعام ١٩٠٦ ، ص ٢ .

كل منهم يتبارى في ايراد التفصيلات عن بلاد الاسلام ويحاول التفوق على صاحبه وخصوصاً فيما يخص المعلومات عن بلده . وهكذا أتاحت الفرصة للجغرافيين العرب والمسلمين ان يدونوا لنا أدباً جغرافياً غزيراً عن جهات العالم القديم ذا أهمية عظيمة من وجهة نظر الجغرافية التاريخية . ويمكن أن نحكم باطمئنان بان ذلك الأدب الجغرافي يشتمل على درجة عالية من الدقة ، ولا سيما فيما يخص جهات معينة . الا اننا لا ند أن نؤكد أيضاً بأن درجة الدقة في تلك الكتابات تضعف كلما ابتعدنا عن قلب العالم الاسلامي ، ونقصد به هنا البلاد العربية الاسيوية والافريقية . فلم تكن المعلومات عن البلدان الخارجة عن نطاق العالم الاسلامي دقيقة ، كما انها كانت متفرقة ونزرة . وخير من عبر عن هذه الحقيقة أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان ، بالرغم من كونه من الجغرافيين المتأخرين ، حيث قال : « فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية . فان اقليم الصين مع عظمتها وكثرة مدنها لم يقع اليها من أخباره الا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقق ، وكذلك اقليم الهند فان الذي وصل اليها من اخباره مضطرب وهو غير محقق ، وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد العصب وبلاد الاولق وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني الى البحر المحيط الغربي ، فانها بلاد كثيرة وممالك متسعة الى الغاية ، ومع ذلك فان اسماء مدنها واحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها الا القليل . وكذلك بلاد السودان من جهة الجنوب فانها أيضاً بلاد كثيرة الجنوس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فانها لم يقع اليها من اخبار بلادهم الا القليل النادر . وغالب كتب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك فلم يحصوها عن آخرها » (٥٥) .

(٥٥) تقويم البلدان لابي الفدا ص ٢ .

مميزات الكتابات الجغرافية الوصفية والاقليمية

لا ريب ان كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية كانت تخضع عموماً لنمط الكتابة العربية-الذي ساد مختلف حقول المعرفة في ذلك العهد . فلم يكن التخصص مثلاً مفهوماً بالمعنى الحديث ، لذلك فقد كان الجغرافيون مؤرخين أيضاً في أغلب الأحوال . كما أن البعض منهم كتب في حقول علمية متعددة أخرى . كذلك لم يكن التمهيز العلمي قد بلغ درجة عالية من النضج ، لذا كان الكتاب والبحاث يتقبلون بعض المعلومات ويعتبرونها مسلمات بالرغم من مناقضتها للمنطق والعقل . ولذلك فلا يكاد يخلو أي كتاب عربي في حقول المعرفة المختلفة من نقاط الضعف اذا ما تعرض للفحص بمنظار النقد والعلم الحديثين .

وقد وجه للكتب الجغرافية العربية بعض النقد بتطبيق المنهج العلمي في دراستها . ومثال ذلك ما ذكره العلامة كراتشكوفسكي من أن أسلوب الجغرافيين الاقليميين العرب كان ينحو الى الوصف الجامع الشامل بدلاً من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة (٥٦) .

غير أن هذا النقد لا ينطبق في الحقيقة على المناطق التي خبرها الجغرافيون العرب والمسلمون خبرة طويلة ومباشرة ، وبصورة خاصة بلدانهم بالذات . هذا فضلاً عن أن أهداف الكتابة الجغرافية الوصفية كانت موجهة لخدمة أغراض الاداريين والحكام والتجار بالدرجة الاولى ، ولم تكن تلك الاهداف تتطلب الدراسة العميقة . ويمكن القول ان تفصيلات الكتب الجغرافية الوصفية والاقليمية كانت تغطي النقاط التالية :

١ - وصف المدن وصفاً دقيقاً مفصلاً قدر الامكان مع نبذة عن تاريخها ومن بناها

(٥٦) كراتشكوفسكي ، ص ٢٤ .

ومن سكنها وأهم الآثار فيها . وهذا الاهتمام الشديد بدراسة المدن يجعل الجغرافيين العرب رواداً لفرع جغرافية المدن URBAN GEOGRAPHY في أبسط أشكاله .

٢ - دراسة طرق المواصلات من حيث اتجاهاتها وطوبوغرافيتها والمدن التي تقع عليها والأبعاد بين تلك المدن ومدى درجة الأمن فيها . ويعتبر هذا الجزء من الدراسة الجغرافية ذا أهمية فائقة بالنسبة للتجار والعسكريين والحجاج .

٣ - الاهتمام بدرجة أقل بوصف الظواهر الطوبوغرافية والتركيز بصورة أخص على مجاري المياه (الأنهار والنهيرات) والبحار والبحيرات .

٤ - الاهتمام بدرجة أقل بذكر الزراعات والصناعات والمعادن والأحوال الاقتصادية .

٥ - سرد المعلومات التاريخية المتعلقة بالبلدان والمدن وحكامها . وتشمل المعلومات التاريخية عادة الحديث عن سكان البلاد وأديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ان هذه الأغراض التي اشتملت عليها مؤلفات الجغرافية الوصفية والاقليمية - وهي كما يتضح تركّز على الجوانب البشرية أكثر من تركيزها على الجوانب الطبيعية - هي التي تكسب الجغرافية العربية أهميتها ، لأنها حفظت لنا من المعلومات المتنوعة عن بلدان العالم القديم مما لم يكن في الامكان معرفته في الوقت الحاضر لولا عناية اولئك المؤلفين . وبطبيعة الحال ، فلم تكن اهتمامات كتب الجغرافيا العربية العامة أو الاقليمية لتتشابه في تركيزها على النقاط المشار اليها اعلاه . فمنها ما أكد على النقطة الاولى ، ومنها ما شدّد على الثانية ، ومنها ما ركّز على النقطة الخامسة ، الا انها كانت جميعاً أضعف اهتماماً بالنقطة الرابعة .

وكان اهتمام الجغرافيين بنقاط معينة بالذات من بين النقاط المذكورة أعلاه يخضع الى أمرين : الأول التطور الذي يحدث في مفهوم الجغرافيا الوصفية عبر القرون ، ولا سيما خلال القرن الرابع والخامس الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) ، والثاني النمط الذي يتتمي اليه الكتاب الجغرافي من بين الانماط المتعددة للجغرافية الوصفية والاقليمية .

ويمكن القول عموماً بأن اهتمامات المؤلفات الجغرافية الوصفية المبكرة كانت بطرق المواصلات وبالمدن الرئيسية في أقطار الاسلام وبمقدار خراجها وغلاتها ، ويتمثل ذلك بالكتب الرائدة من أمثال (المسالك والممالك) لابي القاسم عبد الله بن خرداذبة ،

و (كتاب الخراج وصناعة الكتابة) لابي الفرج قدامة بن جعفر . وتنحو نحو هذين الكتائين الكتب الجغرافية الوصفية المبكرة الاخرى امثال (الاعلاق النفيسة) لابن رسته و (كتاب البلدان) لابن الفقيه و (البلدان) لاحمد بن واضح اليعقوبي مع اهتمام أكبر بالمدن وأبرز معالمها وشيء من تاريخها وسكانها . ثم تنوعت اهتمامات الجغرافيين منذ منتصف القرن الرابع الهجري واولائل القرن الخامس بمختلف النقاط المذكورة أعلاه اضافة الى الاهتمام بطرق المواصلات والمدن ، كالاهتمام بالمعالم الطبيعية والاحوال الاقتصادية والاجتماعية للسكان الخ ، كما تمثل في كتب المدرسة الاقليمية بروادها الكبار البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

أما الأمر الثاني وهو اختلاف انماط كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية ، فقد ارتبط ارتباطاً مباشراً بتوزيع الاهتمامات وتباينها بالنقاط الخمس المذكورة . والواقع أن كتب الجغرافية الوصفية العامة والاقليمية قد تنوعت أنماطها بمرور الزمن . فقد ظهرت لأول مرة على شكل اهتمام بأساء الاقطار والمدن وما يربط بينها من طرق المواصلات كما في كتب (المسالك والممالك) . ثم تطورت الى اهتمام بدراسة الجوانب المختلفة في أقطار العالم الاسلامي من مدن وطرق مواصلات وزراعات وصناعات ومعالم طبيعية كما في الكتب المعنونة بـ (صورة الارض) و (الاقاليم) و (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) . ثم انتقلت الى التركيز على مدن معينة بالذات أو أقطار معينة ودراستها بصورة تفصيلية ، كما في كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني و (خطط بغداد) للمقريزي و (كتاب الهند) للبيروني وتذكرة الاعتبار (عن مصر) لعبد اللطيف البغدادي . ثم أخذت تعنى بالدراسة العامة الشاملة عن أقطار الأرض بما فيها الممالك الاسلامية وغيرها كما في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للادريسي و (تقويم البلدان) لابي الفدا . كذلك تعددت أهدافها كما تمثل في الموسوعات ذات المعلومات الجغرافية التاريخية المتنوعة مثل (مروج الذهب) و (أخبار الزمان) للمسعودي ، و (نهاية الارب) للنويري و (مسالك الابصار) للعمري و (صبح الاعشى) للقلقشندي ، وفي المعاجم الجغرافية من أمثال (معجم البلدان) لياقوت الحموي و (معجم ما استعجم) للبكري ، وفي الكتب الكوزموغرافية التي تعنى بعجائب وغرائب الارض ويختلط فيها العلم بالخرافة ككتب الغرناطي والقزويني .

وبطبيعة الحال فقد تنوعت اساليب ومناهج تلك المؤلفات حسب تنوع أغراضها . فكتب الموسوعات مثلاً ، وبضمنها كتب المسعودي والتي لا تنتمي الى نفس الفترة الزمنية ، كانت تشتمل على معلومات جغرافية وصفية عامة لا يحكمها ضابط جغرافي

معين . فقد تغلب عليها المعلومات التاريخية أحياناً ، وقد تغلب عليها الأفاصيل الأدبية والحكايات طوراً ، كما انها قد تسبب في الحديث عن بلد أو مدينة معينة بالذات بينما توجز في الحديث عن بلد ومدينة أخرى إيجازاً شديداً ، وقد تفصل في وصف بحر من البحار أو نهر من الأنهار وتختصر في بحر أو نهر آخر . وعلى أية حال فان الطابع العام الذي يميزها انها عبارة عن (جمع للمعلومات) ذات الصلة الجغرافية العامة .

وأما كتب المعاجم فقد اشتملت بدورها على تفصيلات مسهبة عن المدن والمعالم الطبيعية مع اهتمام شديد بالاحداث التاريخية .

واهتمت الكتب التفصيلية التي درست بلداً معيناً أو مدينة معينة بالتفصيلات البشرية وتناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية . بل لقد ابتعد البعض منها ابتعاداً واضحاً عن الصلة الجغرافية الحقيقية ككتاب عبد اللطيف البغدادي مثلاً .

أما الكتب الكوزموغرافية فقد اهتمت اهتماماً خاصاً بالعجائب التي خرجت بها في كثير من الاحوال عن نطاق العلم الى محيط الخرافة ، ولا سيما كتب الغرناطي مثلاً . غير انها اشتملت في الوقت نفسه على معلومات جغرافية قيمة عن مناطق نائية من العالم القديم .

وهكذا يتبين بان الكتب التي اتخذت صفة جغرافية حقيقية هي تلك التي يمكن أن نسميها بالكتب الجغرافية الاقليمية . وأفضل الامثلة عليها كتاب (الاقاليم) أو (المسالك والممالك) للاصطخري ، و (صورة الارض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي و (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للادريسي و (المسالك والممالك) للبكري و (تقويم البلدان) لابي الفدا . وتشترك الكتب المذكورة جميعها في مفاهيم جغرافية اساسية ، وأن تفاوت فهمها لتلك المفاهيم حسب التطور الزمني ، وتلك المفاهيم هي الاعتراف بالفكرة الاقليمية ، وايضاح العلاقات المكانية والاهتمام بالخارطة والالتزام بالمعلومات الجغرافية .

أولاً - الاعتراف بالفكرة الاقليمية :

ان الاعتراف بالفكرة الاقليمية قد ساد التفكير الجغرافي العربي منذ بدايته كما سبق أن أشرنا في مقدمة هذا الفصل ، وهو تأثر بالآراء الايرانية والاعريقية ، وبصورة خاصة بالاتجاه البطليموسي . وبالرغم من ان الجغرافيين الاوائل قد اهتموا جميعاً بذكر الاقاليم السبعة وما تشتمل عليه من (البلدان) الا انهم كانوا يتحدثون عنها كفكرة

فلكية عامة مجردة من محتواها الجغرافي . ومنذ تركز الدراسة الجغرافية الاقليمية على يد الاصطخري (وربما على يد البلخي من قبله) لم يعد ينظر الى الاقاليم كفكرة فلكية منقولة عن الايرانيين او اليونانيين بل كفكرة جغرافية بحتة . فنجد الاصطخري - وهو طليعة الجغرافيين الاقليميين - يحاول تقسيم العالم الاسلامي الى (اقاليم) ، ولكن ليس على أساس بطليموسي ، بل على أساس أقرب الى الطبيعي . وبما أن الاصطخري يمكن أن يعتبر رائداً في هذا الميدان ، فان من الممكن ان نفهم سبب الاضطراب وعدم الدقة في المبدأ الذي افترضه لتقسيماته الاقليمية . فهو يقسم منطقة طبيعية واحدة الى أكثر من اقليم أحياناً ، وقد يجمع أحياناً أخرى أكثر من منطقة طبيعية في اقليم واحد . أي انه قد يغلب في بعض الحالات العوامل البشرية (الأقوام أو اللغات) والعوامل السياسية (نوع الحكم) في تقسيمه الاقليمي على العوامل الطبيعية . الا انه على العموم يحاول أن يلتزم بالعامل الطبيعي . ومثال ذلك انه جعل كلاً من بلاد العرب ومصر والمغرب وبحر الروم وبحر الخزر (اقليم) قائمة بذاتها باعتبار ان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها ، في حين انه ميز بين خراسان وما وراء النهر وجعل كلاً منهما اقليماً قائماً بذاته ، مع انها يقعان معاً تحت حكم واحد لاعتقاده انها يختلفان عن بعضهما من الوجهة الطبيعية . بل لجا أيضاً الى تقسيمات فرعية لأقاليمه الرئيسية حسب خصائصها الطبيعية . ويمكن ان نتضح لنا أسس تقسيماته الاقليمية باستعراض « الاقاليم » التي فصل اليها بلاد الاسلام ، ونحدث عن كل منها على انفراد على النحو التالي :

- ١ - ديار العرب : وتشمل شبه جزيرة العرب اضافة الى بادية الشام .
- ٢ - بحر فارس : ويشمل الخليج العربي والبحر العربي والبحر الأحمر والموانئ الرئيسة التي تقع على سواحل هذه البحار .
- ٣ - ديار المغرب : ويشمل الاندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والصحراء العربية الكبرى .
- ٤ - ديار مصر : ويشمل مصر اضافة الى الجزء الشمالي الشرقي من السودان (أرض البجة) .
- ٥ - أرض الشام : ويشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن .
- ٦ - بحر الروم : ويشمل الحوض الشرقي من البحر المتوسط اضافة الى بحر مرمرة واهم موانئه وجزره .

٧- أرض الجزيرة : ويشمل منطقة الجزيرة في العراق مع جزء من البادية الشمالية .

٨- العراق : ويمتد من عبادان في أقصى الجنوب الى تكريت شمالاً ، ويشمل الجزء الواقع بين النهرين .

٩- خوزستان : ويشمل منطقة الاهواز الحالية .

١٠- بلاد فارس : ويشمل القسم الاوسط والغربي من ايران .

١١- بلاد كرمان : ويشمل القسم الجنوبي الشرقي من ايران .

١٢- بلاد السند : وقد جمع في هذا الاقليم الحديث عن (مكران والسند والهند) ، لكن الحديث شمل في الحقيقة بعض اجزاء باكستان الحالية .

١٣- ارمينية والران واذربيجان : ويشمل المنطقة التي تقع ضمن جبال القوقاز بين البحر الاسود وبحر الخزر .

١٤- اقليم الجبال : ويشمل الجزء الغربي من ايران (كردستان) .

١٥- الديلم : ويشمل المناطق الجبلية المشرقة على سهول بحر الخزر الجنوبية .

١٦- بحر الخزر : ويشمل منطقة بحر الخزر ، أي الاجزاء المحيطة به ولا سيما الشرقية منها .

١٧- مفازة خراسان : ويشمل صحراء شرقي ايران .

١٨- سجستان : ويشمل جزءاً من افغانستان .

١٩- خراسان : ويشمل الجزء الشمالي الغربي من افغانستان والاطراف الشمالية الشرقية من ايران .

٢٠- ما وراء النهر : ويشمل الاراضي المحيطة بنهري سيحون وجيحون (سرداريا واموداريا) في تركستان الكبرى ، وهي جمهوريات تركستان وازبكستان وقرغيزية وتاجيكستان .

أما الكتاب الاقليمي الهام الثاني فهو كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل . وقد تحدث الباحثون كثيراً عن تأثر هذا الكتاب بكتاب الاصطخري ، بل أن بعضهم زعم بأن (صورة الأرض) ما هي سوى نسخة منقحة لكتاب الاصطخري . وما يدعم

اقوال اولئك الباحثين وجود فقرات في كتاب ابن حوقل مأخوذة بالنص من كتاب الاصطخري ، ولا سيما في الفصول الاولى ، واعتراف ابن حوقل نفسه بأنه كان قد التقى بالاصطخري فطلب منه ان ينظر في كتابه ويصلحه . ولذلك فهناك تشابه واضح بين تقسيمات الاصطخري الاقليمية لديار الاسلام وبين تقسيمات ابن حوقل ، عدا فروق طفيفة . غير ان الذي لا ريب فيه ان كتاب ابن حوقل قد اشتمل على معلومات اولية كثيرة عن البلدان الاسلامية لم ترد في كتاب الاصطخري ، كما ان حسه الجغرافي كان أفضل من حس الاصطخري ، حيث كان أكثر دقة في تحديد المواقع الجغرافية وأكثر اقتصاداً في الاستطرادات غير الجغرافية . كما كان يلتزم في بعض تقسيماته الاقليمية بالعامل السياسي والاداري أكثر من التزامه بالعامل الطبيعي مما جعل اقاليمه على شكل وحدات سياسية . وقد وردت تقسيماته الاقليمية لبلاد الاسلام على النحو التالي :

١- ديار العرب ٢- بحر فارس ٣- المغرب ٤- الاندلس ٥- صقلية ٦- مصر ٧- الشام ٨- بحر الروم ٩- الجزيرة ١٠- العراق ١١- خوزستان ١٢- فارس ١٣- كرمان ١٤- السند ١٥- ارمينية واذربيجان والران ١٦- الجبال ١٧- الديلم وطبرستان ١٨- بحر الخزر ١٩- مفازة خراسان وفارس ٢٠- سجستان ٢١- خراسان ٢٢- ما وراء النهر .

أما الكتاب الاقليمي الهام الثالث فهو كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) ، وهو يتفوق في مفاهيمه الجغرافية على الكتاتين المذكورين . فقد التزم مؤلفه التزاماً كبيراً بالعامل الطبيعي في تقسيماته الاقليمية ، حتى ان تلك التقسيمات كثيراً ما كانت تتضارب والعامل السياسي والاداري . ومن الممكن أن يعتبر هذا الكتاب نموذجاً ممتازاً للدراسة الجغرافية الاقليمية بخطته الجغرافية المنسقة ومعلوماته ذات الطابع الجغرافي العلمي . ولا يعني ذلك انه لم يتأثر في تقسيماته الاقليمية بالكتاتين السابقين ، غير انه حاول أن يدمج بعض أقاليم الاصطخري وابن حوقل في إقليم واحد ، كما حاول ان يميز أقاليم لم يكن قد ميزها الكتاب المتقدمون . وقد أورد أيضاً في دراسته الاقليمية لمملكة الاسلام مفهوماً جديداً لم يرد في كتب سابقه يستند الى التمييز بين أقاليم العرب وأقاليم العجم . كذلك عمد المقدسي الى تقسيم اقاليمه الرئيسية الى أقسام ادارية تحدث عن كل منها على انفراد ، فقسم الاقليم الى كور ، والكور الى رساتيق ، وميز بين العواصم (القصبات) والمدن الثانوية . وقد وردت تقسيماته الاقليمية على النحو التالي :

أ - أقاليم العرب :

١ - جزيرة العرب ٢ - اقليم العراق ٣ - اقليم آقور (أرض الجزيرة) ٤ - اقليم الشام ٥ - اقليم مصر ٦ - اقليم المغرب ٧ - بادية العرب .

ب - أقاليم العجم :

١ - اقليم المشرق : ويضم خراسان وسجستان وما وراء النهر ، ويقسم الى قسمين : جانب هبطل ، وجانب خراسان . ٢ - اقليم الديلم ٣ - اقليم الرحاب ٤ - اقليم الجبال ٥ - اقليم خوزستان ٦ - اقليم فارس ٧ - اقليم كرمان ٨ - اقليم السند .

وفيه عدا الكتب المذكورة أعلاه لم تظهر مؤلفات هامة انتهجت مثل هذا النهج الاقليمي سوى كتاب (مسالك الممالك) لابي عبد الله البكري والذي لم يكن في الامكان الحصول على نسخة كاملة منه . ويبدو ان هذا المنهج الاقليمي القويم قد اختفى ثانية من المؤلفات الجغرافية العربية ، وأعيد الى الحياة من جديد المنهج الاقليمي البطليموسي ، أي تقسيم العالم الى سبعة أقاليم فلكية . وكان أبرز من التزم بهذا المنهج من الجغرافيين المتأخرين الجغرافي الكبير الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، مع تأكيد على المحتوى الجغرافي لا الفلكي . فقد درس الادريسي في كتابه المذكور « الربع العمور » على أساس أقاليمه السبعة ، ولم يركز شأن سابقه من الجغرافيين المسلمين على بلدان الاسلام فحسب بل درس أيضاً البلدان المسيحية وغير المسيحية ، أي انه حاول أن يجعل دراسته الاقليمية شاملة لجميع مناطق العالم المأهول . وقد حدد كل اقليم من تلك الاقاليم حسب خطوط عرضه وحسب طول النهار فيه ، ثم قسم كلا من تلك الاقاليم الى عشرة اجزاء . ويبدأ الجزء الاول من كل اقليم عند ساحل المحيط الاعظم (الاطلسي) وينتهي عند بحر الصين الذي اعتبره آخر الدنيا شرقاً^(٥٧) .

ولقد حاول زكريا القزويني في كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) ان يتبع التقسيم البطليموسي مقتبياً أثر الادريسي ، الا انه اكتفى بتحديد موضع كل اقليم - أي بدايته ونهايته - وما يضمه اليه من بلدان ، ثم شرح أهم المواضع ضمن كل اقليم من مدن وبلدان وانهار وجبال حسب الطريقة المعجمية ، مؤكداً على الجانب العجائبي في المعلومات أكثر من الجانب العلمي .

(٥٧) حسين مؤنس ، ص ٣٣٢ .

أما أبو الفدا فقد جمع في كتابه (تقويم البلدان) بين منهج الادريسي المتأثر بالتقسيم البطليموسي للارض المأهولة ومنهج ابن حوقل في تقسيماته الاقليمية لدير الاسلام والتي اطلق عليها اسم (الاقاليم العرفية) . ولعل كتابه الوحيد الذي جمع بين الجغرافية الرياضية والوصفية . وقد برر اتباعه لهذا المنهج بقوله : « أما ترتيبه فانه مجداول على وضع التقاويم ، وقد ذكرنا فيه الاقليم الحقيقي والعرفي في بيتين (جدولين) . والمراد بالاقليم الحقيقي أحد الاقاليم السبعة المقدم ذكرها ، والعرفي كل ناحية أو مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الاماكن والبلاد مثل الشام والعراق وغيرهما . وقد يكون الاقليم العرفي بعضاً من الاقليم الحقيقي وقد يكون بعضاً من اقليمين مثل الشام فان بعضه من الاقليم الثالث وبعضه من الرابع . وقد يشتمل الاقليم العرفي على أبعاض الاقاليم السبعة كما يحكي عن الصين فانه يقال ان عرضه أكثر من طوله وانه يشتمل على رؤوس الاقاليم الشرقية حتى يستوعب أطراف الاقاليم السبعة . وأما ترتيب الاماكن وتقديمه بعضها على بعض في الذكر فانه أمر لم يتهياً لنا فيه ترتيب يرضينا فتبعنا فيه ابن حوقل .. »^(٥٨) .

وهكذا قسم أبو الفدا الارض المأهولة الى ثمانية وعشرين اقليماً عرفياً هي : الاقاليم التالية حسب تسلسلها : ١ - جزيرة العرب ٢ - ديار مصر ٣ - بلاد المغرب ٤ - جزيرة الأندلس ٥ - جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ٦ - الشام ٧ - الجزيرة بين دجلة والفرات ٨ - العراق ٩ - خوزستان ١٠ - فارس ١١ - كرمان ١٢ - سجستان ١٣ - السند ١٤ - الهند ١٥ - الصين ١٦ - جزائر بحر الشرق ١٧ - بلاد الروم ١٨ - ارمينية واران واذريجان ١٩ - بلاد الجبل وهي عراق العجم ٢٠ - الديلم وكيلان ٢١ - طبرستان ومازندران وقومس ٢٢ - خراسان ٢٣ - زابلستان والغور ٢٤ - طخارستان وبذقشان ٢٥ - خوارزم ٢٦ - ما وراء النهر ٢٧ - الجانب الجنوبي من الارض وهو بلاد السودان ٢٨ - الجانب الشمالي من الارض .

وهكذا نلاحظ ان جميع الكتب المذكورة اعلاه قد التزمت بشكل أو بآخر بالمفهوم الاقليمي في حديثها عن العالم الاسلامي بصورة خاصة أو عن « الربع المعمور » بصورة عامة .

(٥٨) تقويم البلدان لابي الفدا ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

ثانياً - ايضاح العلاقات المكانية :

اهتمت الكتب المذكورة بصورة متفاوتة بايضاح العلاقات المكانية للموضع أو القطر الذي تدرسه ، واستعانت بذلك اما بالظواهر الطبيعية من جبال وانهار وبحار وبحيرات وصحارى ، أو بالاقسام السياسية المجاورة للاقليم ، أو بالمعالم الفلكية المتمثلة في خطوط العرض والطول . ويدل ذلك ولا شك على حس جغرافي متقدم ، اذ ان ايضاح العلاقات المكانية للموضع تمثل ابرز معالم الجغرافية . وفي الصفحات التالية نورد امثلة لاساليب الكتاب الاقليميين المذكورين في تحديد الموقع الجغرافي لاقليمهم . قال الاصطخري في تحديد « ديار العرب » :

« وابتدأت بديار العرب لان القبلة بها ومكة فيها وهي أم القرى ، وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكانها غيرهم والذي يحيط بها بحر فارس من عبادان وهو مصب ماء دجلة في البحر فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان . ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل اليمن الى جدة . ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي الى أيلة . وثم قد انتهى حيثئذ حد ديار العرب من هذا البحر . وهذا المكان من البحر لسان يعرف ببحر القلزم ينتهي الى تاران وجبيلات الى القلزم فينقطع . فهذا هو شرق ديار العرب وجنوبها وشيء من غربها . ثم يمتد عليها من أيلة الى مدينة قوم لوط والبحيرة المنتنة التي تعرف ببخيرة زغر ، الى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين ، واذرعات وهوران والبثينة والغوطة ونواحي بعلبك وذلك من عمل دمشق وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ، ثم الخنابرة وبالس وهما من عمل قنسرين ، وقد انتهينا الى الفرات . ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينتهي الى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة وحديثة وهيت والانبار الى الكوفة ومتفرع مياه الفرات الى البطائح . ثم ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة الى حد واسط ، فتصاقب ما قارب دجلة عند واسط مقدار مرحلة ، ثم تمتد على سواد البصرة ويطائرها حتى تنتهي الى عبادان ، فهذا الذي يحيط بديار العرب . فما كان من عبادان الى ايله فانه بحر فارس ويشتمل على نحو ثلاثة أرباع ديار العرب ، وهو الحد الشرقي والجنوبي وبعض الغربي ، وما بقي من الحد الغربي من ايلة الى بالس فمن الشام . وما كان من بالس الى عبادان فهو الحد الشمالي . فمن بالس الى ان تجاور الانبار من حد الجزيرة ومن الانبار الى عبادان من حد العراق . ويتصل بأرض العرب بناحية أيلة برية تعرف بتيه بني اسرائيل ، وهي برية وان كانت متصلة بديار العرب فليس من ديارهم ، وانما هي برية بين أرض العمالة واليونانية

وأرض القبط . وليس للعرب بها ماء ولا مرعى ، فلذلك لم ندخلها في ديارهم . وقد سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر الجزيرة حتى صارت لهم دياراً ومراعي ، فلم تذكر الجزيرة من ديار العرب ، لأن نزولهم بها - وهي ديار فارس والروم - في أضعاف قرى معمورة ومدين لها أعمال عريضة ، فذلوا على حكم فارس والروم حتى أن بعضهم تنصر ودان بدين الروم مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام » (٥٩) .

وقال ابن حوقل في تحديد موقع مصر : « فأما مصر فلها حد يأخذ من بحر الروم من الاسكندرية ، ويزعم قوم من برقة في البرية » ، حتى ينتهي الى ظهر الواحات ويمتد الى بلد النوبة ، ثم يعطف على حدود النوبة من حد اسوان على أرض البجة في قبلي اسوان حتى ينتهي الى بحر القلزم . ثم يمتد على بحر القلزم ويجاور القلزم الى طورسينا ويعطف على تيه بني اسرائيل مارا الى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفع ، ويرجع على الساحل مارا على بحر الروم الى الاسكندرية ويتصل بالحد الذي قدمت ذكره من نواحي برقة » (٦٠) .

وقال يصف حدود العراق : « وأما العراق فانه في الطول من حد تكريت الى عبادان ، وعبادان مدينة على بحر فارس ، وعرضه من القادسية على الكوفة وبغداد الى حلوان ، وعرضه بنواحي واسط من سواد واسط الى قرب الطيب ، وبنواحي البصرة من البصرة الى حدود جبي . والذي يطيف بحدوده من تكريت فيما يلي المشرق حتى يجوز بحدود سهرورد وشهرزور ، ثم يمر على حدود حلوان وحدود السيروان والصميرة وحدود الطيب والسوس حتى ينتهي الى حدود جبي ثم الى البحر ، فيكون في هذا الحد من تكريت الى البحر تقويس . ويرجع على حد المغرب من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة ويطائرها الى واسط . ثم على سواد الكوفة ويطائرها الى الكوفة . ثم على ظهر الفرات الى الانبار ، ثم من الانبار الى حد تكريت بين دجلة والفرات . وفي هذا الحد من البحر على الانبار الى تكريت تقويس ايضاً . وهذا المحيط بحدود العراق وسنأتي على أوصافه مفصلة ان شاء الله » (٦١) .

(٥٩) المسالك والممالك للاصطخري ، ص ٢٠ .

(٦٠) صورة الأرض - لابن حوقل ، ص ١٢٦ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

أما المقدسي فقد حاول ان يحدد لنا موقع (مملكة الاسلام) من « الربع المعمور » بصورة عامة ، فقال : « الشمس تغرب في حافة بلد المغرب ، ويرونها تنزل في البحر المحيط ، وكذلك أهل الشام يرونها تغيب في بحر الروم . واقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طويلاً الى بلد النوبة ، ويقع بين بحر القلزم وبحر المغرب ، ومن قبل الجنوب بلدان السودان . ويمتد اقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال الى بلد الروم فيقع بين بحر الروم وبادية العرب ، ويتصل البادية وبعض الشام بجزيرة العرب ويدور على الجزيرة بحر الصين الى عبادان من أرض مصر . ويتصل بتخوم العراق الشمالية اقليم آقور فيمتد الى بلد الروم وقد تقوس عليه الفرات من نحو الغرب ووقع خلف الفرات بقية البادية وطرف من الشام . فهذه اقاليم العرب . ووقعت خوزستان والجبيل على تخوم العراق الشرقية ، وطائفة من الجبال واقليم الرحاب على تخوم آقور الشرقية . ووقعت فارس وكرمان والسند خلف خوزستان على صف واحد البحر جنوبيها والمفازة وخراسان شماليها . وتاخمت السند وخراسان من قبل الشرق بلدان الكفر ، وتاخمت الرحاب بلد الروم من قبل الغرب والشمال . ووقع اقليم الديلم بين الرحاب والجبيل ومفازة وخراسان . فهذه مملكة الاسلام فتدبرها وفيها نفل وتعرج من شقها من شرقها الى غربها . ألا ترى انك اذا أخذت من البحر المحيط الى مصر كنت على الاستواء ثم تميل يسيراً الى العراق ثم تنتقل في اقاليم الأعاجم وخراسان مائلة الى جهة الشمال . . . الخ » (٦٢) .

وبالرغم من ان المقدسي لم يعن بتحديد موقع اقاليمه الجغرافية بصورة منفردة كما فعل الاصطخري وابن حوقل ، الا انه كان يحاول اعطاء فكرة عن موقع الاقليم عند الحديث عن سطحه . ومثال ذلك قوله عند التحدث عن اقليم الشام : « ووضع هذا الاقليم طريف ، هو اربعة صفوف ، فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة متموجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل ، والصف الثاني الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وكابل والقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ويقع فيه من البلدان ويلة وتبوك واريحا وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون واشجار يقع فيه من البلدان مأب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وتقع الجبال

(٦٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ، ص ٦٢ - ٦٣ .

الفاضلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام في الصف الثاني ، وسرة الارض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل » (٦٣) .

أما اهتمامات الادريسي بتحديد الموقع الجغرافي للمكان فقد انحصرت في الجانب الفلكي ، وذلك لاتباعه التقسيم البطليموسي للأرض المأهولة . فقد قسمها الى سبعة اقاليم تبتدىء من خط الاستواء جنوباً حتى قرب الدائرة القطبية شمالاً ثم قسم كل اقليم الى عشرة أجزاء ورقمها ابتداءً من الطرف الغربي عند المحيط الاطلسي حتى الطرف الشرقي عند حد الصين الشرقي . وقد مكنه هذا التقسيم من تحديد الموقع الجغرافي للمكان الذي يتحدث عنه ، إلا أنه كثيراً ما كان يضطر الى الحديث عن قسم من البلاد فقط باعتباره يقع ضمن جزء معين من أحد الاقاليم السبعة مؤجلاً الحديث عن بقية البلاد الى أن يأتي دورها عند شرح الاجزاء الأخرى من الاقليم أو عند الانتقال الى شرح اقليم آخر ان كانت البلاد تقع ضمن أكثر من اقليم . ومع ذلك فقد حاول الادريسي ، إضافة الى ذلك ، اللجوء الى طريقة الجغرافيين الاقليميين في تحديد الموقع الجغرافي للموضع الذي يتحدث عنه ، ومثل ذلك حديثه عن غانة مثلاً حيث قال : « ان أرض غانة تتصل من غربها ببلاد مقزارة ومن شرقها ببلاد ونقارة وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر ، وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية وغيرها » (٦٤) .

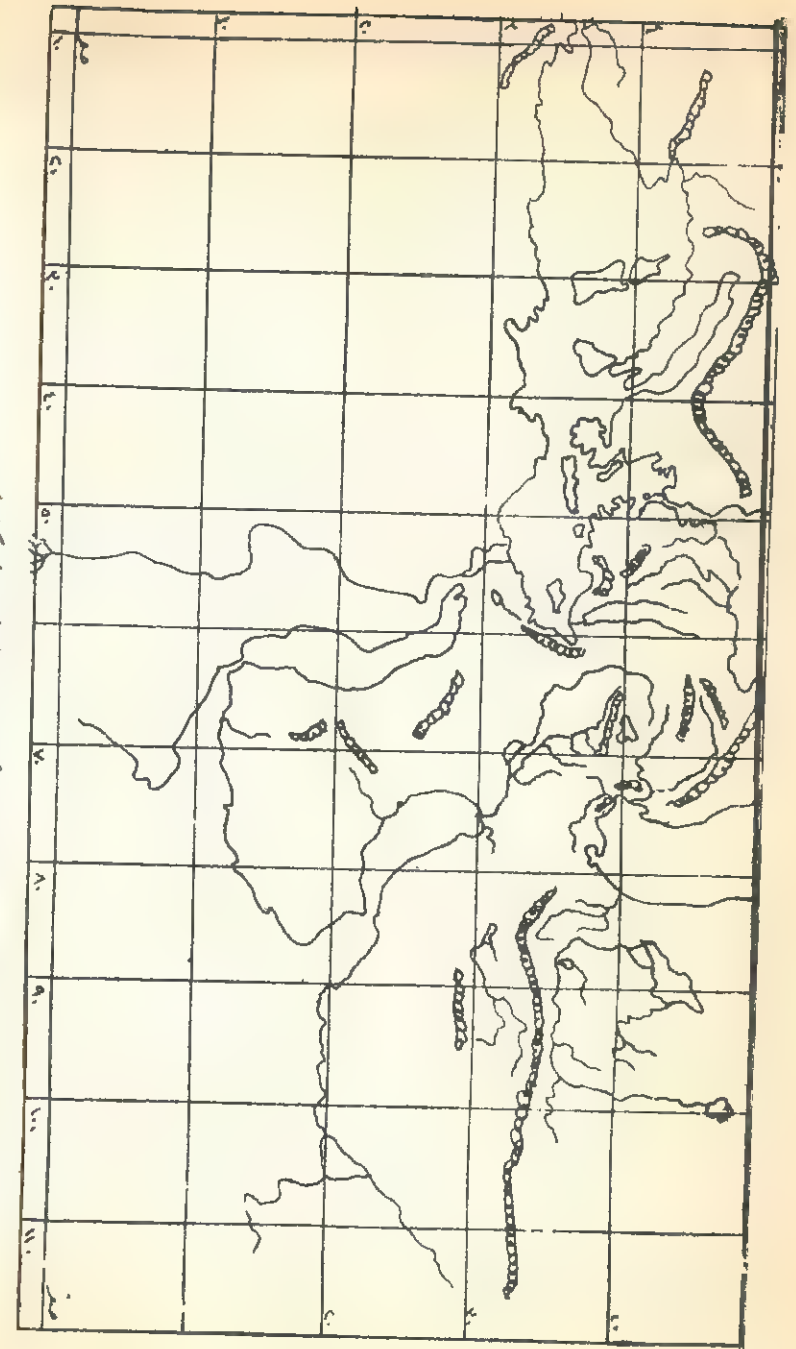
ثالثاً - الاهتمام بالخارطة (*) :

اقتترنت الجغرافية الاقليمية العربية منذ بدايتها برسم الخرائط . غير أن نوع الخارطة الذي ارتبط بالجغرافية الاقليمية يختلف عن ذلك النوع الذي ظهر عند نشأة الجغرافية العربية في عهد تأثرها بالفكر الاغريقي والروماني ولا سيما بالفكر البطليموسي . فقد كانت تلك الخرائط ذات اهتمامات فلكية . وكان أفضل نموذج لها

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٦٤) كتاب وصف افريقيا الشمالية والصحراوية للشريف الادريسي ، منشورات مكتبة معهد الدروس العليا الاسلامية في الجزائر ١٩٥٧ ، ص ٨ .

(*) لقد استخدم العرب مصطلح « الصورة » أو « الرسم » أو « لوح الرسم » أو « لوح الترسيم » أو « الجغرافيا » للدلالة على « الخارطة » أما مصطلح « الخارطة » فلم يستخدم الا في عصر متأخر (القرن التاسع عشر) . ومن الجدير بالذكر ان الاتجاهات في الخرائط العربية كانت معكوسة حيث كان الجنوب يوضع في أعلى الخارطة والشمال في أسفلها والشرق في يسارها والغرب في يمينها . ويقال أن سبب ذلك يعود الى وقوع جزيرة العرب بما تضمه من المدينتين المقدستين مكة والمدينة في جنوبي الارض .



شكل ٥ - الصورة المأمونية (عن إبراهيم شوكات)

ما سمي (بالخارطة المأمونية) التي أمر الخليفة المأمون جبهة من العلماء برسمها للارض المعمورة . ولعل الخوارزمي كان أهم الشخصيات التي ساهمت في رسم تلك الخارطة . ولا يمكننا الحكم على جودة تلك الخارطة فقد ضاعت فيما ضاع من تراث عربي ، الا أن ما تبقى لنا من كتابات حولها تدل على انها كانت خطوة رائدة وجيدة في الكارتوغرافيا العربية . وقد اعقبها خطوات ناجحة على ايدي جبهة من الفلكيين من أمثال ابن سريون والبتاني وابن يونس . وكانت تلك الخطوات سائرة في الاتجاه الصحيح في ميدان الكارتوغرافيا ، الا انها مع الأسف اتخذت اتجاهاً مستقلاً عن الاتجاه الذي شقه لانفسهم الجغرافيون الاقليميون وعلى رأسهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي . فبينما اتبعت الخرائط الفلكية الاسلوب العلمي ، وذلك بتحديد المواقع عن طريق خطوط الطول والعرض ، وبالتالي المحافظة على دقة السواحل وحجم البحيرات والبحار ومجاري الأنهار ومساحة البلدان ، ضربت الخرائط الاقليمية بالقواعد العلمية عرض الحائط ، واهتمت لا بالدقة الجغرافية ، بل بتمثيل الحقائق الجغرافية بالمصورات . لذلك جاءت تلك المصورات أقرب الى رسوم تخطيطية منها الى خرائط حقيقية ، وليس لها من رابط بمرحلة الخارطة المأمونية .

ولقد صنف أحد الباحثين مراحل تطور الكارتوغرافيا العربية الى ثلاث ؛ الاولى مرحلة الخارطة المأمونية ونظائرها ، والثانية مرحلة الخرائط الاقليمية ، والثالثة مرحلة الخرائط الادريسية التي تمثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا العربية من تطور^(٦٤) . غير أن من المتفق عليه أن المرحلة الوسطى لا علاقة لها بالمرحلة الاولى أو الثالثة ، وانما تمثل مرحلة مستقلة تماماً من مراحل الكارتوغرافيا العربية .

ولم يتفق الباحثون على أصل تلك الخرائط الاقليمية ، غير أن نفرأ منهم ، ومن ضمنهم كراتشكوفسكي ، يعتقد بانها ربما ترجع الى (أطلس ايران) القديم^(٦٥) . وليس لهذا الرأي من سند سوى أن تلك الخرائط تهتم اهتماماً خاصاً بالمقاطعات الايرانية وتفصل فيها . ومهما يكن الأمر فان مثل هذا القرض لا يدعمه دليل أكيد ، نظراً لان الأطلس المذكور لم يعثر له على أثر ليتسنى الحكم عليه . ومن الممكن ان نعزو هذا التفصيل في المقاطعات الايرانية وأقطار آسيا الوسطى في تلك الخرائط الى كون

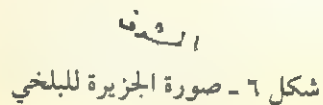
(٦٤) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي - تاليف الدوميلي وترجمة عبد الحليم النجار ، دار القلم -

القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

(٦٥) كراتشكوفسكي ، ص ٢٠٧ .

ولقد بذل المستشرق الألماني كونراد ميلر MULLER اهتماماً خاصاً في جمع تلك الخرائط ونشرها في مجلد خاص تحت عنوان (الخرائط العربية) Mappae Arabicae ، وسماها (أطلس الاسلام) . ويرى ميلر ان أبا زيد البلخي هو أول من عني بوضع أطلس للبلاد الاسلامية ، وان كتابه المفقود والذي يرد في المراجع باسماء متعددة مثل (صور الاقاليم) و (الاشكال) و (المسالك والممالك) ، يعتبر رائداً في هذا الميدان . هذا بالرغم من أن الاصطخري يزعم انه أول من ابتدع هذا المنهج حيث يقول في مقدمة كتابه : « ولان الغرض في كتابي هذا تصوير الاقاليم التي لم يذكرها أحد علمته »^(٦٦) . والواقع ان هناك خلط كثير عند الحديث عن رواد الجغرافية الاقليمية الثلاثة وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل ، فالباحثون يعتقدون ان الاصطخري وابن حوقل ربما كانا يدينان بمؤلفيهما للبلخي . وهناك تأكيد بأن الاصطخري قد تأثر كثيراً بالبلخي ، وان ابن حوقل قد استعار الشيء الكثير من الاصطخري ، والذي لا ريب فيه أن هناك نصوصاً متشابهة تتردد في الكتب الثلاثة . ومهما يكن الأمر فاننا ندين للبلخي بثبيت مبدأ ما يزال من أهم مبادئ الجغرافية الاقليمية ، وهو اقران المعلومات الجغرافية بالخارطة وجعل المصورات أساساً للشرح الجغرافي . بل أن كتابي الاصطخري وابن يصابن على أن الشروح ما هي الا توضيح للخارطة المرفقة بها وان الاساس فيها هي الخرائط أو الصور . فلقد ذكر الاصطخري في مقدمته : « وأما ذكر مدنها وجبالها وانهارها وبحارها والمسافات وسائر ما انا ذاكره فقد يوجد في الاخبار ولا يتعذر على من أراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد ، ولذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره فانخذت لجميع الارض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة ، اذا نظر اليها ناظر علم مكان كل اقليم كما ذكرناه واتصال بعضه ببعض ومقدار كل اقليم من الارض ، حتى اذا رأى كل اقليم من ذلك مفصلاً علم موقعه من هذه الصورة التي جمعت سائر الاقاليم لما يستحقه كل اقليم في صورته ، من مقدار

113



الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما تكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكثفت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكانه ، ثم افردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه مما آتى على ذكره في موضعه ان شاء الله ^(٦٧) .

أما ابن حوقل فقد وضع الخارطة أيضاً في مبتدأ بحثه عن كل اقليم ، ونص في مقدمة كتابه انه « قد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً يحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع وما في اضعايفها من المدن والاصقاع ... واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره واتخذت لجميع الارض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة ... واعربت عن مكان كل اقليم مما ذكرته واتصال بعض ببعض ومقدار كل ناحية في سعتها وصورتها من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل ، وموقع كل مدينة من مدنها تجاورها وموضعها من شمالها وجنوبها وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها ليكتفي الناظر ببيان موقع كل اقليم وموضعه في مكانه وما توحيته من ترتيبه واشكاله ^(٦٨) .

كذلك يشير المقدسي في مقدمة كتابه انه قد استعان في شرح كل اقليم من اقاليمه برسم صورة له ، حيث قال : « ووضحنا الطرق لان الحاجة اليها أشد ، وصورنا الاقاليم لان المعرفة بها أروح ^(٦٩) ، كما يقول في موضع آخر : « وقد قسمنا أربعة عشر اقليماً ، وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ، ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبتنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأخبارها بعدما مثلنا ورسمنا حدودها وخططها وحررنا المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام ويقف عليه الخاص والعام ^(٧٠) . غير انه لم يعبر عن نفس الحماس بضرورة الاهتمام بالصور كما عبر البلخي والاصطخري وابن حوقل . وقد ضاعت تلك الصور ولم يتسن لنا معرفة ما احرزها فيها المقدسي من تقدم على سابقه ، وان كان بعض البحاث يعتقد انها ربما

(٦٧) المصدر السابق ص ١٥ .

(٦٨) صورة الارض - لابن حوقل ، ص ١٠ .

(٦٩) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ٨ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٦ .



شكل ٧ : صورة ديار الشام للاصطخري

كانت تمثل حلقة الوصل بين خرائط (أطلس الاسلام) وخرائط الادريسي ، لا سيما وان المقدسي قد انتقد خرائط رواد المدرسة الاقليمية في بعض جوانبها^(٧١) . وعلى أية حال فلا يمكن القول بأن خرائط رواد المدرسة الاقليمية قد وصلت اليها بأجمعها ، ولا سيما ما يتعلق بخرائط البلخي . فلم تصل اليها من خرائط البلخي مثلاً سوى ثلاث خرائط هي (صورة ديار العرب) و(صورة الجزيرة) و(صورة الارض) . أما بالنسبة للاصطخري وابن حوقل فقد وصلت الى ايدينا جميع خرائطها على ما يبدو . وكان كل منهما قد اتبع نظاماً معيناً في تبويب كتابيهما ، ولعل الخرائط كانت أساساً لذلك التبويب . ويتشابه هذان النظامان تشابهاً تاماً تقريباً ، وهناك من الباحثين من يعتقد انه ربما كان نفس النظام الذي اتبعه البلخي في كتابه . فقد رسم كل منهما احدى وعشرين خارطة ، وجاءت تلك الخرائط متسلسلة في كتاب الاصطخري على النحو التالي :-

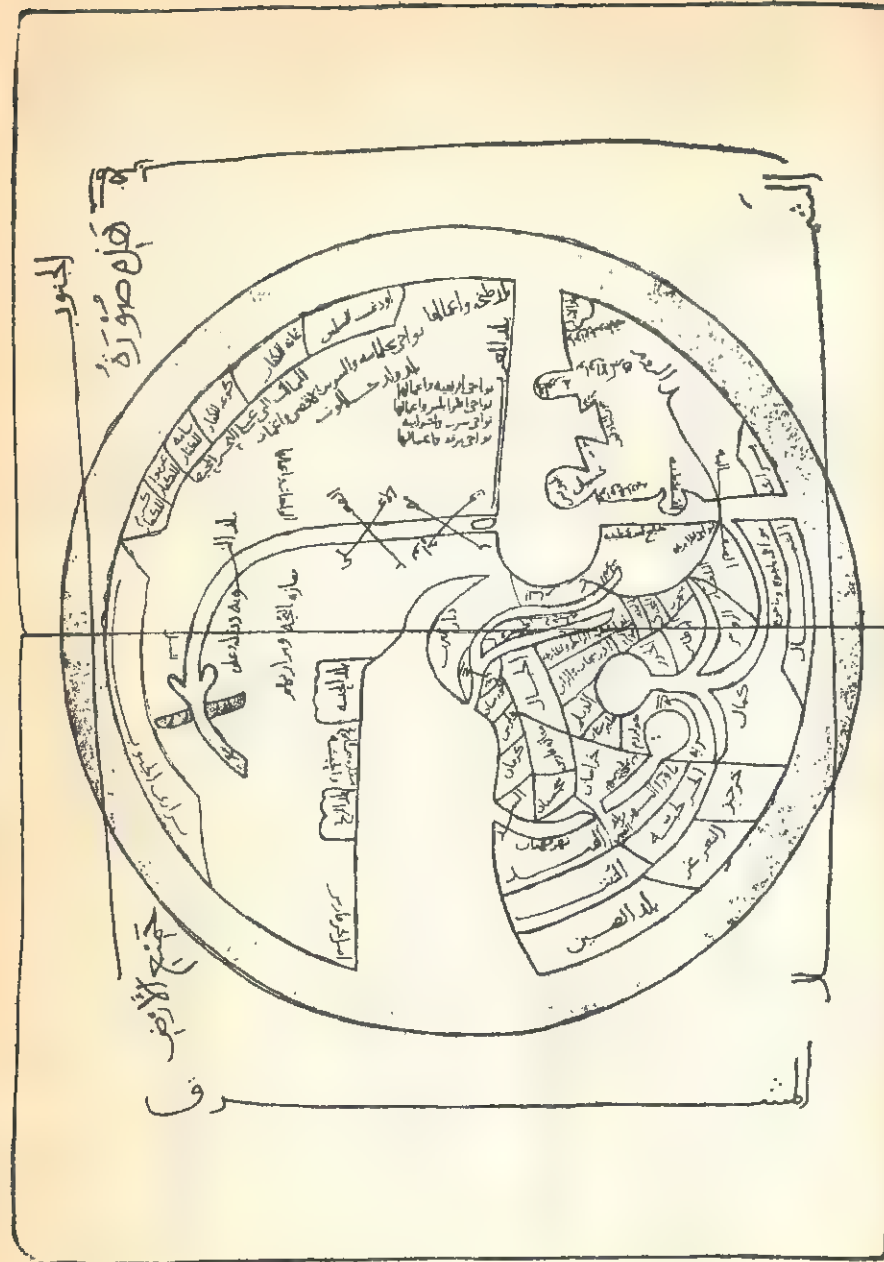
- ١ - صورة الارض والاقاليم ٢ - صورة ديار العرب ٣ - صورة بحر فارس ٤ - صورة المغرب ٥ - صورة مصر ٦ - صورة الشام ٧ - صورة بحر الروم ٨ - صورة الجزيرة ٩ - صورة العراق ١٠ - صورة خوزستان ١١ - صورة فارس ١٢ - صورة كرمان ١٣ - صورة بلاد السند والهند ١٤ - صورة ارمينية واذريجان ١٥ - صورة الجبال ١٦ - صورة الديلم ١٧ - صورة بحر الخزر ١٨ - صورة المفازة التي بين فارس وخراسان ١٩ - صورة سجستان ٢٠ - صورة خراسان ٢١ - صورة ما وراء النهر .

أما ابن حوقل فقد وردت خرائطه على النحو التالي :

- ١ - صورة جميع الارض ٢ - صورة ديار العرب ٣ - صورة بحر فارس ٤ - صورة المغرب ٥ - صورة مصر ٦ - صورة الشام ٧ - صورة بحر الروم ٨ - صورة الجزيرة ٩ - صورة العراق ١٠ - صورة خوزستان ١١ - صورة فارس ١٢ - صورة كرمان ١٣ - صورة بلاد السند والهند ١٤ - صورة ارمينية واذريجان والران ١٥ - صورة الجبال ١٦ - صورة الديلم وطبرستان ١٧ - صورة بحر الخزر ١٨ - صورة مفازة فارس ١٩ - صورة سجستان ٢٠ - صورة خراسان ٢١ - صورة ما وراء النهر .

أما بالنسبة للمقدسي فيعتقد الدكتور ابراهيم شوكت انه لم يرسم صورة الارض جمعا كما لم يرسم صورة سجستان وصورة بحر الخزر ، ولكنه رسم بقية الخرائط التي

(٧١) حسين مؤنس ، ص ٢٢٠ .



شكل ٨ - صورة عموم الارض لابن حوقل

رسمها كل من ابن حوقل والاصطخري والتي ذكرت اعلاه (٧٢) .

وليس من المتوقع بالطبع ان تكون تلك الخرائط قد وصلت اليها كما رسمها مؤلفوها ، ولا بد انها تعرضت الى شيء من التحريف على ايدي النساخ . وقد لاحظ ذلك بصورة واضحة الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني عند قيامه بتحقيق كتاب (المسالك والممالك) للاصطخري ، وأثبت في آخر الكتاب ما لمسه من فروق في خرائطه بين النسخ المختلفة (٧٣) .

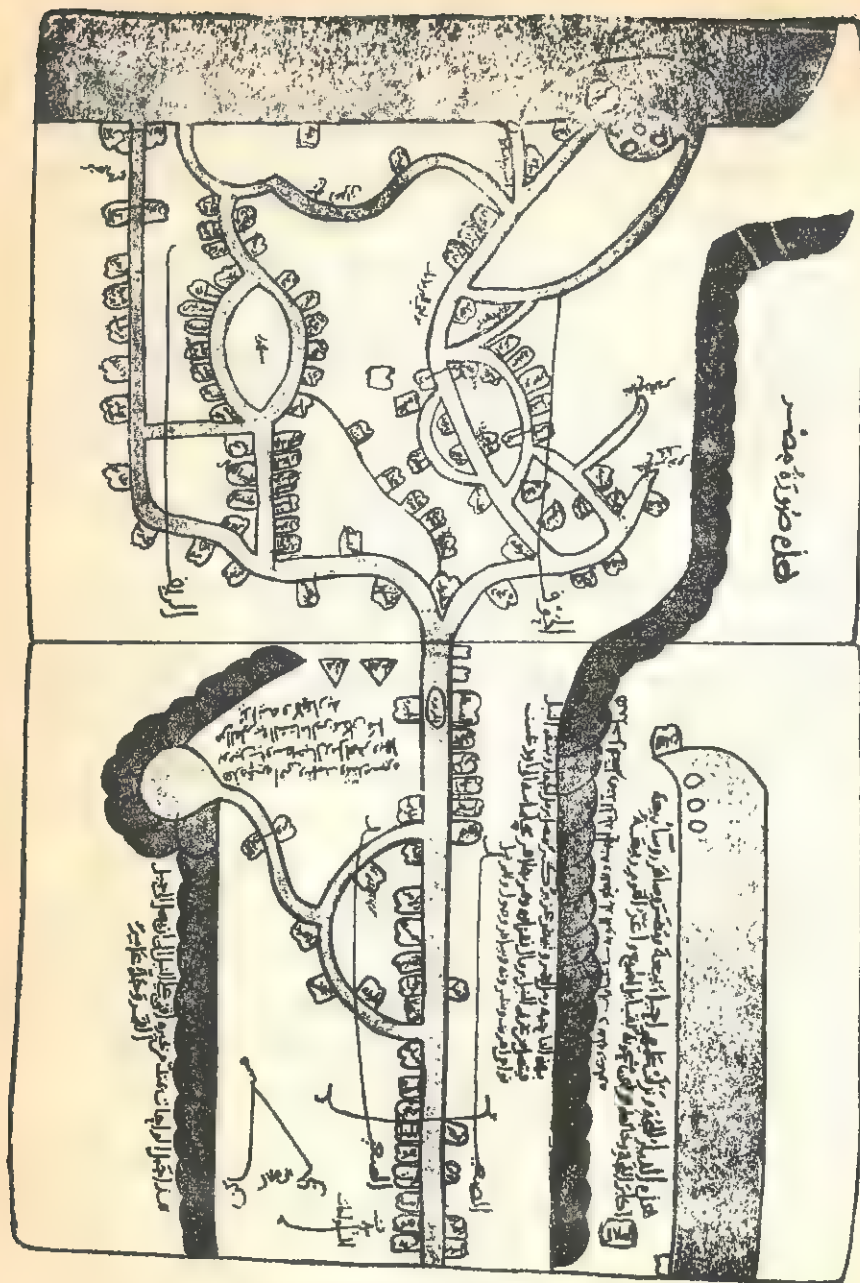
وعلى أية حال فان جميع خرائط الرواد الاقليميين تكاد تشترك في صفات عامة ابرزها الشكل الهندسي التخطيطي الذي لا يعترف بالشكل الحقيقي للبلاد . ولذلك كثيراً ما يرد شكل البلاد على هيئة مستطيل أو مربع ، كما ترسم معالم السطح من سواحل وجبال وأنهار وبحار على شكل خطوط مستقيمة أو أقواس أو دوائر ، وتظهر البحار الداخلية على هيئة دوائر كاملة وباحجام مبالغ فيها . ولا يمكن ان تجمع تلك الخرائط الاقليمية الى بعضها - شأن خرائط الادريسي - لتكون خارطة واحدة للعالم ، بل ان كلا منها مستقل استقلالاً تاماً عن الخارطة الاخرى . والحقيقة انها عبارة عن ملخص مصور للمعلومات المشروحة في المتن . وقد نقد الدكتور ابراهيم شوكت خرائط الاصطخري والمقدسي وابن حوقل فقال عنها : « تتمثل مظاهر البساطة والاختصار في العرض في خرائط الاصطخري فهي عامة لا تشمل تفاصيل كثيرة ، ولقد زاد التعقيد وكثرت التفاصيل في صور المقدسي ، الا ان ذلك لم يبلغ ما في صور ابن حوقل . وتمتاز خرائط ابن حوقل عن غيرها بدقة المعلومات وكثرتها في الصورة الواحدة وكذا اختلاف الشكل ، فالصورة عنده أقرب الى واقعها الحالي والخرائط الحديثة مما جاء عند الاصطخري والمقدسي » (٧٤) .

أما الادريسي فبالرغم من كونه يتبع المدرسة الاقليمية ذاتها كما يتفق مع روادها في اعتبار الخارطة أساس الجغرافية ، الا أن خرائطه تختلف كلياً عن خرائط (أطلس الاسلام) . فهي تلتزم بمقياس الرسم وبتحديد مواضع خطوط الطول والعرض ، كما تلتزم بالشكل الحقيقي للمنطقة ، لذلك اعتبرت قمة ما بلغته الكارتوغرافيا العربية من

(٧٢) خرائط جغرافي العرب الاول ، للدكتور ابراهيم شوكت - مجلة الاستاذ - المجلد العاشر - بغداد ١٩٦٢ ، ص ٢٨ .

(٧٣) راجع المسالك والممالك للاصطخري ، ص ١٩٩ - ٢٠٥ .

(٧٤) الدكتور ابراهيم شوكت ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .



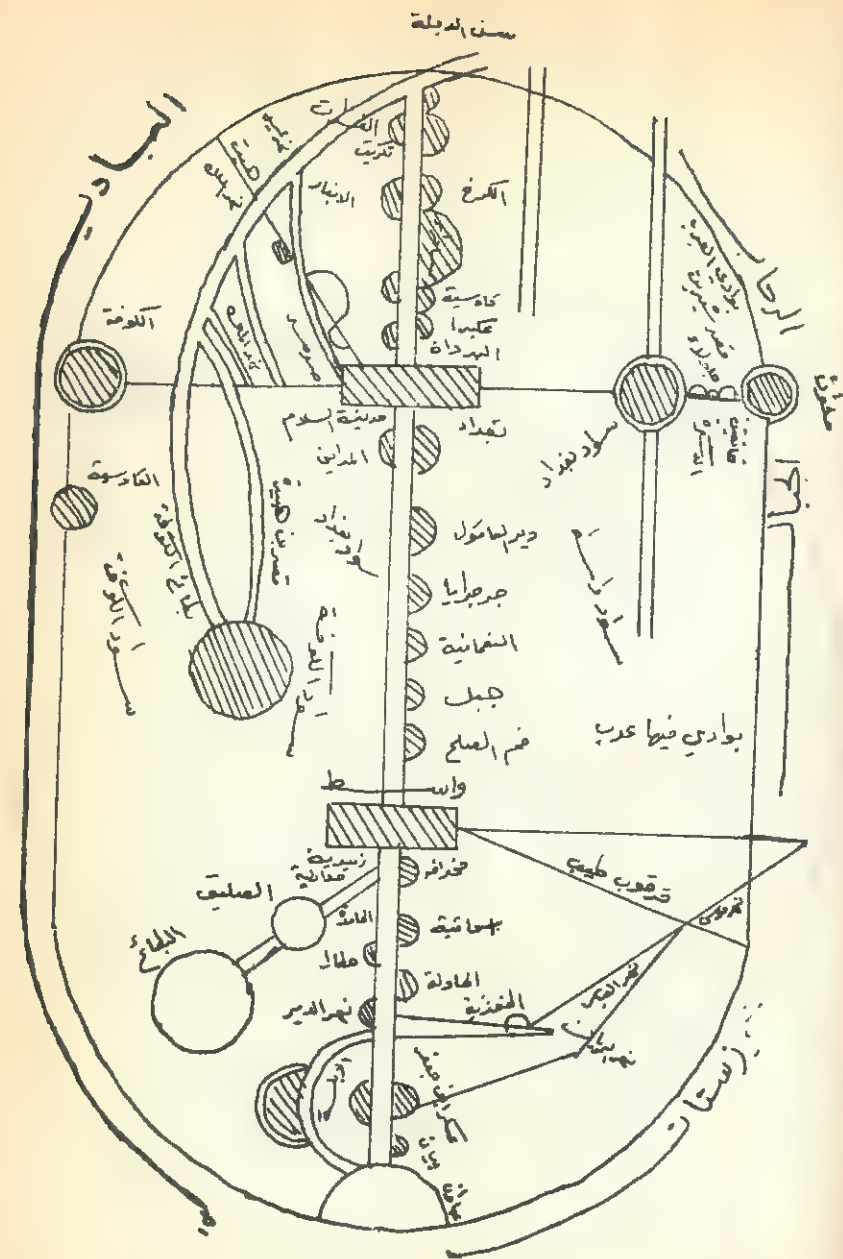
شكل ٩ - صورة مصر لابن حوقل

تطور . وبالرغم من أن الادريسي هذا حذو بطليموس في مواضع كثيرة ، إلا أنه يعتبر مجدداً ومتفوقاً عليه في جوانب عديدة^(٧٥) . ولقد رسم الادريسي خارطتين ، الأولى على كرة من الفضة كتب عليها كل ما كان يعرفه من بلدان مختلفة ، لكن تلك الكرة فقدت . كذلك صنع خريطة على شكل مستطيل من الفضة تبلغ أبعاده 14×10 أقدام ووزنه أربعماية رطل رومي ، وهي تكاد تكون أكبر الخرائط في العالم . وقد ذكر الادريسي أنها تضمنت صور الأقاليم ببلادها وأقطارها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها والطرق والأميال والمسافات والشواهد^(٧٦) .

وقد قسم الادريسي خارطة العالم إلى سبعين قسماً ، باعتبار أن أقاليم الأرض المأهولة هي سبعة أقاليم ، وأن كل إقليم من تلك الأقاليم مقسم إلى عشرة أجزاء متساوية ابتداء من الطرف الغربي للأرض حتى الطرف الشرقي لها ، وأن مجموع هذه الخرائط السبعين المنفردة تكون خارطة العالم . ويمكن القول عموماً بأن الجزء الآسيوي من خارطة الادريسي غني بالمعلومات ، كما أنها صورت بحر الخزر وأورال بصورة صحيحة . ويكشف شكل قارة إفريقيا فيها عن تأثير بطليموس ، بالرغم من أن الساحل الإفريقي لم يرتبط بالساحل الصيني كما هو الحال في خريطة بطليموس^(٧٧) . وقد استخدم الادريسي الألوان في خرائطه ، فاستعمل اللون الأزرق للبحار والآنخضر للأنهار ، واللون الأحمر والبنّي والأرجواني للجبال ، كما رسم المدن على شكل دوائر مذهبة . وقد سبق أن لاحظنا بأن استخدام الألوان في الخرائط كان أمراً مألوفاً كما أشار المقدسي .

أما أبو الفدا فقد خلا كتابه (تقويم البلدان) من الخرائط بالرغم من أنه كان مطلعاً على ما يبدو على خرائط الرواد الإقليميين وربما خرائط الادريسي أيضاً . ومن الجدير بالذكر أن الخرائط التي أشرنا إليها أعلاه والتي وردت في المؤلفات المذكورة لا تمثل حصيلة الكارتوغرافيا العربية ، فهناك خرائط عديدة أخرى نالت شهرة واسعة ، لعل أشهرها خارطة المسعودي للأرض ، وكذلك خرائط البيروني والبتاني والجيّهاني وعبد الرحمن الصوفي ، وقد رسم البعض منها بناء على ما أورده هؤلاء المؤلفون من معلومات .

(٧٥) الدوميلي ، ص ٣٩٣ .
(٧٦) علم الخرائط - الدكتور محمد صبحي عبد الكريم وماهر الليثي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٣ - ٢٥ .
(٧٧) Erwin Raiz, General Cartography, New York, 1948, P. 17.



شكل ١٠ - صورة العراق للمقدسي

رابعاً - الالتزام بالمعلومات الجغرافية :

لعل أهم ما يميز كتابات الجغرافيين الاقليميين الاوائل الالتزام بالمعلومات الجغرافية والاقتصاد في المعلومات الاخرى ولا سيما المعلومات التاريخية . ومن المعلوم ان الجغرافيا والتاريخ اقترنتا منذ البداية في كتابات الجغرافيين القدماء ، بدءاً بالكتاب الاغريق ثم الرومانيين ثم العرب والمسلمين . فهيرودوت وهيكاتيوس مثلاً وهما من أكبر وأقدم الجغرافيين الاغريق ، هما مؤرخان أساساً . كذلك حال بوليبيوس . وعلى أية حال فان هذا الاقتران بين الجغرافيا والتاريخ أمر غير بعيد عن الصواب كما انه ليس بمستغرب ، وقد ظل هذا الاتجاه مقبولا حتى لدى أساطين الجغرافيا الحديثة . فكارل ريتير RITTER مثلاً بدأ استاذاً للتاريخ وانتهى جغرافياً ، كما أن فيدال دي لابلانك VEDAL De La BLACHE بدأ دارساً للتاريخ وانتهى استاذاً للجغرافية . وهناك تأكيد دائم من قبل الجغرافيين بأن الجغرافيا لا غنى لها عن التاريخ ، كما أن هناك تأكيداً مستمراً من قبل المؤرخين بأن التاريخ لا يمكن أن يستغني عن الجغرافية وقد لخص هذا الترابط بين الجغرافية والتاريخ بالقول المأثور بأن الجغرافيا تمثل المسرح الذي يلعب الانسان عليه احداثه التاريخية .

غير أن المؤلفات الجغرافية الاسلامية العامة بالغت في التفصيلات التاريخية حتى طغت في كثير من الأحيان على المعلومات الجغرافية . والامثلة على ذلك كثيرة في مؤلفات المسعودي واليعقوبي والحموي والبكري وغيرهم . وقد اتجه الجغرافيون الاقليميون الرواد اتجاهاً مغايراً فعمدوا الى الاقتصاد في المعلومات التاريخية والتأكيد على المعلومات ذات الصلة الجغرافية كاستعراض المعالم الطبيعية والطوبوغرافية ، والاهتمام بمظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، ومناقشة أحوال السكان الاجتماعية والثقافية والدينية ، اضافة الى الاهتمام بالمدن وصفاتها وما يربط بينها من طرق المواصلات . ويمكن القول أن الكتب الاقليمية الرائدة تمثل أفضل تمثيل الاسلوب الجغرافي العلمي ، وهي (المسالك والممالك) للاصطخري و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم) للمقدسي ، اضافة الى (نزهة المشتاق) للادريسي و (تقويم البلدان) لابي الفدا . وهذا لا يعني بالطبع الغض من أهمية الكتب الجغرافية الاخرى ، لا سيما مؤلفات اليعقوبي والمسعودي والبكري والبيروني وابن سعيّد والحموي ، ولكن تلك الكتب تحتاج الى غربلة للظفر منها بالمعلومات المطلوبة . أما بالنسبة للمؤلفات المذكورة فانها غنية بالمعلومات الجغرافية ولا حاجة لغربلتها . ويمكن اعتبارها مثلاً يحتذى في الكتابة الجغرافية الوصفية والاقليمية . وبطبيعة الحال فانها



شكل ١١ - خارطة الادريسي (عن أحمد سوسة)

تفاوتت في مدى التزامها بالمنهج الجغرافي الصحيح ، فكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري ، كان ما يزال يتعثر في منهجه الجغرافي ، بينما حقق كتاب (صورة الارض) لابن حوقل مثلاً أفضل في الكتابة الجغرافية . وجاء كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي أعظم نضجاً وأدق حساً من وجهة النظر الجغرافية . أما (نزهة المشتاق) فيمثل تقدماً عظيماً في الكتابة الجغرافية ، وقد اتفق الباحثون والمستشرقون الغربيون على أن (الادريسي) يمثل قمة ما حققه الجغرافيون العرب والمسلمون في مضممار الكتابة الجغرافية . كذلك يمثل كتاب (تقويم البلدان) لابي الفدا خلاصة جغرافية ناجحة لما توصل اليه الجغرافيون السابقون . وسنحاول في الصفحات التالية ان نعرض أمثلة من الكتب المذكورة لتقدم لنا فكرة عما بلغه المنهج الجغرافي الوصفي والاقليمي في الجغرافية العربية على أيدي الكتاب المذكورين . قال الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) متحدثاً عن اقليم (أرض الجزيرة) :

(*) المرحلة ما يقطعه المسافر في يوم واحد .



ومن حران الى الرها يوم . ومن الرها الى سميساط يوم . ومن حران الى الرقة ٣ أيام .

وأما صفة مدنها ويقاعها فان انزه بلد في الجزيرة وأكثرها خضرة بلد نصيبين ، وهي مدينة كبيرة في مستوى من الأرض ، ومخرج مائها من شعب جبل يعرب ببالوسا وهو انزه مكان بها حتى ينبسط في بسايتها ومزارعها . ولهم مع ذلك فيما بعد من المدينة مباحس كثيرة ، وبها دير عظيمة وحواليها أديرة وصوامع للنصارى كثيرة . وبها عقارب قاتلة موصوفة . وبالقرب من نصيبين جبل مارددين ، من الأرض الى ذروته نحو من فرسخين (**) ، وبه قلعة منيعة لا يستطيع فتحها عنوة ، وبه حيات موصوفة تفوق الحيات بسرعة القتل ، وهو جبل به جواهر الزجاج . وأما الموصل فهي مدينة على غربي دجلة صحيحة التربة والهواء ، ليس لهم سوى ماء دجلة للشفة (***) . وليس لهم من دجلة زرع ولا شجر الا الشيء اليسير في عدوة دجلة وشرقيها . وزروعهم مباحس وفواكههم تحمل من سائر النواحي . وهي مدينة عامة ابنتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء . وبلد مدينة صغيرة على غربي دجلة ، وليس بها ماء جار سوى دجلة وشجر وزروع ومباحس كثيرة . وأما سنجار فانها مدينة في وسط برية ديار ربيعة بقرب جبل ينسب الى سنجار وبها نخيل وليس بالجزيرة بلد به نخيل سوى سنجار ، الا ان عيون على الفرات وبهيت والأنبار وتل أعفر . وأما دارا فهي مدينة صغيرة نزهة تشتمل على مياه جارية وأشجار وزروع ولها مباحس وهي في سفح جبل . وكفر توثا في مستوى من الأرض وهي مدينة أكبر من دارا ذات نهر وشجر وزروع وبها مباحس كثيرة . ورأس عين مدينة على مستوى وارضاها الغالب عليها القطن ، ويخرج منها زيادة على ثلاثمائة عين كلها صافية تحكي ما تحتها على قامات فتجتمع مياهها حتى يصير منها نهر الخابور الذي يقع الى قرقيسيا ، ومسافة هذا النهر نحو عشرين فرسخا قرى ومزارع . ورأس عين مدينة أكبر من كفر توثا ولهم زروع وأشجار مستقلة عن البنيان على ستن هذه المياه وهي خصبة كثيرة المباحس . وأما آمد فهي على دجلة من شرقيها وسورها في غاية الحصانة ، وهي كثيرة الشجر والزروع . وأما جزيرة ابن عمر فهي مدينة صغيرة على غربي دجلة لها أشجار ومياه . وشمشاط هي ثغر الجزيرة لانها في غربي دجلة وشرقي الفرات . الخ (٧٨) .

(**) الفرسخ يساوي ٣ أميال أو حوالي ٦ كيلومترات .

(***) للشرب .

(٧٨) المسالك والممالك ، للاصطخري ، ص ٥٢ - ٥٣ .

وقال ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض) متحدثاً عن اقليم الديلم وطبرستان : « وطبرستان فأكبر مدنها أمل وهي مستقر ولائها في هذا العصر ، وكانوا في قديم الزمان يسكنون ساريه . وطبرستان بلد كثير المياه والثمار والأشجار الجليلة العظيمة والغالب عليها الغياض وكثرة الأشجار ، وأكثر أبنتها الخشب والقصب . وهو اقليم كثير الامطار وربما اتصل المطر سنة جرداء فلا يرون فيها الشمس ، وسطوحهم مسنة بالقراميد . وأمل أكبر من قزوين وهي مشتبكة البناء والعمارة وما أعلم على قدرها أعمر منها في نواحيها . ويرتفع بجميع طبرستان الايريسم ويحمل منه الى جميع الآفاق ، وليس بسائر الأرض في ملك الاسلام والكفر ناحية تقارب طبرستان في كثرة الايريسم . وبها من الخشب الخلنج والكرم الملون المجزع خشبة بسواد وحمرة والشمشار والشومط ما ليس بمكان مثله . الغالب على أهل طبرستان وفور الشعر واقتران الحواجب وسرعة الكلام والعجلة والطيش ، وعلى طعامهم خبز الارز والسكك والثوم ، وكذلك الديلم والجيل . ويرتفع من طبرستان اصناف من الثياب الايريسم والاكسية الصوف الثمينة والبركانات العجيبة ، وليس بجميع الأرض أكسية تبلغ قيمة اكسياتهم وبركاناتهم ومطارفهم ، واذا كانت بالذهب فهي كما بفارس أو أزيد بقليل . وليس بجميع طبرستان نهر تجري فيه سفينة ، غير أن البحر منهم قريب على أقل من يوم . ويعمل بطبرستان مناديل قطن وشرابيات ودساتك ساذجة ومذهبة ، وليس لذهبها نظير . هذا الى بقاء معروف في ثيابهم القطنية . وأكثر قطنهم يضاهي قطن صعدة وصنعاء وفيه صفرة يعمل منه جوهر حسن ويستحسنه أهل العراق . وجميع طبرستان يغلب عليها المياه والغياض والشجر الا ما كان في المواضع المستعالية في الجبال ففيها قلة رطوبة ويس ، وبطن طبرستان سقيع نقيع يغلب عليها النزور ونجل الأرض » (٧٩) .

وقال المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) متحدثاً عن اقليم الشام : « . . وقد قسمنا هذا الاقليم ست كور أولها من قبل آقور قنسرين ثم حص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة . . فأما قنسرين فقصبته حلب ومن مدنها انطاكية بالس السورية سميساط منبج بياس التينات قنسرين مرعش اسكندرونة لجون رفية جوسية حماة شيزر وادي بطنان معرة النعمان معرة قنسرين . وأما حص فاسم القصبة أيضاً ومن مدنها سلمية بانياس حصن الخرابي تدمر الخناصره كفر طاب اللاذقية جبلة أنطرسوس . وأما دمشق فاسم القصبة أيضاً ، ومدنها بانياس صيدا بيروت

(٧٩) صورة الأرض - لابن حوقل ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

وطرابلس عرفة وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجوش الزبداني. ولد دمشق ست رساتيق الغوطة حوران البثية الجولان البقاع الحولة . وأما الاردن فقصبها طبرية ومن مدنها قدس صور عكا اللجون كابل بيسان اذرعات . وأما فلسطين فقصبها الرملة ومدنها بيت المقدس بيت جبريل غزة ميماس عسقلان يافته ارسوف قيسارية نابلس أريحا عمان . وأما الشراة فجعلنا قصبها صغر ومدنها مآب معان تيبك اذرج ويلة مدين . وفي هذا الاقليم مدن اجل واكبر من اكثر من مدن الجزيرة مثل داريا وبيت ليا وكفر سلام وكفر سابا غير انها على رسوم القرى معدودة فيها . وقد قلنا ان عملنا موضوع على التعارف . وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي أهلها ظرف ولهم يسار وعقول ، مبني بالحجارة عامر ، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان ، والجامع في البلد ، شربهم من نهر قويق . والقصبة ليست بكبيرة الا ان بها مستقر السلطان لها سبعة أبواب ، باب حصن باب الرقة باب قنشرين باب اليهود باب العراق باب دار البطيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود . الخ « (٨٠) » .

وقال في موضع آخر يصف مناخ الاقليم : « هو اقليم متوسط الهواء الا وسطه من الشراة الى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل . . . وأشد هذا الاقليم بردا بعلبك وما حولها . . . وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلما علا منه نحو الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً وأبرد هواء ، وما سفلى منه فانه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلاً وليس فيه نهر يسافر فيه » « (٨١) » .

وقال متحدثاً عن تجارة الاقليم : « والتجارات به مفيدة ، يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط . ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العيون والدوري غاية وقضم قریش الذي لا نظير له والمرايا وقدر القناديل والأبر . ومن اريحا نيل غاية ومن صفر ويسان النيل والتمور ، ومن عمان الحبوب والخرقان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد ، ومن مآب قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المعصور والعيسي وديباج ودهن بنفسج . . الخ » « (٨٢) » .

(٨٠) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٨١) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

وقال متحدثاً عن معادن الاقليم : « وبه معادن حديد في جبال بيروت ، وفي حلب مغرة جيدة وبعمان دونها . وبه جبال حمر يسمى ترابها السمقة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض السقوف ويطين به السطوح . وفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام بيت جبريل . وبالاغوار معادن كبريت وغيره ، ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منشور . . الخ » « (٨٣) » .

وقال متحدثاً عن مياه الاقليم : « وفيه عدة من الانهار تغلب في بحر الروم الا بردي فانه يشق أسفل قصبة دمشق فيسقي الكورة ، وقد شق منه شعب يتدور في أعلى القصبة ثم ينقسم قسمين من خلف بانياس فيتبحر بازاء قدس ، ثم ينحدر الى طبرية ويشق البحيرة ، ثم ينحدر في الاغوار الى البحيرة المقلوبة وهي مالحة جداً وحشة مقلوبة متنة ، فيها جبال وليس فيها أمواج كثيرة . وبحر الروم يمد على طرفه الغربي وبحر الصين يمس طرفه الجنوبي ، وبازاء صور تقع جزيرة قبرص يقال انها اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة . . الخ » « (٨٤) » .

وقال متحدثاً عن سطح الاقليم : « ووضع هذا الاقليم ظريف هو أربعة صفوف ، فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة تمتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثاني الجبل مشجر ذوقري وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغد وأريحا ويسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وبعمان واذرعات ودمشق وحصن وتدمر وحلب . وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام في الصف الثاني وسرة الارض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل . . الخ » « (٨٥) » .

وقال الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) متحدثاً عن الأندلس : « فلنرجع الآن الى ذكر الاندلس ، ووصف بلادها وذكر طرقاتها وموضوع

(٨٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٨٥) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

جهااتها ومقتضى حالاتها وميادي اوديتها ومواقعها من البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ونأتي من ذلك بما يجب بعون الله فنقول : أما الاندلس في ذاتها فشكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث فجنوبها يحيط به البحر الشامي وغربها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر الانقليشين من الروم . والاندرلس طولها من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم الى الجبل المسمى بيهكل الزهرة الف ومائة ميل ، وعرضها من كنيسة شنت ياقوب التي على أنف بحر الانقليشين الى مدينة المرية على بحر الشام ست مائة ميل . وجزيرة الاندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات وفي جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة . . وما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهة الجنوب يسمى اشبانيا ، وما خلف الجبل في جهة الشمال يقال عشتالة . والاندرلس المسمى اشبانيا اقليم عدة ورساتيق جملة ، وفي كل اقليم منها عدة مدن نريد ان نأتي بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى . . . (وصف المرية) ومن اراد من مرسية الى المرية سار من مرسية الى مدينة لورقة وهي مدينة غراء حصينة على ظهر جبل ، ولها اسواق وربض في أسفل المدينة ، وعلى الربض سور وفيه السوق والزهادرة وسوق العطر ، وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الأقطار . ومن لورقة الى مرسية اربعون ميلا . ثم من لورقة الى آبار الرتبة الى حصن بيرة مرحلة ، وهو حصن منع على حافة مطلة على البحر . ومن هذا الحصن الى عقبة شقر وهي عقبة صعبة المرقى لا يقدر احد على جوازها راكباً وانما يأخذها الركبان رجالة . ومن العقبة الى الرابطة مرحلة ، وليس هناك حصن ولا قرية وانما بها قصر فيه قوم حراس للطريق . ومن هذه الرابطة الى المرية مرحلة خفيفة .

ومدينة المرية كانت في أيام المثلث مدينة الاسلام وكان بها من الصناعات كل غربية . وذلك انه كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكلفة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير . وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات ما لا يحصى ولا يكيف ، وكان بها من فواكه وادبها الشيء الكثير الرخيص . . وهذا الوادي المنسوب الى بجانة بينه وبين المرية أربعة أميال وحوله جنات وبساتين وأرجاء ، وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية . وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندرلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً . والمرية في ذاتها جبالان وبينهما خندق معمور . وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة .

والجبل الثاني منها فيه ربضها ويسمى جبل لاهم ، والسور يحيط بالمدينة وبالربض ولها أبواب عدة . ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الخوض وله سور عامر بالاسواق والديار والفنادق والحمامات . والمدينة في ذاتها كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون . وكان أهلها مياسير ولم يكن في بلاد الاندرلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع منهم أحوالا ، وعدد فنادقها التي أخذها عدا الديوان في ألف فندق الا فندقاً . وكان بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة وأحجار صلبة مضرسة لا تراب بها كأنها غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر . الخ « (٨٦) » .

وقال ابو القدا متحدثاً عن (الجزائر بالبحار الغربية) : « . . والمذكور هنا هو جزائر البحر المحيط الغربي وجزائر بحر الروم خاصة . وأما جزائر بحر فارس وبحر الهند فسنذكرها ان شاء الله تعالى في موضع آخر مفرد لها . فمن جزائر البحر المحيط الغربي جزائر الخالدات وهي جزائر واغلة في البحر عشر درجات عن الساحل وهي عدة جزائر وبطليموس أخذ أطوال المدن منها ، وقد قيل انها انغمرت في البحر وانقطعت اخبارها . قال ابن سعيد وجزائر السعادة فيما بين جزائر الخالدات والساحل ، قال وهي مبددة في الاقليم الاول والثاني والثالث ، قال وهي أربع وعشرون جزيرة والحديث عنها كالخرافات . ومن جزائر البحور المتفرعة عن البحر المحيط الغربي جزيرة برطانية في بحر برديل وهو البحر الخارج في شمالي الاندرلس وليس بهذه الجزيرة ماء الا من الامطار وعلى ذلك يزرعون . وجزائر برطانية احدى عشرة جزيرة . ومن الجزائر المشهورة جزيرة انكلطرة ويقال انكلترة . قال ابن سعيد وصاحب هذه الجزيرة يسمى الإنكسار في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا وقاعدته في هذه الجزيرة مدينة لندرس . قال وطول هذه الجزيرة من الجنوب الى الشمال بانحراف قليل اربعمائة وثلاثون ميلا واتساعها في الوسط نحو مائتي ميل . قال وفي هذه الجزيرة معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير وليس فيها كروم لشدة الجمد . وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن الى بلاد افرنسة ويتعوضون به الخمر فصاحب افرنسة انما كثر الذهب والفضة عنده من ذلك . وعندهم يصنع الاشكرلاط العال من صوف غنمهم الذي هو ناعم كالحرير فيجعلون عليها جلالات تقيها من الامطار والشمس والغبار . ومع غناء الإنكسار وسعة مملكته فانه يقر بالسلطنة للفرنسيين . واذا كان مجتمع حفل خدمه بأن يحيط قدامه

الفصل الثالث

في الجغرافية الطبيعية

لقد أوضحنا بأن طبيعة الجغرافية العربية أساساً هي جغرافية وصفية ، غير أن تركيزها على الجوانب الوصفية في الحقيقة لم يصرفها عن التعرض للجوانب النظرية . والواقع أن أي مؤلف من مؤلفات الجغرافية العربية المعروفة لا يخلو من أبحاث في الجغرافية الطبيعية مفصلة أحياناً وموجزة أحياناً أخرى . لذلك فإن تميز الجغرافية العربية بالناحية الوصفية لا يقلل من أهمية الأبحاث الطبيعية فيها .

ولا بد لنا من الإشارة قبل البدء باستعراض الجوانب الطبيعية الى ان الجغرافيين المسلمين تأثروا تأثراً واضحاً في هذا الميدان بالآراء اليونانية . وكانت ترد في كتاباتهم أسماء بعض الكتاب اليونانيين والرومانيين لدى مناقشة مختلف جوانب الجغرافية الطبيعية من أمثال ارسطوطاليس (ارسطو) وابرخس (هيبارخس) واصطرابون (سترابو) وبطليموس القلوزي (بطليموس الاسكندري) وغيرهم . وسنحاول في الصفحات التالية أن نستعرض معلومات الجغرافيين المسلمين في ثلاثة حقول من ميدان الجغرافية الطبيعية وهي :

أولاً - الحقل المناخي .

ثانياً - الحقل الهيدروغرافي .

ثالثاً - الحقل الجيومورفولوجي .

زيدية طعام عادة متوارثة . وفي شمالي جزيرة انكلترا وبعض شمالي بريطانية جزيرة ايرلندا ، ومسافة طولها نحو اثني عشر يوماً وعرضها الوسط نحو أربعة أيام وهي مشهورة بكثرة الفتن . وكان أهلها مجوساً ثم تنصروا اتباعاً لجيرانهم . ويجلب منها النحاس والقصدير الكثير . وبالقرب من هذه الجزاير جزيرة السناقر . قال وطول السناقر سبعة أيام شرقاً وغرباً وعرضها أربعة أيام . ومنها الجزاير التي شماليها تجلب السناقر البيض التي تحمل من هنالك الى سلطان مصر ، ورسم الخارج منها في خزائنه ألف دينار ، وإن أتوا به ميتاً دفع لهم خمسمائة دينار . وعندهم الدب الأبيض يدخل في البحر ويسبح ويصيد السمك فيخطف ما فضل أو ما غفل عنه هذه السناقر ومن ذلك عيشها إذ لا طائر هناك من شدة الجمد ، وجلود هذه الدبة ناعمة . جزائر البحر المحيط بجزيرة تولى وهي في البحر المحيط الشمالي وهي على نهاية المعمور في الشمال . الخ « (٨٧) .

تلك أمثلة من الكتب الاقليمية الرئيسية يتجلى فيها الالتزام بالمعلومات الجغرافية والاقتصاد في المعلومات الأخرى ، وهو المنهج العام الذي اتبعته الكتب المذكورة . وإذا لم تكن الكتب الجغرافية الوصفية والاقليمية الأخرى التي لم نشر اليها ضمن هذه المجموعة قد اتبعت نفس هذا المنهج فهذا لا يعني ان معلوماتها الجغرافية اقل قيمة ، بل ان البعض منها ربما يتفوق في بعض أجزائه بأهمية معلوماته ، مثل كتابات البيروني والسعودي وغيرهما . ومن هذا الاستعراض يتضح لنا أهمية الكتابات الجغرافية الوصفية وما أسهمت به في اغناء الفكر الجغرافي القديم .

الحقل المناخي

تعتمد الأبحاث المناخية في الجغرافية العربية اعتماداً كبيراً على آراء المدرسة اليونانية . وقد آمن الجغرافيون العرب والمسلمون بالمبادئ الرئيسية التي أرساها الاغريق والرومان في علم المناخ . فقد اعتبروا الشمس المصدر الأساسي للحرارة على الأرض ، كما اعتقدوا بأن أسباب اختلاف درجة الحرارة في جهات الأرض المختلفة هو ميل الشمس على خط الاستواء ، أو بعبارة أوضح اختلاف زوايا سقوط أشعة الشمس على الأرض . وقد أخذوا بالتقسيم اليوناني للمناطق الحرارية على الأرض وهي المنطقة الحارة التي تقع بين المدارين ، والمنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية اللتان تقعان بجوار القطبين ، والمنطقتان المعتدلتان اللتان تقعان بين المنطقة الحارة والمنطقتين المتجمدتين . كذلك أخذوا بالتقسيم اليوناني لخطوط العرض المحددة لدرجة الحرارة فاعتبروها ١٨٠ خطاً ، ٩٠ خطاً منها يقع الى شمال خط الاستواء و ٩٠ خطاً الى جنوبه . واعتبروا أيضاً القطبين يقعان في درجتى ٩٠ شمالاً وجنوباً ، ومدار السرطان في درجة ٢٣٥ شمالاً ومدار الجدي في درجة ٢٣٥ جنوباً .

أما ما يتعلق بالتفصيلات المناخية فلم تكن كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية تعنى بالبحث فيها في البداية . غير ان تلك التفصيلات ما لبثت أن أخذت تتسرب تدريجياً الى كتب الجغرافية العربية ضمن المعلومات الوصفية الأخرى للمدن والأصصار . ومن أوائل الكتب الجغرافية التي تضمنت مثل تلك الاشارات المناخية (كتاب البلدان) للياقوت . ولم يتضمن الكتاب في الواقع سوى اشارات مناخية ضئيلة القيمة عن بعض المدن الكبرى كبغداد وسامراء . ومثال ذلك ما ذكره عن مدينة بغداد حيث قال : « وهي تقع في وسط الدنيا لانها على ما أجمع عليه قول الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون الحر بها شديداً في أيام الصيف ويعتدل الفصلان الخريف

والربيع في أوقاتها ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الى الصيف غير متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الى هواء ومن زمان الى زمان . فلذلك اعتدل الهواء وطاب الشرى وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات » (١) .

أما ابن خرداذبة فلم يتضمن كتابه (المسالك والممالك) أية اشارات مناخية . لكنه ذكر في باب عجائب الارض أن في بلاد الروم على بحر الخزر بلاداً تدعى المستطلة المطر بها دائم الشتاء والصيف بحيث لا يقدر أهلها على دياس زروعهم وتذريتها . كما ذكر أيضاً أن أهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء . فمطر صنعاء وما والاها حزينان وتموز وآب وبعض أيلول من الزوال الى المغرب » (٢) .

ويمكن القول أن المقدسي البشاري كان من أكثر الجغرافيين العرب الاوائل عناية بالتفصيلات المناخية . ففي كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) أكد تأكيداً خاصاً على الصفات المناخية لكل اقليم . وكانت تفصيلاته المناخية ذات صفة وصفية وليست تحليلية . ومثال ذلك وصفه لمناخ اقليم العراق اذ قال : « هواء هذا الاقليم مختلف . ببغداد وواسط وما دخل في هذا الصقع رقيق الهواء سريع الانقلاب ، والكوفة بخلافه . ويكون بالبصرة حر عظيم غير أن الشمال ربما هبت فطاب . ورأيتهم أن كانت جنوب في ضيق صدر وربما نزل عليهم شبه الدبس في الليل ، أما حلوان فمعتدلة الهواء » (٣) .

وتقتضي دراسة الأبحاث المناخية في كتب الجغرافية العربية وقفة خاصة عند المسعودي والبيروني وإخوان الصفا وابن خلدون نظراً لمساهمتهم القيمة في هذا الميدان . وقد بحث المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف) جوانب متعددة في حقل الجغرافية المناخية وثبت حقائق هامة في هذا الموضوع . ومما لا ريب فيه أن آراءه كانت متأثرة بآراء الكتاب اليونانيين ، ولا سيما بآراء ارسطو وبطليموس . ويعتبر المسعودي اول جغرافي عربي ناقش العوامل المؤثرة في مناخ الاقليم كما تناقش في كتب الجغرافية

- (١) (كتاب البلدان) لاهد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ، منشورات مكتبة المثلث لقاسم الرجب (في مجلد واحد مع الاعلاق النفيسة) ، ص ٣٣٤ .
(٢) (المسالك والممالك) لابي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة ، منشورات مكتبة المثلث ، ص ١٥٦ .
(٣) (أحسن التقاسيم) للمقدسي ، ص ٩٥ .

الحديثة . وقد شرح تلك العوامل على النحو التالي : « وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها في الابدان لثلاثة اسباب ، كمية الهواء التي فيها وكمية الاشجار ، وكذلك مقدار ارتفاعها وانخفاضها . فالارض التي فيها مياه كثيرة ترطب الابدان ، والارض العادية للمياه تجففها . وأما اختلاف كونها من قبل الاشجار فان الارض كثيرة الاشجار تقوم الاشجار التي فيها مقام السترة . والارض المكشوفة من الاشجار العادمة لها حالها عكس حال الارض كثيرة الاشجار . وأما اختلاف قواها من قبل مقدار علوها وانخفاضها فلأن الارض العالية المشرفة فسيحة باردة ، والارض الفسيحة المنخفضة العميقة حارة ومدة .

ومنهم من رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة ، أولها النواحي والثاني الارتفاع والانخفاض والثالث مجاورة الجبال والبحار لها والرابع طبيعة تربة الارض . وذلك ان ارتفاعها يجعلها ابرد وانخفاضها يجعلها اسخن على ما قدمنا . وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال فمضى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وانما تهب فيه الشمالية فقط . وأما اختلافها لمجاورة البحر لها فمضى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد اسخن وارطب ، وإن كان البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد ابرد وأيس . وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمضى كانت تربة الارض صخرية جعلت ذلك البلد ابرد وأجف ، وإن كانت تربة البلد جصية جعلته أسخن وأجف ، وإن كانت طينية جعلته أبرد وأرطب » (٤) .

أما توزيعاته للرياح السائدة فهي مقارنة للتوزيع العام الحديث لتلك الرياح بين تجارية شرقية وعكسية غربية وشمالية أو جنوبية قطبية ، كما ان تحديده لصفات مقارب للتحديد الحديث أيضاً من رطوبة أو جفاف أو برودة أو دفء . وقد شرحها في كتابه (التنبيه والاشراف) على النحو التالي :

« تنازع الناس في الرياح الاربع ومهابها وطباعها . فقال فريق منهم الرياح اربع ، شمال وجنوب وصبا ودبور . الصبا من الشرق والدبور من المغرب والشمال من تحت جدي الفرقددين والدبور من تحت جدي سهيل . فالشمال باردة يابسة ، وهي ما هب من ناحية الجربي وهو الشمال ، وأشكالها من البروج والكواكب والامهات وما

(٤) (التنبيه والاشراف) لابي الحسن علي بن الحسين الملقب بالسعودي ، منشورات مكتبة المثنى لقاسم الرجب ، ص ٢٦ .

يشاكل ذلك ، ويضاف الى البرد واليبس . والجنوب حارة رطبة وهي التي تهب من القبلة وأشكالها كما وصفت مما يضاف الى الحرارة والرطوبة . والدبور باردة رطبة وهي التي تهب من المغرب وكذلك أشكالها . والصبا حارة يابسة وهي التي تهب من المشرق وأشكالها لما هو مضاف الى الحرارة واليبوسة . والرياح محدودة بحسب الأفاق ، تكون الأفاق اثني عشر افقا والرياح كذلك . فالشمال بالحقيقة هي التي تأتي من القطب الظاهر والجنوب من القطب الخفي . والصبا من مشرق الاعتدال والدبور من مغرب الاعتدال » (٥) .

وقد ناقش المسعودي أيضاً أثر انتقال الشمس الظاهري بين مداري السرطان والجدي على توزيع الرياح واختلافها باختلاف الفصول الاربعة ، وسجل آراء قريبة من الآراء الحديثة (٦) .

أما آراؤه حول المناطق غير المسكونة من المعمورة فقد ردد فيها ما ذكره من سبقه من الكتاب ، فقد أوضح أن تلك المناطق تقسم الى قسمين : « أما أن يفرض فيها البرد لبعث الشمس عنها أو يفرض فيها الحر لقربها منها ، فلا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات . فالوضع الذي يكون بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستين درجة لا يمكن ان يكون فيه نشوء لافراط البرد فيه لبعث الشمس عنه . والموضع الذي بعده في الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لافراط الحر عليه لقرب الشمس منه » (٧) .

وعالج المسعودي أيضاً أثر المناخ في الصفات البيولوجية والخلقية للانسان ، وما قال في ذلك : « وأما أهل الربيع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجة ومن جاورهم من الأمم فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت اجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت اخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض الى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضاً فلم تخرج من طبع ألوانهم وسببت شعورهم وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهبهم

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة . ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد الى الشمال . وكذلك من كان من الترك واغلا في الشمال ، فليعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها كشرت الثلوج فيهم وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم فاسترخت أجسامهم وغلظت ولانت فقارات ظهورهم وخرز اعناقهم حتى تلقى لهم الرمي بالنشأ في كثرهم وفرهم وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم فاستدارت وجوههم وصفرت أعينهم لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكنت البرودة من أجسادهم ، اذ كان المزاج البارد يولد دماً كثيراً واحمرت ألوانهم اذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة واطهارها . وأما من كان خارجاً عن هذا العرض الى نيف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج وهم في الاقليم السادس فانهم في عداد البهائم . وأما أهل الريح الجنوبي كالزنج وسائر الاحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامته الشمس فانهم خلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وافراط الارحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم وتفلقت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس ، وكذلك الشعور السبطة اذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها ^(٨) .

وناقش اخوان الصفا في رسالتهم الثانية من (الجسمانيات الطبيعية) جوانب عديدة من الجغرافية المناخية . فقد ذكروا مثلاً بأن الأمطار ما هي الا بخار الماء المتصاعد من البحار بسبب الحرارة ، ويُنوا كيف يحدث الندى والصقيع والظل . وقد وضعوا أهمية الجبال كعامل مناخي حيث ذكروا بأن السحب التي تسوقها الرياح تصطدم بقمم الجبال فتتكاثف وتتساقط مطراً . وهكذا اقتربوا اقترباً كبيراً من التفسيرات الحديثة للظواهر المناخية . ومن أمثلة آرائهم في هذا الموضوع قولهم : « اعلم يا أخي انه اذا ارتفعت البخارات في الهواء وتدافع الهواء الى الجهات ويكون تدافعه الى جهة أكثر من جهة ويكون من قدام له جبال شاذجة مانعة ومن فوق له برد الزمهرير مانع ومن اسفل مادة البخارين متصلة فلا يزال البخاران يكثران ويغلطان في الهواء وتتداخل أجزاء البخارين بعضها في بعض حتى يسخن ويكون منها سحب مؤلف متراكم . وكلما ارتفع السحاب بردت أجزاء البخارين وانضمت أجزاء البخار الرطب بعضها الى بعض وصار ما كان دخاناً يابساً ماء وأنداء ، ثم تلتئم تلك

(٨) التنبيه والإشراف ، لابي الحسن علي المسعودي - منشورات خياط - بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

الاجزاء المائية بعضها الى بعض وتصير قطراً برداً وتثقل فتتهوي راجعة من العلو الى السفلى فتسمى حينئذ مطراً . فان كان صعود ذلك البخار الرطب بالليل والهواء شديد البرد منع أن تصعد البخارات في الهواء بل جمدها اولاً بأول وقربها من وجه الأرض فيصير من ذلك ندى وصقيع وطل . وان ارتفعت تلك البخارات في الهواء قليلاً وعرض لها البرد صارت سحباً رقيقاً . وان كان البرد مفرطاً جمد القطر الصغار في حلق الغيم فكان من ذلك الجليد أو الثلج ^(٩) .

ولا يخلو رأيهم بطبقات الهواء من شبه بالرأي الحديث حول الطبقات الجوية . فقد ذكروا ان طبقات الهواء ثلاث ، أعلاها هي نار سموم في غاية الحرارة تسمى الأثير ، والتي في الوسط باردة في غاية البرودة وتسمى الزمهرير ، والتي تلي سطح الارض معتدلة وهي مختلفة في اعتدال حرارتها وتسمى النسيم . وقد أكدوا على امكانية تداخل هذه الطبقات الهوائية بالرغم من تميز كل منها ^(١٠) . ومن الجدير بالذكر ان علماء الجو المعاصرين لا يبعدون كثيراً في تقسيماتهم لطبقات الهواء عن هذا التقسيم . فهم يقسمون طبقات الغلاف الهوائي الى ثلاث طبقات رئيسية هي : الطبقة الدنيا وهي طبقة (التروبوسفير) وهي ذات حرارة معتدلة تأخذ بالانخفاض كلما ازداد الارتفاع . ثم الطبقة الوسطى وهي طبقة (الستراتوسفير) التي ترتفع درجة الحرارة في قسمها الاسفل (الاوزونوسفير) ، ثم ما تلبث ان تنخفض انخفاضاً كبيراً في قسمها الثاني (الميزوسفير) ، حتى تتحول الى منطقة قارسة البرودة . وأخيراً تأتي الطبقة العليا (الايونوسفير) التي تشتد فيها درجة الحرارة اشتداداً عظيماً . وبطبيعة الحال فان الاتصال بين هذه الطبقات قائم بالنظر لتخلخل الهواء ^(١١) .

وقد أورد (اخوان الصفا) حقائق مناخية هامة أخرى بالاضافة الى الحقائق التي ذكرناها . فقد ذكروا مثلاً أن الهواء المحيط بالارض لا يتلقى حرارته من الشمس مباشرة ، بل يتلقاها من الأشعة التي تنعكس عليه من سطح الارض والمياه . كذلك وضعوا توضيحاً علمياً لأسباب انخفاض درجة الحرارة في القطبين الشمالي والجنوبي وتجمد المياه وهلاك الحيوان والنبات ، حيث عزوها الى ميل أشعة الشمس بدرجة عظيمة وبالتالي انخفاض حرارتها . وأشاروا أيضاً الى استمرار النهار لسته أشهر اثناء

(٩) (رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء) ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٢٨ ، الجزء الثاني ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(١١) الغلاف الهوائي ، للدكتور محمد جمال الدين الفندي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٦٩ - ٧١ .

الصيف ، واستمرار الليل لسته أشهر اثناء الشتاء^(١٢) .

ومن الملاحظات المناخية الهامة الاخرى التي أثارها اخوان الصفاء في رسالتهم الثانية من (الجسمانيات الطبيعية) أثر ميل أشعة الشمس عند سقوطها على الارض في اختلاف درجة الحرارة . وقد فسروا هذا الاختلاف في الحرارة تفسيراً دقيقاً اذ قالوا : « واعلم يا اخي بأن الزوايا التي تحدث من انعكاس اشعاعات الكواكب والشمس من وجه الأرض ثلاثة أنواع : حادة وقائمة ومنفرجة . وهذه الزوايا كلها مسخنة للمياه والارض والهواء محركة لها ، ولكن أشدها اسخناً الزوايا الحادة ثم القائمة ثم المنفرجة . ولما كانت الزوايا المنفرجة بعضها أشد انفراجاً من بعض والحادة بعضها أحد من بعض والزوايا القائمة كلها متساوية احتجنا أن نبين متى تكون الزوايا منفرجة ومتى تكون قائمة ومتى تكون حادة . . الخ »^(١٣) .

ومن بين الكتاب المسلمين الذين أولوا المناخ عناية خاصة في دراساتهم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون . فقد ناقش في « مقدمته » الشهيرة صفات الاقاليم السبعة واستند في آرائه الى فلاسفة اليونان القدماء ، كما استند أيضاً في تقسيماته الاقليمية الى كتاب الشريف الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . وأهم ما ورد في بحثه المناخي شرحه الدقيق لتنقلات الشمس الظاهرية بين مداري السرطان والجدي وما ينجم عن ذلك من ميل لأشعة الشمس عند سقوطها على الارض واختلاف حرارتها من موضع الى آخر ، وقد فسر هذه الظاهرة على النحو التالي :

« ثم ان الشمس عند المسامطة وما يقاربها تبعث الاشعة قائمة وفيها دون المسامطة على زوايا منفرجة وحادة . واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة ، فلهذا يكون الحر عند المسامطة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد ، لان الضوء سبب الحر والتسخين .

ثم إن المسامطة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان ، واذا مالت فغير بعيد . ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي الا ان صعدت الى المسامطة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل انحاء حرارة ويفرط في شدتها . وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربع وعشرين فان الاشعة ملحة على

(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

الافق في ذلك بقريب من الحاحها في خط الاستواء ، وافراط الحر يفعل في الهواء تحفيفاً ويسبب يمنع من التكوين لانه اذا افراط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات ، اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ، ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين وما بعده نزلت الشمس عن المسامطة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلاً قليلاً فيكون التكوين ويزيد على التدريج الى ان يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد »^(١٤) .

وقد أيد ابن خلدون الفكرة القديمة في استحالة استيطان المنطقة الاستوائية لارتفاع درجة حرارتها ، بل انه هاجم رأي الفيلسوف ابن رشد القائل بأن خط الاستواء معتدل وان ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا^(١٥) . وقد زعم ابن خلدون ان استحالة عمران اقليم خط الاستواء لا ترجع الى فساد التكوين فيه بسبب شدة الحر فحسب ، بل الى كون المياه غامرة لجميع اليابسة في جنوبي خط الاستواء أيضاً . وهكذا يتضح بأن ابن رشد كان أعظم معاصريه توفيقاً في هذا الرأي ، ولعله كان أول كاتب اسلامي يرفض رأي بطليموس الذي اعتبره العرب « ابو الجغرافية » والذي نادى بان ما وراء خط الاستواء يباب مقفر تحرقه الشمس الالهة .

واهتم ابن خلدون أيضاً اهتماماً خاصاً في أثر المناخ في البناء الطبيعي والخلقي للبشر ، وما ذكره في أثر المناخ على الصفات الطبيعية للانسان قوله : « وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرها في الهواء . فاهل الاقليم الاول والثاني شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة احدهما من الأخرى ، فتطول المسامطة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيط الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر . ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلها من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط في الشمال ، اذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين او ما يقرب منها ولا ترتفع الى المسامطة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشد البرد عامة الفصول ، فتبيض ألوان اهلها وتنتهي الى الزعورة ، ويتبع ذلك

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٠ - ٥١ .

(١٥) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ .

ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر» (١٦).

وقد شرح ابن خلدون أثر المناخ في طبيعة البشر على النحو التالي : « والمعروف من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع متصفين بالحمق في كل قطر . . ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم واصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم أشد حراً فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً ، وأكثر انبساطاً ، ويحيى الطيش على أثر هذا . وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية . . . توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة» (١٧).

وقد سبق ابن خلدون في إيضاح أثر الحرارة على سكان الاقاليم جغرافي يمت إلى عصر متقدم هو ابن رسته ، فضلاً عن المسعودي الذي أشرنا إلى رأيه ، حيث قال في ذلك : « وقد نجد أيضاً كل المواضع والبلدان تختلف حالاتها وحالات أهلها وما يحدث فيها ، وإنما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها أو بعدها عنها . وبيان ذلك الترتيب فأنهم من أجل بعدهم من مدار الشمس عند صعودها وهبوطها كثرت الثلوج فيهم وغلبت الرطوبة والبرودة على أرضهم ، فاسترخت لذلك أجساد أهلها وغلظت وصارت شعورهم بسيطة وألوانهم بيضا حمرأً وغلب على طباعهم البرد وذلك لبرد أهويتهم ، فإن المزاج البارد يولد لحماً كثيراً . وأما حمرة ألوانهم فإن البرد يجمع الحرارة ويظهرها حتى ترى ويستدل على ذلك بما يرى في القوم الذين لأبدانهم لحم كثير وألوانهم بيض إذا أصابهم البرد احمرت وجوههم وشفاههم وأصابعهم وأرجلهم لأن الحر والدم الذي يكون فيه منتشراً يجمعه البرد . ومن أخلاق أهل هذه الناحية الجفاء وقطيعة الرحم وقلة اليقين . فأما السودان والحيش فأنهم يسكنون في البلاد التي تحاذيها من البروج ما بين مدار الحمل إلى السرطان ، ولأن الشمس في هبوطها وصعودها إذا كانت في تلك البروج وتوسط السماء تكون على سمت رؤوسهم فتسخن أهويتهم وتحرقهم وتكثر الحرارة واليس فيهم ، فلهذه العلة صارت ألوانهم سوداً وشعورهم قططة وأبدانهم يابسة نحيفة وطباعهم حارة ، وكذلك دوابهم وأشجارهم . ومن أخلاق هذه الناحية ، الجفاء والذكاء .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٦١ .

وأما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان إلى الشمال وذلك مثل بابل ونحوه من البلدان فإن الشمس لا تبعد من سمت رؤوسهم ولا تقرب منهم ، ولكن عمرها معتدل عليهم فإن هواءهم حسن في التمزيج ووضعهم معتدل ليس فيه حر شديد ولا برد شديد وألوانهم وأبدانهم وطباعهم معتدلة وعقولهم وأخلاقهم حسنة ، وقد كثرت فيهم العلم والذكاء وتقدمت المعرفة بالاشياء ومحاسن الاخلاق . . الخ» (١٨).

وأخيراً لا بد لنا من الإشارة إلى الملاحظة المناخية البارعة التي أوردها البيروني في دراسته الشهيرة عن الهند في كتابه المعنون (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) . فقد شرح في تلك الدراسة نظام سقوط الامطار في الهند شرحاً قوياً ، وقد بين أثر امتداد سلاسل جبال هيمالايا في غزارة الامطار في بعض الجهات . ويمكن القول ان شرحه لنظام سقوط الامطار الموسمية في الهند - بالرغم من إيجازه - يعتبر من أدق الكتابات المناخية القديمة . قال البيروني :

« وأرض الهند تمطر مطر الحميم في الصيف ويسمونه برشكال ، وكلما كانت البقعة أشد امعاناً في الشمال وغير محجوبة بجبل فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر . وكنت أسمع أهل المولتان يقولون ان برشكال لا يكون لهم . فأما فيما جاوزهم إلى الشمال واقترب من الجبال فيكون ، حتى أن في بهاتل وانديز يكون من عند شهر آذار ويتوالى أربعة أشهر كالقرب المصبوبة . وفي النواحي التي بعدها حول جبال كشمير إلى ثنية جودري وهي فيما بين دنبور وبين برشاو يغزر شهرين ونصفاً أولها شرابن ، ويعدم فيما وراء هذه الثنية وذلك لأن هذه الغيوم ثقيلة قليلة الارتفاع عن وجه الأرض . فإذا بلغت هذه الجبال صدمتها وعصرتها فسالت ولم تتجاوزها . ولأجل هذا تعدمه كشمير . والعادة فيها أن تتوالى الثلوج في شهرين ونصف أولها ماك ، فإذا جاوز نصف جيتير (جيتير) توالى أمطاره أياماً يسيرة فأذابت الثلوج وأظهرت الأرض ، وهذا فيها قلما يخطيء» (١٩).

هذه هي أهم المواضيع التي طرقتها الجغرافية العربية في الحقل المناخي وهي كما يتضح من صلب الدراسات المناخية الحديثة . وقد أورد فيها الكتاب المسلمون حقائق مناخية هامة ما تزال تعتبر عماداً للدراسات الحديثة في هذا الميدان .

(١٨) الاعلاق النفيسة - لابن رسته - ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١٩) Al - Biruni's India, Edited in Arabic Original By Sachau, Leipzig, 1925, P. 103.

الحقل الهيدروغرافي

لقد ناقش الجغرافيون العرب والمسلمون الجوانب المختلفة في حقل الهيدروغرافيا وتوسعوا على نحو الخصوص في ناحيتين هما : أ - جغرافية البحار ، ب - جغرافية الانهار .

أ - جغرافية البحار :

لقد اهتم الجغرافيون العرب والمسلمون اهتماماً عظيماً بجغرافية البحار . وتدين الجغرافية الوسيطة للجغرافيين المسلمين في ثرائها بمعلومات واسعة عن البحار والمحيطات في العالم القديم . وقد فاقت تلك المعلومات ما ورد في كتب الجغرافية اليونانية والرومانية في هذا الموضوع . والواقع ان معلومات الجغرافيين القدماء كانت على درجة عالية من الكفاءة فيما يختص بالبحر المتوسط والبحار المجاورة (بحر الادرياتيك وارخبيل اليونان) ، لكنها كانت ضعيفة عموماً فيما يخص البحار والمحيطات الاخرى . وبالرغم من ان الجغرافيين العرب والمسلمين تأثروا الى حد ما بالنظريات اليونانية في توزيع البحار والمحيطات ، لكنهم كانوا عملياً قلما يلتزمون بها . ومن الممكن ان تتفهم سبب اتساع معلومات الجغرافيين المسلمين عن المحيطات والبحار ، فهذا الأمر يعزى الى اتساع رقعة الممالك الاسلامية ، والى امتداد النشاط التجاري وشموله أقصى أقطار الشرق الأقصى . وان شهرة الملاحين العرب في القرون الوسيطة لا تدانيها شهرة .

ومن أوائل المؤلفات الجغرافية العربية التي عاجلت بتوسيع توزيع البحار والمحيطات كتاب (الاعلاق النفيسة) لابن رسته الحمذاني . فقد ذكر أن البحار المعروفة من المعمورة هي خمسة بحار عظيمة ، أولاهما بحر الهند وفارس والصين ،

وثانيها بحر الروم(*) وافريقيا الشمالية ، وثالثها بحر اوقيانوس(**) الذي هو بحر المغرب ، ورابعها بحر نيطس(***) ، وخامسها بحر طبرستان وجرجان(****) . وقد حدد كل من هذه البحار والمناطق التي تطل عليها ، وذكر طول كل منها وعرضه بالاميال ، ثم عدد ما يخرج من كل منها من خلجان وما تشتمل عليه من جزر . وقد شرح ابن رسته بشيء من التفصيل صفات البحر الأول ، أي بحر فارس والهند والصين ، وأحوال الملاحة فيه في الفصول المختلفة . ومما قال في ذلك « وهذه البحار مختلفة الاحوال . فقد ذكر عدة من المتخبرين من العلماء بحالاتها اشياء نذكرها ، قالوا ان بحر فارس والهند هما في الجملة بحر واحد ، واتصل أحدهما بالآخر الا انها متضادان بحالاتهما لان بحر فارس تكثر أمواجه وتشتد ويصعب مركبه عند لين بحر الهند وتقاذف مياهه واضطراب امواجه وظلمته وصعوبة مركبه . وأول ما تبديء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس وقرب الاستواء الخريفي فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتقاذف ويصعب ظهره الى أن تصير الشمس الى الحوت . وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس . فاذا كان قرب الاستواء الربيعي يتبدى في قلة الامواج ولين وسهولة المركب الى أن تعود الشمس الى السنبلة . وألين ما يكون ظهراً وأسهله مركباً في آخر زمان الربيع وهو عند كون الشمس في الجوزاء . وأما بحر الهند فاذا صارت الشمس في السنبلة تقل ظلمته وتنقص أمواجه ويلين ظهره ويسهل مركبه الى أن تصير الشمس الى الحوت . وألين ما يكون ظهراً عند كون الشمس في القوس الا أن يكون بحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة فأما بحر الهند فانه لا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه «(٢٠) .

« وأما البحر الارمني فان بعده في الشمال من مدار أول السرطان واحد وعشرون جزءاً فتشتد فيه الرياح العواصف وتشتد ظلمته حتى لا يركبه الناس . وأما البحر

(*) البحر المتوسط ، ومن المعروف ان اجزاء البحر المتوسط كانت تتخذ لدى الجغرافيين العرب والمسلمين اساء البلاد التي تطل عليها .

(**) والمراد به هنا المحيط الاطلسي ، ولكنه يستخدم أحياناً من قبل الجغرافيين العرب والمسلمين بمعنى المحيط الذي يطوق جميع الارض اليابسة .

(***) البحر الاسود .

(****) بحر الخزر .

(٢٠) الاعلاق النفيسة ، ص ٨٦ - ٨٧ .

الشامي(*) فانه اذا صارت الشمس أول العقرب الى أن تصير في أول الخوت في هذه الأربعة أشهر لا يستطيع ركوبه وذلك أن الشمس تتباعد عنه وتحدث فيه الرياح العاصفة ، وذلك في ناحية الشمال منه «(٢١)» .

« وقيل ان البحر الذي يركبون فيه من البصرة الى الصين هو بحر واحد وماء واحد متصل الى الصين والهند ، ومنهم من يزعمون انها سبعة ابهر من البصرة الى الصين ويعدونها كذلك » ، ولكل بحر عندهم حد وعلامة ويزعمون ان لكل بحر منها ريحاً أخرى وطعماً آخر ولوناً آخر وأشياء من الحيوانات ليست في غيرها ، وان لكل منها مداً وجزراً الا أن مد بعضها أظهر وأبين ومد بعضها أخفى وأقل «(٢٢)» .

أما ابن الفقيه فيكرر في كتابه (مختصر كتاب البلدان) نفس المعلومات التي أوردها ابن رسته عن توزيع البحار وكأنه ينقل عنه ، لكنه يذكر أن البحار الكبار اربعة هي البحر الكبير الذي ليس في العالم أكبر منه والذي يمتد من الغرب حتى واق الصين ، ثم البحر المغربي الدبوري الرومي(*) وهو من انطاكية الى جزائر السعادة ، ثم البحر الثالث وهو الخراساني الخزري ، والبحر الرابع ما بين رومية وخوارزم ولم يوضع عليها سفينة قط «(٢٣)» .

ولا يكاد الاصطخري يعترف الا ببحرين وهما بحر فارس وبحر الروم . وقد ذكر بان بحر فارس يبدأ ببحر القلزم(**) وينتهي في سواحل الصين ، كما ذكر ان بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق حتى مدخل البحر الاسود . وقد شرح كلا منهما بالتفصيل .

كذلك تبدو اشارات ابن حوقل الى البحار في كتابه (صورة الارض)

(*) البحر المتوسط . ومن المعروف ان اجزاء البحر المتوسط كانت تتخذ لدى الجغرافيين العرب والمسلمين اسماء البلاد التي تطل عليها .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(*) البحر المتوسط .

(٢٣) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمداني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن عام ١٨٨٥ ،

ص ٨ .

(**) البحر الاحمر .

ضعيفة عموماً . فهو لا يكاد يذكر سوى بحر فارس ، ويكرر القول أنه خليج من البحر المحيط في حد الصين وبلد العراق ، وهو بحر يجري على حدود بلدان السند وكرمان الى فارس فينسب من بين سائر الممالك التي عليه الى فارس لانه ليس عليه مملكة أعمر منها «(٢٤)» . ولكنه يشير الى بحر الخزر اشارات قيمة ، وربما كان أول جغرافي يصف هذا البحر وصفاً دقيقاً ، فلقد قال : « ان هذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار التي على وجه الارض بطريق المادة والاختلاط الا ما يدخل اليه من نهر الروس . ولو ان رجلاً طاف بهذا البحر لرجع الى مكانه الذي ابتداء به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع . وهو بحر مالح ولا مد له ولا جزر . مظلم قعره بخلاف بحر القلزم لان قعره طين أجن آسن «(٢٥)» .

ولقد تحدث المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) عن البحار المعروفة بشيء من التفصيل ، وذكر تفرعاتها وخلجاتها والبلدان التي تطل عليها واحوال الملاحة فيها ، الا ان تفصيلاته لم تكن ذات أهمية كبيرة . وقد أعتبر البحار المعروفة ببحرين فقط ، احدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء ويمتد بين بلد الصين وبلد السودان ، وثانيهما يخرج من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والانديلس . وقد اعتبر البحار الاخرى الممتدة في العالم الاسلامي عبارة عن خلجان وتفرعات لهذين البحرين «(٢٦)» .

ولقد سجل اخوان الصفا ملاحظات قيمة في رسالتهم الخامسة من (الجسمانيات الطبيعية) عن هيدرولوجية البحار وعن اتصالها ببعضها وبينوا أسباب حدوث التيارات والأعاصير فيها ، ومما قالوا في ذلك :

« واعلم يا أخي ان هذه البحار التي ذكرنا انها كالمستقعات على وجه الارض وبينها جبال شاذة وهي كالمسنيات لها وهي متصلة ببعضها ببعض أما بخلجان بينها على ظاهر الارض وأما بمنافذ لها وعروق في باطن الارض ، وان في وسط هذه البحار جزائر كثيرة صفراء وكباراً وانهاراً ومنها عامرة بالناس فيها مزارع وقرى ومدن وممالك ، ومنها براري وقفار فيها جبال وأجام تسكنها سباع ووحوش وانعام وأنواع من الحيوانات لا يعلم كثرتها الا الله . وفي وسط تلك الجزائر بحيرات صغار وكبار وانهار وغدران

(٢٤) صورة الأرض ، لابن حوقل ، القسم الثاني ، ص ٢٧٦ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

(٢٦) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٠ - ١٩ .

وأجام . ومنها ما مياهها عذبة ومنها مالحة شديدة الملوحة ومنها دون ذلك مختلفة احوالها وأوصافها

أما علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح في وقت هيجانها الى الجهات الخمس في أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف ، أوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار فهي من أجل أن مياهها اذا حيت في قرارها وسخت لطفقت وتحللت وطلبت مكاناً أوسع مما كانت فيه قبل فيتدافع فيه بعض أجزائها الى الجهات الخمس فوقاً وشرقاً وجنوباً وشمالاً وغرباً للاتساع فيكون في الوقت الواحد على سواحلها رياح مختلفة في جهات مختلفة . وأما علة هيجانها في وقت دون وقت بحسب شكل الفلك ومطارح شعاعته على سطوح تلك البحار من الآفاق والأتاد الاربعة (٢٧) .

ويبرز اسم المسعودي أيضاً كأكثر الجغرافيين العرب والمسلمين اهتماماً بدراسة توزيع البحار والمحيطات ومدى صلاحيتها للملاحة . ففي كتابه (أخبار الزمان) يفصل الكلام على البحر المحيط وما يشتمل عليه من اسماك وحيوان ونبات وجزر . وبالرغم من أن تفصيلاته عن هذا البحر حافلة بالخرافات ، لكنها تشتمل أيضاً على معلومات قيمة . فهو يذكر أن عمق هذا البحر يختلف ، فمنه لا يلحق قعره ولا يدري ، ومنه ما يكون سبعة آلاف باع وأكثر وأقل ، ومنه ما يكون فيه شجر كالمرجان . ويذكر أيضاً أن البحر الأسود الزفتي به وهو شديد التتن ، كما يخرج منه أيضاً بحر الصين الذي يقع أوله من بلاد المغرب ويمتد من بحر فارس الى بلاد الصين ، وهو بحر ضيق فيه مغايص اللؤلؤ ويقال ان فيه اثني عشر ألف جزيرة (٢٨) . ولعل أهم ما ورد في هذا البحث هي المعلومات المتعلقة بجزر البحر المحيط ، فلم يرد لها مثيل في سعتها وشمولها في أي كتاب من كتب الجغرافيين المسلمين . فقد فصل فيها الكلام عن الجزر المتناثرة في خلجان وبحار هذا المحيط ، وعن زراعتها ونباتاتها وحيواناتها ، ومن الممكن التعرف في الوقت الحاضر على الكثير من تلك الجزر (٢٩) . وبالرغم من أن تفصيلاته كانت تشتمل أيضاً على أساطير وخرافات لكنها كانت في بابها قيمة جادة . كذلك تحدث

(٢٧) رسائل اخوان الصفا ، الجزء الثاني ، ص ٨٢ - ٨٣ .
(٢٨) أخبار الزمان ، تصنيف المؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، منشورات دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٤٢ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ - ٧١ .



شكل ١٣ : البحر الشرقي الكبير (عن الدكتور حسين فوزي)

عن الرياح الموسمية في المحيط الهندي ومواعيد هبوبها وأثرها في الملاحة عبر المحيط .

ولقد شرح المسعودي أيضاً في الجزء الاول من موسوعته الضخمة (مروج الذهب) توزيع البحار وظواهرها الهيدروغرافية المختلفة شرحاً مفصلاً^(٣٠) . وقد ذكر انه استوفى الكتابة في موضوع البحار في كتابه الآخر (أخبار الزمان) حيث أورد ما أورده العارفون « من البراهين في مساحة البحار ومقاديرها والمنفعة في ملوحة مائها واتصال بعضها ببعض وانفصالها وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ولأية علة كان الجزر والمد في البحر الحبشي أظهر من دون سائر البحار »^(٣١) . ولكن النسخ المطبوعة لهذا الكتاب لم تتضمن مع الأسف مثل تلك الاشارات . وقد أكد المسعودي على حقيقة هامة تتعلق بمدى اتساع البحار المعروفة يومذاك ، اذ قال : « وجدت نواخذة بحر الصين^(٣٢) والهند والسند والزنج^(٣٣) واليمن والقلزم والحبشة من السيرافين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشي في أغلب الامور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم والمقادير والمساحة وان ذلك لا غاية له . وفي مواضع منه شاهدت أرباب المراكب في البحر الرومي^(٣٤) من البحرية والعمالة يعظمون طول البحر الرومي وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه »^(٣٥) .

وقد سجل لنا البتاني أيضاً معلومات قيمة عن البحار وتوزيعها ومساحتها في كتابه (الزيج الصابي) حيث قال :

« وقدروا بحر الهند وقالوا أن طوله يعد من المغرب الى المشرق من أقصى الحبش الى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمئة ميل ، ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار الى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل . وله خليج بارض الحبش يمد الى ناحية البربر يسمى الخليج البربري^(٣٦) وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض أيلة وهو بحر القلزم طوله ألف وأربعمائة

(٣٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لابي الحسن علي بن الحسين المعروف بالمسعودي ، منشورات المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي ، بغداد ١٩٢٨ ، الجزء الاول ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣٢) ومفردتها (نأخذاه) وهي كلمة فارسية تعني رئيس السفينة أو القبطان .

(٣٣) المراد به (الزنج) سكان زنجبار وساحل افريقيا الشرقي .

(٣٤) البحر المتوط .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٣٦) بحر الصومال .

ميل ، وعرض طريقه الذي يسمى البحر الاخضر مائتا ميل وعرضه في الاصل سبعمائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسي وهو بحر البصر طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه في الاصل خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة وخمسون ميلاً . ويكون بين هذين الخليجين اعني خليج أيلة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون ما بين هذين الخليجين ألف وخمسمائة ميل . ويخرج منه أيضاً خليج آخر الى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الاخضر^(٣٧) طوله ألف وخمسمائة ميل . وفي هذا البحر كله اعني بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وثلاثمئة وسبعون جزيرة . . .

وأما بحر الروم ومصر فانه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر اوقيانوس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الاندلس الى صور وصيدا من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل ، وفي مكان سبعمائة ميل وفي مكان ثمانمائة ميل ، وفيه خليج واحد يخرج الى ناحية الشمال قريباً من رومية طوله خمسمائة ميل يسمى أذريس^(٣٨) وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونه طوله مائتا ميل . وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنان وستون جزيرة عامرة .

وبحر بنطس^(٣٩) يمد من لاذقة الى القسطنطينية العظمى طوله ألف وستون ميلاً وعرضه ثلثمائة ميل يدخل فيه النهر الذي يسمى طنائس^(٤٠) ويجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايطس^(٤١) وهو بحر ضخم وان كان يسمى بحيرة طوله من المشرق الى المغرب ثلثمائة ميل وعرضه مائة ميل . وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجري كانه نهر ويصب في بحر مصر ، وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه .

وبحر جرجان وهو بحر الباب^(٤٢) طوله من المغرب الى المشرق ثمان مائة ميل وعرضه ستمائة ميل . . وهذه المواضع العامرة من موضع بحر الارض المعروف والله بذلك أعلم^(٤٣) .

(٣٧) المقصود به هنا البحر الممتد جنوب افريقيا متصلاً بالمحيط الهندي .

(٣٨) بحر الاورياتيك .

(٣٩) البحر الاسود .

(٤٠) نهر الدون .

(٤١) بحر آزوف .

(٤٢) بحر الخزر .

(٤٣) كتاب الزيج الصابي - لابي عبد الله محمد بن سنان المعروف بالبتاني روما ١٨٩٩ ص ٢٦ - ٢٧ .

كذلك شرح سهراب في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) بحار الارض وحدد مواقعها من خطوط الطول والعرض وما فيها من جزر ، فذكر انها خمسة بحار هي (البحر المغربي الخارج من الشمال) و (بحر أفريقية وبرقة ومصر والشام والروم) و (بحر القلزم والسند والهند والصين وفارس) وهو البحر الجنوبي الكبير المسمى بالبحر الاخضر ، و (البحر المظلم) وهو خلف خط الاستواء ، و (بحر جرجان وطبرستان والديلم) (٣٤) .

ولعل من أفضل الكتابات الجغرافية العربية وأدقها عن توزيع البحار والمحيطات القديمة هي تلك التي وردت في كتاب ابي الريحان البيروني عن الهند . ففضلا عن تميزها بالرصانة والضبط ، فانها ثبتت حقائق هامة كانت ماثرا الجدل ، لا سيما ما يتعلق بالثغاف المحيط الاطلسي حول قارة أفريقيا واتصاله بالمحيط الهندي وما يتعلق باحاطة الارض بالمياه من جهتها الشمالية . قال البيروني :

« تصور المعمورة انها في نصف الارض الشمالي ، ومن هذا النصف في نصف ، فالمعمورة اذن في ربع من ارباع الارض . وبطيف به بحر يسمى في جهة المغرب والمشرق محيطاً . ويسمي اليونانيون ما يلي المغرب منه وهو ناحيتهم اوقيانوس وهو قاطع ما بين هذه المعمورة وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر في الجهتين من بر أو عمارة في جزيرة اذ ليس بمسلوك من ظلام الهواء ومن غلظ الماء ومن اضطراب الطرق وعظم الغرر مع عدم الفائدة . ولذلك عمل الاوائل فيه وفي سواحل علامات تمنع من سلوكه . واما من جهة الشمال فالعمارة تنقطع بالبرد دونه الا في مواضع يدخل اليها من السنة وأغباب . وأما من جهة الجنوب فان العمارة تنتهي الى ساحل البحر المتصل بالمحيط في الجانبين وهو مسلك والعمارة غير منقطعة عنده وانما هو مملوء بالجزائر الصغار والعظام . وهذا البحر مع البر يتنازعان الوضع حتى يلج احدهما في الآخر . أما البر فانه يدخل البحر في النصف الغربي ويبعد ساحله في الجنوب فيكون في تلك البراري سودان المغرب التي يجلب الخدم من عندهم وجبال القمر التي منها منابع نهر النيل وعلى الساحل والجزائر اجناس الزنج . ويدخل في هذا النصف المغربي من البحر خلجان في البر كخليج بربرا وخليج قلزم وخليج فارس . ويدخل ارض المغرب فيه فيما بين هذه الخلجان دخولا ما . واما في النصف الشرقي فانه يدخل في بر

(٣٤) راجع كتاب (عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة) تصنيف سهراب - نشره هانس فون ميكل - فيينا ١٩٢٩ ، ص ٥٤ الى ٦٨ .

الشمال دخول ذلك البر في الجنوب وربما أمعن بأغباب منه واخوار اليه وهذا البحر يسمى في أغلب الاحوال باسم ما فيه أو ما يحاذيه (٣٥) .

وفي موضع آخر شرح البيروني بحار الارض ومحيطاتها شرحاً دقيقاً ، وبما قال في ذلك : « أما البحر الذي في مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والاندلس فانه سمي البحر المحيط (٣٦) وسماه اليونانيون اوقيانوس ، ولا يلجج فيه وانما يسلك بالقرب من ساحله . وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذة ارض الصقالبة . ويخرج منه خليج عظيم في شمال الصقالبة ويمتد الى قرب بلغار بلاد المسلمين ويعرفونه ببحر ورنك (٣٧) ، وهم أمة على ساحله . ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة . وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فانه ينحرف عن جنوب ارض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تنتج منها عيون نيل مصر ، وفي سلوكه غرر لا تنجو منه سفينة . . وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أرض الصين فانه أيضاً غير مسلك ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الارض التي تحاذيه . فيكون ذلك أول بحر الصين ، ثم الهند . وخرج منه خلجان عظام يسمى كل واحدة منها بحراً على حدة كبحر فارس والبصرة الذي على شرقيه تيز ومكران وعلى غربية في حياله فرضة عمان ، فاذا ما جاوزها بلغ بلاد الشحر التي يجلب منها الكندر ومراً الى عدن . وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقلزم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ، ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فانه يسمى بهما فيقال لجنوبه بحر الحبشة ، وللشمال بحر اليمن وللمجموعهما بحر القلزم . وانما اشتهر بالقلزم لان القلزم مدينة على منقطعه في أرض الشام حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو ارض البجة . . والخليج الآخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن الى سفالة الزنج ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ، ويتصل بعدها ببحر اوقيانوس المغربي ، وفي هذا البحر من نواحي المشرق جزائر الزابج (٣٨) ثم جزائر الديبجات (٣٩) وقمير (٤٠) ثم جزائر

(٣٥) كتاب الهند ، للبيروني ، ص ١٥٦ .

(٣٦) وهو المحيط الذي يطوق جميع الارض اليابسة .

(٣٧) بحر البلطيق .

(٣٨) الجزر الاندونسية . (الزابج = جاوة) .

(٣٩) جزر لكديف وملديف .

(٤٠) كمبوديا .

المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق(*) . ثم يذهب مشرقاً وينفسح الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه ، وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ، ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقرطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية . قالوا ويخرج منه من جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم يمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ، ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية . ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نبطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقله وينتهي في بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة(*) يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة . قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلاً حتى ينتهي الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيفي والهندي والحبيشي ، وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر(**) وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب . ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الوقواق وأمم آخر ليس بعدهم الا القفار والخلاء . وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزيد وغيرها ، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة . قالوا ويخرج من هذا البحر الحبيشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقاً ثم يمر

(*) مضيق جبل طارق .

(**) بحر الادرياتيک .

(***) الصومال .

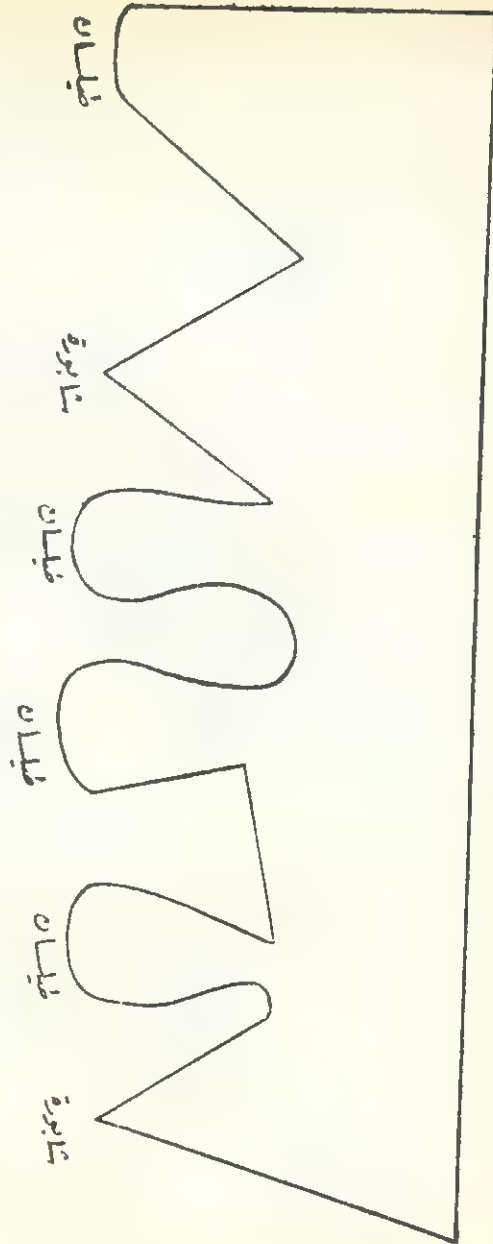
مستبحراً الى ناحية الشمال ومغرباً قليلاً الى أن ينتهي الى القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف واربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس ، وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته . ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ، وما زال الملوك في الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك . والبحر الثاني من هذا البحر الحبيشي ويسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغرباً قليلاً الى أن ينتهي الى الابله من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على اربعمائة فرسخ واربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابله ، وعند نهايته عن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه ، وفيما بين بحر فارس والقلزم وجزيرة العرب كأنها داخله من البر في البحر يحيط بها البحر الحبيشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي الى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينها . وهنالك الكوفة والقادسية وايبوان كسرى وبغداد والحيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم . وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة المغرب منها ، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها ، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها ، وسواحل على البحر الحبيشي (٣٨) .

ويسجل أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) حقيقة جغرافية هامة عند كلامه على توزيع البحار والمحيطات ، وهي ان الماء يغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض . وهذه احدى الحقائق الهامة التي اثبتتها الجغرافية الحديثة بعد أن توفرت لها الوسائل العلمية وبعد ان تم الكشف عن جميع جهات الأرض ، قال أبو الفدا : « والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها . أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمغمور بالبحار » (٣٩) .

وذكر أبو الفدا أيضاً ان البحار العظيمة المشهورة خمسة هي : البحر المحيط

(٣٨) مقدمة ابن خلدون - ص ٤٥ - ٤٧ .

(٣٩) تقويم البلدان - لابي الفدا ، ص ١٨ - ١٩ .



وبحر الصين وبحر الروم وبحر نيطش وبحر الخزر . ثم أورد بعض المصطلحات المتعلقة بالبحار منها (الخور) وهو كل خليج يمتد من البحر الى بعض النواحي ، ومنها (المجرى) وهو ما يقطعه المركب في يوم وليلة بالرياح الطيب . وأورد أيضاً اصطلاحات الجغرافيين عن البحار وامتداداتها مثل (القسورة) و (الشابورة) و (الطيلسان) ، ووضع تلك التعاريف بالرسم ، ثم شرح امتدادات كل بحر من البحار المعروفة وحدد مواقعها من خطوط الطول والعرض تحديداً دقيقاً^(٤٠) . وتعتبر معلومات أبي الفدا عن البحار والمحيطات تلخيصاً جيداً لكتابات الجغرافيين المسلمين السابقين عن هذا الموضوع .

وقد وردت في كتب الكتاب المتأخرين الآخرين تلخيصات طيبة أيضاً للمعلومات القديمة عن البحار والمحيطات ، مع اضافات هامة في بعض الاحيان . مثال ذلك ما ورد في كتاب التوسيري (نهاية الارب) من كلام مفصل عن البحار ومواقعها ومساحاتها وامتداداتها وأشهر جزرها . ولقد اعتبر أعظم البحار المعمورة ثلاثة هي البحر المحيط وبحر مانيطس^(*) وبحر الخزر^(٤١) . كذلك وردت في كتاب (صبح الاعشى) لابي العباس القلقشندي تفصيلات ممتازة عن البحار ربما كانت تمثل أفضل ما ورد في كتب المتأخرين عن هذا الموضوع . فقد تناول أولاً شرح البحر المحيط وما يخرج ويتصل به من بحار مثل بحر الروم وبحر الصين وبحر الهند وبحر فارس وبحر القلزم والخليج البربري وبحر برديل (بحر بريطانية) . وقد سجل بالتفصيل جميع الموانئ التي تقع على سواحل البحار المذكورة والخلجان التي تخرج منها^(٤٢) .

كذلك فعل الانصاري الدمشقي في كتابه « نخبة الدهر » حيث جمع كل ما كتب عن البحار من معلومات . وقد لخص لنا مسميات البحار الكبرى وامتداداتها على النحو التالي : « قال أهل العلم بذلك تعريفاً ان الماء المحيط بالارض هو جرم بسيط مشف جرمه طبعه ان يكون بارداً رطباً متحركاً الى المكان الذي تحت كرة الهواء وفوق الارض

(٤٠) المصدر السابق ، ص ١٩ - ٣٧ .

(٤١) نهاية الارب ، لشهاب الدين التوسيري ، منشورات دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، السفر الاول ، ص ٢١٩ - ٢٣٨ .

(٤٢) بحر آزوف .

(٤٣) صبح الاعشى - تأليف الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي - منشورات دار الكتب الخديوية - المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٣ - ٢٤٩ .

وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ولا يعرف له ساحل وله اسماء في الجهات سماه بها اليونان ومن قبلهم . فاسمه في الجهة الغربية اوقيانوس والبحر الاخضر ، وفي جهة جنوب الارض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد ، وفي جهة محض الجنوب البحر الاحمر ، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك والمحيط الشمالي ، وفي شمال الاندلس اللبانية وبحر قادس . وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الارض مالح ، وسائر البحار التي بوجه الارض غيره فانها خلجان منه متصلة به فائضة عنه ^(٤٣) .

ولم يكتف الدمشقي بشرح مواقع البحار ومساحاتها وامتداداتها ، بل شرح جانباً هاماً من جيومورفولوجيتها ، وهو تحديب سطح المحيطات حسب كروية الارض ، وهذه الناحية قلما تعرض لذكرها الجغرافيون الاوائل . قال الدمشقي : « وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووحدات الارض المغمورة بمياهها . ومعنى الانسجار منها انها كروية الشكل في دوراتها وكروية مع الارض في تحديبها الكروي . فكل جزء منها مكفوف الاطراف كصورة نصف سدس دائرة ، وهذا في صورته الخاصة ، فالبهار مستديرة باستدارة كرة الارض وكهياتها في التدوير والانكفاف . ولذلك الراكب في البحر اذا توغل فيه غابت عنه الارض ، واذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية ^(٤٤) .

وناقش الدمشقي أيضاً الآراء المختلفة في أسباب ملوحة مياه البحار فقال : « وتكلم العلماء بعلمهم في الشيء الذي كان عنه الماء . فمنهم من زعم ان المياه من الاستحالة ، فطعم كل ماء على قدر تربته ، ومنهم من يزعم ان البحر بقية الرطوبة التي جفت أكثرها جوهر النار وياحرقه لهذه البقية استحالت الى الملوحة . ومنهم من زعم ان أصل الماء العذوبة واللطافة ، وانما لطول مكثه جذبت الارض ما فيها من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس ما فيه من اللطافة بحرارتها فاستحال الى الغلظ والملوحة ^(٤٥) .

(٤٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربرة - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة للمستشرق مهران MEHREN ، ص ١٢٧ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

ولقد ناقش الجغرافيون العرب والمسلمون أيضاً ظاهرة المد والجزر وان لم يصب غالبيتهم في تفسيرها . فقد كان تفسير ابن الفقيه الهمداني مثلاً اسطورياً . فقد روى عن ابن عباس انه سئل عن ظاهرة المد والجزر فأجاب ان ملكاً موكل بقاموس البحر اذا وضع رجله فيها فاضت واذا رفعها غاضت . كما روى عن ابن كعب ان الخضر لقي ملكاً من الملائكة فسأله عن المد والجزر فقال الملك ان الحوت يتنفس فيشرب الماء ويرفع الماء الى منخره فذلك الجزر ، ثم يتنفس فيخرجه من منخره فذلك المد ^(٤٦) .

أما الاصطخري فقد أشار الى ظاهرة المد والجزر التي تحدث في بحر فارس اشارة عابرة حيث قال : « يحدث في بحر فارس في اليوم واللييلة مرتان مد وجزر من حد القلزم الى حد الصين . وليس لبحر المغرب ولا لبحر الروم ولا لسائر البحار مد وجزر غير بحر فارس . وهو أن يرتفع الماء قريباً من عشرة اذرع ثم ينصب حتى يرجع الى مقداره ^(٤٧) .

ولم تكن اشارة الشريف الادريسي الى ظاهرة المد والجزر تنم عن وعي صحيح أيضاً . فقد ذكر أن المد والجزر يحدث في البحر الصيني وما يليه من بحر الصنف (*) واللاروي (**) وبحر هرکند (***) وبحر عمان ، وهي تحدث مرتين في اليوم واللييلة في بحر عمان وبحر فارس . ثم عاد واستدرك بان بعض ربابيو البحر الهندي والبحر الصيني قد حكوا بأن المد والجزر يكونان مرتين في السنة ، فمرة يمد في شهور الصيف شرقاً ويجزر ضد البحر الغربي ، ثم يرجع المد غرباً ستة أشهر ^(٤٨) .

ولقد اقترب اخوان الصفا من التفسير العلمي لظاهرة المد والجزر حيث ربطوها بحركة القمر والكواكب الاخرى . وما قالوا في ذلك : « وأما علة مدود بعض البحار في وقت طلوعات القمر ومغيبه دون غيرها من البحار فهي من أجل أن تلك البحار في قرارها صخور صلبة ، فاذا أشرق القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح شعاعاته الى تلك الصخور والاحجار التي في قرارها ثم انعكست من هناك راجعة فسخت تلك

(٤٦) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، ص ٩ .

(٤٧) كتاب الاقاليم للاصطخري ، ص ١٧ .

(*) بحر الصين الجنوبي .

(**) بحر الهند الغربي .

(***) خليج بنغالة .

(٤٨) وصف الهند وما يجاورها من البلاد للشريف الادريسي ، ص ٢٠ - ٢١ .

المياه وحملت ولطفت وطلبت مكاناً أوسع وارتفعت الى فوق ودفع بعضها بعضاً الى فوق وتموجت الى سواحلها وفاضت على سطوحها وأرجعت مياه تلك الانهار التي كانت تنصب اليها خلف . فما يزال ذلك دأبها ما دام القمر مرتفعاً الى وتد سمائه . فاذا انتهى الى هناك وأخذ ينحط سكن عند ذلك غليان تلك المياه وبردت وانضمت تلك الاجزاء وغلظت ورجعت الى قرارها وجرت الأنهار على عادتها . فلا يزال ذلك دأبها الى أن يبلغ القمر الى افق تلك البحار الغربي منها ، ثم يتدنى المد على مثل عادته وهو في الافق الشرقي ، ولا يزال ذلك دأبه حتى يبلغ القمر الى وتد الارض فينتهي المد من الرأس . ثم اذا زال القمر من وتد الارض أخذ المد راجعاً الى ان يبلغ القمر أفقه الشرقي من الرأس وذلك تقدير العزيز الحكيم . فان قيل لم لا يكون المد والجزر عند طلوع الشمس واشراقها على سطوح هذه البحار ، فقد بينا علة ذلك في رسالة العلل والمعلول (٤٩) .

ولقد اقترب البيروني أيضاً من الحقيقة في تفسيره لظاهرة المد والجزر حيث نقل آراء العلماء الهنود فيها حول ارتباطها بتغير وجه القمر ، غير أن تفسيره خالطته بعض الأفكار الاسطورية (٥٠) .

هذه هي أهم الجوانب التي تناولها الجغرافيون المسلمون من جغرافية البحار . أما البحيرات فلم يعن الجغرافيون المتقدمون بالتحدث عنها . ولعل ابن حوقل كان أكثرهم اهتماماً بذكرها عند الكلام على المدن . غير ان الجغرافيين المتأخرين افردوا لها فصولاً خاصة . وكان أبو الفدا أشدهم احتفالاً بهذا الموضوع ، فقد ورد في كتابه (تقويم البلدان) اسماء جميع البحيرات المعروفة ، وقد حدد مواضعها ، وبين أهم صفاتها ، وذكر الانهار التي تخرج منها أو تنصب فيها . وقد استدرك بأن البحيرات من الكثرة على وجه لا ينحصر ولم ينقل في الكتب الا بعضها (٥١) . وقد قدم أيضاً تعريفاً للبحيرة فذكر ان (البحيرة) و (البطيحة) بمعنى واحد وهي المياه المتجمعة التي هي في الغور دون البحار ، ثم ذكر بان من جملة تلك البحيرات البطيحتان اللتان تقعان جنوبي خط الاستواء واللذان ينبع منهما نيل مصر ، وبحيرة تونس في تونس ، وبحيرة الفيوم وتينس في مصر ، وبحيرة نسترو بالقرب من الاسكندرية وبحيرة طبرية وبحيرة اورمية وبحيرة

(٤٩) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٣ .

(٥٠) كتاب الهند للبيروني ، ص ٤٣١ .

(٥١) تقويم البلدان ، لأبي الفدا ، ص ٣٧ .

زرة في سجستان وبحيرة جيحون وبحيرة خوارزم (٥٢) . ومن الامثلة على كلامه على البحيرات حديثه عن بحيرات مصر حيث قال :

« . . بحيرة الفيوم وهي بحيرة بقرب الفيوم يصب فيها فضلات ماء الفيوم ولا تخرج منها وفيها سمك كثير وطرفاء وأجام ، وهي عن الفيوم على نحو نصف يوم في جهة الشمال بميلة الى الغرب وطولها شرقاً بغرب نحو يوم وهي حلوة . بحيرة نسترو وهي بحيرة مالحة تخرج من البحر فيما بين الاسكندرية ورشيد وهي في جهة الغرب والشمال عن رشيد وهي على ما دون مسافة يوم من رشيد . ولهذه البحيرة فم من البحر المالح ولها خليج يأتيها من النيل من جهة رشيد . وفي طرف هذه البحيرة جزيرة فيها قرية تسمى نسترو وتنسب البحيرة اليها ، وليس لهذه القرية مزروع بل جميع اهل نسترو انما يعيشون من صيد السمك . وليس في البحيرات بحيرة يبلغ ضماها ما يبلغه بحيرة نسترو فان ضمان سمكها يبلغ فوق عشرين ألف دينار مصرية . واذا توسطها الانسان في المركب لا يرى شيئاً من جوانبها لسعتها وبعد مركزها عن البحر . بحيرة دمياط وتينس وهما بحيرتان متصلتان بالبحر المالح ، فبحيرة تينس هي البحيرة الشرقية منها وبحيرة دمياط هي الغربية ، ويصب فيها بحر اشمون وهو النيل الشرقي من النيلين المتفرقين عند جرجر والمنصورة . وبحيرة تينس ودمياط متسعة الى الغاية وهي متصلة بالبحر ويعذب ماؤها في زيادة النيل ويلمح اذا نقص النيل وهي قليلة العمق يسار في أكثرها بالمرادي وتينس في وسطها حيث الطول أربع وخمسون ونصف والعرض ثلاثون ونصف . (٥٣) .

ومن تحدث عن البحيرات أيضاً من الكتاب المتأخرين النويري في كتابه (نهاية الارب) (٥٤) والعمرى في كتابه (مسالك الابصار) (٥٥) والدمشقي في كتابه (نخبة الدهر) (٥٦) . غير ان اوصافهم للبحيرات كان يشوبها الكثير من الخرافات لا سيما في

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٤٤ .

(٥٣) بحيرة أورال .

(٥٤) تقويم البلدان ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٥٥) نهاية الارب ، للنويري ، ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .

(٥٦) مسالك الابصار في ممالك الامصار - لابن فضل الله العمري ، منشورات دار الكتب المصرية ، القاهرة

١٩٢٤ ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٥٦) نخبة الدهر ، للدمشقي ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

ب - جغرافية الانهار :

أما سهراب فقد حاول في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) أن يلمّ بجميع أنهار الارض المعمورة بما تشتمل عليه من روافد وفروع ، مع تحديد مواضعها من خطوط الطول والعرض ، وقد فصل الكلام عن أنهار العراق على نحو الخصوص^(٥٩) .

(٥٧) الاعلاق النفيسة ، لابن رستم ، ص ٨٩ - ٩٩ .

(٥٨) المسالك والممالك ، لابن خردادبة ، ١٧٣ - ١٨٠ .

(٥٩) كتاب عجائب الاقاليم السبعة - لسهراب ، ص ١١٨ - ١٥٥ .

(٦٠) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٦١) مروج الذهب ، للمسعودي ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٧ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٦٣) رسائل اخوان الصفا - الجزء الثاني ، ص ٨٧ - ٨٨ .

أما المسعودي فبالرغم من انه شرح الانهار في الجزء الاول من موسوعته (مروج الذهب) شرحاً مفصلاً ، لكنه اهمل ذكر كثير من الانهار المعروفة ^(٦١) ، غير انه أشار الى ملاحظة بارعة جداً في جيومورفولوجية الانهار حيث ذكر « بان للانهار شباباً وهرماً وحياة وموتاً ونشوراً كما يكون ذلك في الحيوان والنبات » ^(٦٢) . ومن المعلوم ان هذه الفكرة اصبحت في الجغرافية الحديثة من مبادئ جيومورفولوجية الانهار .

« واعلم ان الاودية والانهار تبتديء من الجبال والتلال وتغر في جريانها نحو البحار والآجام والغدران والبطائح والبحيرات . فمنها ما هو انهار طوال جريانها من المشرق الى المغرب كنهـر مأوند من سجستان فانه يبتديء من جبال باميان وجبال تمور وغير نحو المغرب الى تربة كرمان ثم الى بحر هرمز . ومنها ما يمر في جريانه نحو المشرق كالأرس والكرسي وهما نهران ببلاد آذربيجان ابتداءهما من جبال الروم وبران متوجهين نحو المشرق الى بحر طبرستان فينصبان فيه . ومنها ما جريانه من الجنوب الى الشمال نحو نيل مصر فانه يبتديء من جبال القمر من وراء خط الاستواء ويمر في جريانه متوجهاً نحو الشمال الى ان ينصب في بحر الروم . ومنها ما يكون جريانه من الشمال الى الجنوب مثل دجلة فانه تبتديء من جبال نصيبين وتغر في جريانها الى الجنوب ثم تنصب الى بحر فارس بعبادان . ومنها ما يكون جريانه متوجهاً في احدى نكبات مثل جيحون خراسان والفرات ، وذلك ان جيحون يبتديء من جبال صنعانيان ويمر متكباً

للغرب والشمال وينصب الى بحر جرجان بشمال بلاد خوارزم ، والفرات يتبدى من جبال الروم ويمر متكباً للمشرق والجنوب وينصب الى بحر فارس من عبادان . وعلى هذا المثال سائر الانهار في الجريان .

وأما علة مدود أكثر الانهار التي جرياتها من الشمال الى الجنوب في أيام الربيع فهي من أجل ان الثلوج اذا كثرت في الشتاء على رؤوس الجبال الشرقية ثم حمي الجو بقرب الشمس من سمتها ، ذابت تلك الثلوج وسالت منها الاودية والانهار . وأما علة مد نيل مصر في أيام الصيف فهو من أجل ان هذا النهر يجري من الجنوب الى الشمال ومبدأ جريانه من وراء خط الاستواء حيث يكون الشتاء عندنا يكون صيفاً هناك ، وفي الصيف عندنا يكون الشتاء هناك فتكون في ذلك الوقت كثرة الأمطار هناك . ولهذا الأنهار عطفات وعراقيل يطول شرحها وشرح علتها وهي تسقي في جرياتها السوادات والمزارع والمدن والقرى ، وما يفضل من مياهها ينصب الى البحار والأجام والبطائح والبحيرات ويمتزج بمياهها عذبة كانت أو مالحة . فاذا اشرقت عليها الشمس والكواكب سخنتها وحميت ولطفت وتحللت وصارت بخاراً فارفعت في الهواء وتوجت الى الجهات ويكون منها الرياح والغيوم والضباب والطل والندى والصقيع والانداء والثلوج والبرد على رؤوس الجبال والبراري والعمران والخراب .

وأما الامطار التي تكون على رؤوس الجبال فانها تفيض في شقوق تلك الجبال وغللها وتنصب الى مغارات وكهوف وأهوية هناك وتمتليء وتكون كالمخزونة ، ويكون في اسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تمر منها تلك المياه وتجري وتجتمع وتصبح اودية وانهاراً وتذوب تلك الثلوج على رؤوس تلك الجبال وتجري الى تلك الاودية وتغر في جرياتها راجعة نحو البحار ثم تكون فيها البخارات والرياح والغيوم والامطار كما كان في العام الاول وذلك تقدير العزيز العليم .

ولقد أفرد أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) فصلاً خاصاً عن الانهار . واعتذر منذ البداية « بأن الانهار من الكثرة على حد لا يبلغ الانسان الاحاطة بجميعها وانما المذكور بعض » (٦٤) . ثم فصل الحديث في الانهار الكبرى لا سيما نهر النيل . وتعتبر تفصيلاته عن الانهار ، وهي تلخيص لجميع ما ورد ذكره في كتب الجغرافيين المسلمين الاوائل ، من أفضل الكتابات الجغرافية عن الانهار . ومن مزاياها انها لم

(٦٤) تقويم البلدان ، لابي الفدا ، ص ٤٤ .

تعمل ذكر انهار أي بلد اسلامي منها كانت صغيرة ، كما انها عنت بذكر الروافد والفروع الصغيرة ايضاً (٦٥) . ومن أمثلة ذلك وصفه لنهر الفرات حيث قال (٦٦) :

« نهر الفرات أوله من شمالي مدينة ارزن الروم وشرقيها ، وارزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق وهي من حيث الطول اربع وستون والعرض اثنتان واربعون ونصف . ثم يأخذ الى قرية ملطية حيث الطول احدى وستون والعرض سبع وثلاثون ، وقيل تسع وثلاثون ثم يأخذ الى سميساط عند طول اثنتين وستين وعرض سبع وثلاثين ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها . وتغر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ثم تسير الى البيرة وهي على جانب الفرات من شماليها . ثم تمر مشرقاً حتى تتجاوز بالس وقلعة جعبر وتتجاوزها الى الرقة حيث الطول ثلاث وستون والعرض ست وثلاثون . ثم تسير مشرقاً وتتجاوز الرحبة من شمالي الرحبة وتسير الى عانة حيث الطول ثمان وستون ونصف والعرض ثلاث وثلاثون وعشر دقائق . ثم تسير الى هيت حيث الطول تسع وستون والعرض اثنتان وثلاثون . ثم تسير الى الكوفة حيث الطول تسع وستون ونصف والعرض احدى وثلاثون وخمسون دقيقة . ثم تسير مشرقاً وتنصب في البطائح حيث الطول ثلاث وسبعون درجة (وعن سليمان بن مهنا ان بجاني الفرات سعة الى قائم عنقا . وفي قائم عنقاً تدخل في واد الى عانة الى حديثة الى هيت الى الانبار . ومن هيت تخرج الى فضاء العراق والسهول) . ويصب في الفرات ويخرج منها انهار كثيرة ، فمن الانهار التي تنصب فيها نهر شمشاط وهو نهر يمر على شمشاط ثم يمر على حصن زياد وهو خرت برت ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية . ويصب في الفرات ايضاً نهر البليخ وأول البليخ من أرض حران من عين يقال الذهبانية ، ويسير مشرقاً ويمر على ظهر مدينة الرقة من شماليها ثم يصب في الفرات اسفل من الرقة . يصب في الفرات ايضاً نهر الخابور ، وأول الخابور من رأس عين يقال لها عين الزاوية ، ويسير نهر الخابور حتى يمر على قرقيسيا حيث الطول اربع وستون وثلاثون والعرض اربع وثلاثون وثلاث ويصب عندها في الفرات . ويصب الى الفرات ايضاً نهر الهرماس وأوله من أرض نصيبين ثم يسير ويتشعب منه نهر الثرثار ، ويمر الثرثار بالحضر وبرية سنجار ويصب في دجلة عند تكريت . وأما الهرماس فيمر بعد خروج نهر الثرثار منه ويصب

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٦٤ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ٥١ - ٥٣ .

في الخابور قبل وصوله الى قرقيسيا ، ويصير الهرماس والخابور نهراً واحداً ويصبان في الفرات عند قرقيسيا . ويحمل من الفرات عدة أنهار فمنها نهر عيسى ومخرجه من الفرات عند طول ثمان وستين وعرض اثنتين وثلاثين وذلك أعني مخرجه من قبالة الكوفة من موضع يقال له دهماً ، وقيل مخرجه من قرب الانبار تحت قنطرة دهماً (واخبر سليمان ابن مهنا ان مخرج نهر عيسى تحت الانبار بالقرب منها تحت ضيعة يقال لها الفلوجة . قال وفي ايام نقص الفرات ينقطع جريان نهر عيسى وتسقى البساتين التي عليه بالدواليب من مستنقعات تبقى في النهر المذكور) . ويسير الى بغداد فاذا وصل الى المحول تفرع منه عدة انهر ويصب في جوف الجانب الغربي من بغداد في دجلة ونسبته الى عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس وهو عم المنصور . ومنها نهر صرصر ومخرجه من الفرات تحت مخرج نهر عيسى ويسير في سواد العراق الذي بين بغداد والكوفة حتى يصل الى صرصر ويسقي ما عليه من البلاد ، ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن . ومنها نهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ويسقي ما عليه من سواد العراق ويصب في دجلة تحت المدائن . ومنها نهر كوثي ومخرجه من تحت نهر الملك وكذلك يسقي سواد العراق ويصب في دجلة تحت مصب نهر الملك . واذا جاوزت الفرات نهر كوثي بسة فراسخ انقسمت قسمين ومر احدهما وهو الجنوبي الى الكوفة ويتجاوزها ويصب في البطائح ، ويمر الآخر وهو اعظمهما بازاء قصر ابن هبيرة عند طول سبعين ونصف وعرض اثنتين وثلاثين وخمس واربعين دقيقة ويعرف هذا القسم الاعظم الثاني بنهر سورا ويتجاوز قصر ابن هبيرة ويسير جنوباً الى مدينة بابل القديمة عند طول سبعين وعرض اثنتين وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة . ويتفرع من نهر سورا المذكور بعد ان يتجاوز بابل عدة انهار ويمر عموده الى مدينة النيل وتسمى من بعد النيل نهر الصراة ثم يتجاوز النيل ويصب في دجلة . وسورا بضم السين المهملة وآخره الف تمد وتقصر وهي قرية على هذا النهر نسب النهر اليها » .

أما العمري في كتابه (مسالك الابصار) فقد عالج موضوع الانهار بالتفصيل حسب ارباع الارض المعمورة ، الشرقي ثم الغربي ثم الشمالي ثم الجنوبي . واسرف في الكلام على نهر النيل بشكل خاص . ويبدو انه اعتمد اعتماداً كبيراً على آراء بطليموس في هذا الموضوع ، فقد ختم حديثه عن الانهار قائلاً : « وهكذا صورها صاحب الجغرافيا في لوح الرسم » (٦٧) .

(٦٧) مسالك الابصار ، للعمري ، ص ٦٦ - ٨٦ .

كذلك فصل النويري في كتابه (نهاية الارب) الكلام عن انهار العالم الاسلامي وشرح ما يلحق بها من الغدران والعيون (٦٨) .

ولقد كان الدمشقي (شيخ الربوة) اكثر الجغرافيين المتأخرين اهتماماً بموضوع الانهار ، فقد أفرد في كتابه (نخبة الدهر) فصلاً ضافياً عن انهار العالم الاسلامي وذكر كل ما يتعلق بها من معلومات . ولم تشمل شروحه الكلام عن طوبوغرافية الانهار فحسب ، بل تعدتها الى شرح نظام الدورة المائية باكملها وربط هيدروغرافية الانهار بها . ويمكن القول ان الدمشقي كان من الجغرافيين القلائل الذين خاضوا في هذا الموضوع النظري ، وان شروحه لا تختلف كثيراً عن الشروح الحديثة لأطوار الدورة المائية (٦٩) . قال الدمشقي :

« اختلف العلماء في ملة كون الماء وملة كون نبعه من الارض . فقال بعضهم ان المطر اذا وقعت على الارض واجتمعت منه مياه كثيرة ووجدت لها الجريان والسيلان سيلاً جرت سيولاً ومدوداً ، اذ من شأن الماء الانحدار والانصباب ، وان اتفق انها تنحصر بين أطراف مرتفعة تمنعها من السيلان بقيت محقونة . فان كانت تلك الارض المحاصرة لها رخوة ويحللها ذلك الماء الى ارض اسفل منها صلبة لا يقدر على نفوذها وقف ، ثم تمسج واضطرب طلباً للخروج حتى يخرق بها خرقاً فيسمى ذلك الخرق عيناً ، فان سالت سميت جدولاً ان كان قليلاً ، وان كان كثيراً سمي نهراً . وان اجتمعت من المطر منه جمل وسالت بكثرة سميت سيلاً . وكلما كانت الامطار أكثر كانت الماء اغزر . وقال آخرون ان علة تكون الماء وتكثرها انما هو من عصارات الارض ومخازنها المجموعة فيها من مياه الامطار ورطوبات الابخرة الندية المسماة الندى . وذلك ان الرطوبات والعصارات المذكورة تحركها حرارة الشمس وسخونة الارض المستكنة في أعماقها فيلطف جوهر تلك العصارات بهذا التحريك المذكور فيرقى بخاراً حاراً رطباً ، ويقوى ترطيه عندما يصل في ارتقائه من الزمهرير في الجو ويصير به بارداً رطباً . فينعد هناك اجزاء مائية ميثوثة . ثم اذا انعقد ذلك جمعت الرياح وأمدرته مطراً . فتأخذ الارض حينئذ منه حاجتها فتجته في دواخلها ثم يسبح الباقي منه سيولاً ومدوداً على وجهها سيحاً ويستجن منه ايضاً في شراياناتها ونفاخاتها ما يستجن وتقبل منه وهدايتها ما تقبل غدراناً ومخازن والباقي الفاضل ينصب الى البحار المالحة فيختلط

(٦٨) نهاية الارب ، للنويري ، ص ٢٥٠ - ٢٦٣ .

(٦٩) نخبة الدهر ، للانصاري الدمشقي ، ص ٨٨ - ١٢٦ .

الحقل الجيومورفولوجي

١ - التفصيلات الطبوغرافية :

لقد وردت التفصيلات الطبوغرافية في كتب الجغرافية العربية بشكل ثانوي . وبالرغم من ان طبيعة الجغرافية الوصفية تقتضي الاهتمام بتلك التفصيلات ، لكن الجغرافيين المسلمين عموماً لم يوجهوا نحوها عناية كافية . ولعل اكثر الجغرافيين العرب والمسلمين الاوائل اهتماماً بتلك التفصيلات هو ابن حوقل . فقد دان يعني بذكر السهول والجبال والصحاري عناية خاصة . وقد حدد في خرائطه التي رسمها للاقاليم المختلفة سلاسل الجبال بحدود واضحة . ومن أمثلة تفاصيله الطبوغرافية ما ذكره عن اقليم الجبال حيث قال : « والغالب على هذه المدن المذكورة والنواحي الموصوفة الجبال الشاهقة العالية والاوكار الصعبة من حد شهرزور الى آمد فيما بين حدود اذربيجان والجزيرة ونواحي الموصل . وهو من طولها وربما كان عرضها في غير موضع الثلاثين ٣٠ فرسخاً والى الاربعين وأزيد وانقص فلا يرى فيها مرحلة واحدة في سهل » (٧٢) .

وكان المفروض ان يوجه الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق) اهتماماً اكبر نحو التفصيلات الطبوغرافية لا سيما وانه قد درس الاقاليم الجغرافية السبعة للمعمورة بالتفصيل . لكن تفصيلاته الطبوغرافية كانت في الحقيقة ثانوية للغاية ، حتى بالنسبة للبلدان التي يعرفها معرفة جيدة كأقطار المغرب العربي .

أما أبو عبيد الله البكري فقد حفل كتابه (المسالك والممالك) بتفصيلات طبوغرافية جيدة ، لا سيما عن اقطار شمالي افريقيا ، مما جعله مرجعاً لكثير من الجغرافيين المتأخرين في كتاباتهم عن تلك البلدان (٧٣) .

(٧٢) صورة الارض ، لابن حوقل ، القسم الثاني ، ص ٣٧١ .
(٧٣) انظر كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، لابي عبيد الله البكري ، منشورات مكتبة المتن ، من طبعة لدى سلان ، ١٩٥٧ .

بها . ثم يعود عليه ذلك التحريك الكائن من حرارة الشمس والحر المستجن ببطن الارض فتتحرك تلك الاجزاء والعصارات والمياه المختلطة بمياه البحار المالحة فتعود راقية كالاول الى أن يصير مطراً وسيلاً وفضالات محتضنات كالاول ، وهذا دأبها » (٧٠) .

ولا بد لنا من الاشارة اخيراً الى رأي الجغرافيين المسلمين في العيون والينابيع . فقد اجمعوا على كونها تصدر من مستودعات في باطن الارض ، وان تلك المستودعات تنشأ عن مياه الامطار والثلوج التي تتسرب من الشقوق والمسام ومن بخار الماء المتكاثف بسبب حرارة باطن الارض . وقد حاول بعض الكتاب تفسير ظاهرة العيون الحارة ، وورد هذا التفسير في (رسائل اخوان الصفا) على النحو التالي : « أما علة حرارة مياه أكثر العيون في الشتاء وبردها في الصيف فهي من أجل كون الحرارة والبرودة ضدتين لا يجتمعان في مكان واحد . فاذا جاء الشتاء وبرد الجو فرت الحرارة فاستجنت في باطن الارض وسخنت تلك المياه التي في باطنها وعمقها . فاذا جاء الصيف وحمي الجو فرت البرودة واستجنت في باطن الارض وبردت تلك المياه في باطنها وعمقها . وأما علة حرارة بعض العيون في الشتاء والصيف على حالة واحدة فهي ان في باطن الارض وكهوف الجبال مواضع تربتها كبريتية فتصير تلك الرطوبات التي تنصب هناك دهنية ، وتكون الحرارة التي فيها راسية دائماً بينها او فوقها مياه في جداول وعروق نافذة فتسخن تلك المياه بمرورها هناك وجوازها عليها ، ثم تخرج وتجري على وجه الارض وهي حارة حامية ، فاذا اصابتها نسيم الهواء وبرد الجو بردت وربما جمدت » (٧١) .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(٧١) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٥ .

وأورد سهراب في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) قوائم مفصلة عن جميع الجبال المشهورة في الارض المعمورة حسب مواقعها من اقاليم الارض السبعة مع تحديد خطوط طولها وعرضها^(٧٤).

ولقد أفرد أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) فصلاً إضافياً عن الجبال المشهورة ، ووصف كل جبل منها على انفراد وما يقع عليه من البلدان ، وما يسكنه من أقوام ، كما حدد طولها بالفراسخ او الدرجات . وركز أبو الفداء بشكل خاص على جبال جزيرة العرب المشهورة وجبال الشام وجبال المغرب^(٧٥) . الا ان تفصيلاته المذكورة لم تكن في باب الدراسة الطبوغرافية بل مجرد قائمة باسماء الجبال المشهورة في العالم العربي .

وقد حذا العمري في كتابه (مسالك الابصار) حذو ابي الفداء فأفرد فصلاً خاصاً في الكلام على الجبال ، لكن بحثه كان أكثر دقة وعلمية . فقد كان يبدأ بذكر الجبل او السلسلة الاصلية التي تتفرع منها السلاسل الجبلية الاخرى ، ثم يتحدث عن كل سلسلة حسب موقعها من ارباع المعمورة الاربعة ، فيصفها أولاً ثم يتحدث عن زراعتها ومعادنها ومدنها^(٧٦) . وقد استند العمري في شرحه لجبال المعمورة الى النظرية اليونانية القديمة التي كانت تعتقد بوجود حزام جبلي يطوق الارض من الغرب الى الشرق ، وان هذا الحزام هو مصدر تفرعات السلاسل الجبلية الاخرى . وقد أخذ الكثير من الجغرافيين العرب والمسلمين الاوائل بهذه النظرية واطلقوا على تلك السلسلة اسم (جبل قاف) . قال العمري : « ان الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الارض وهو المسمى بجبل قاف وهو أم الجبال ، كلها تنشعب منه فتتصل في موضع وتنقطع في آخر . وهو كالدائرة لا يعرف له أول على التحقيق ، وقد زعم بعضهم ان امهات الجبال جبلان ، خرج احدهما من لدن البحر المحيط في المغرب واخذ جنوباً ، وخرج الآخر من البحر الرومي واخذ شمالاً حتى تلاقيا عند السد . وسموا الجنوبي قاف ، وسموا الشمالي جبل فاقونا »^(٧٧).

ولقد أشار أبو الريحان البيروني أيضاً في كتابه عن الهند الى تلك السلسلة الجبلية

(٧٤) راجع كتاب (الاقاليم السبعة) لسهراب ، ص ٨٢ - ١١٧ .

(٧٥) تقويم البلدان ، لابي الفداء ، ص ٦٤ - ٧٢ .

(٧٦) مسالك الابصار ، للعمري ، ص ٤٦ - ٥١ .

(٧٧) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

العظيمة التي تطوق المعمورة من الغرب الى الشرق ، حيث قال : « وبعد ذلك فتصور في المعمورة جبلاً شاهقة متصلة كأنها فقار ظهر تمتد في أواسط عروضها على الطول من المشرق الى المغرب فتمر على الصين والتبت والترك ثم يذخشان وطخارستان وباميان والغور وخراسان والجبل واذربيجان وأرمينيا والروم وفرنجة والجلالقة ، ولها في امتدادها عرض ذو مسافة وانعطافات تحيط ببراري وسكان فيها ويخرج منها انهار الى كلتا الجهتين »^(٧٨).

والواقع ان الجانب الطبوغرافي في هذه الفكرة قد لا يكون بعيداً عن الصواب ، وان كان أساس النظرية مخطوئاً ، فسلسلة الجبال الالتوائية الحديثة تكاد تمتد في وسط العالم القديم بالفعل . وهي تبدأ عملياً عند البحر المحيط في المغرب (المحيط الاطلسي) ، وتنتد تشعباتها في شمال أفريقيا وفي شبه جزيرة ايبيريا واطاليا وسويسرا وشبه جزيرة البلقان في أوروبا ، ثم تواصل امتداداتها في قارة آسيا في شبه جزيرة الاناضول ثم في شمالي الهند وجنوبي الصين وفي أقطار الهند الصينية حتى تختفي اطرافها في المحيط الهندي ، فهذه السلسلة العظيمة وتفرعاتها قريبة الشبه من تلك السلسلة التي أشار إليها البيروني والعمري وبقيّة الجغرافيين المسلمين .

الملاحظات الجيومورفولوجية :

عالج الجغرافيون المسلمون بعض الجوانب النظرية في حقل الجيومورفولوجيا بالاضافة الى الجوانب العملية للموضوع . الا ان علاجهم هذا كان عرضياً ولم يرد على أساس نظريات جديدة في علم الجغرافيا . وقد تأثروا الى حد غير قليل بالأراء والنظريات اليونانية والرومانية .

ويقف البيروني في المقدمة بين الجغرافيين العرب والمسلمين في ملاحظاته الجيومورفولوجية الذكية . فقد فطن في استعراضه لطبوغرافية بلاد السند الى التكوين الجيومورفولوجي الخاص لهذا السهل ، واعتقد انه لا بد ان يكون حوضاً بحرياً قديماً قد طمرته الترسبات . ولم يكن البيروني في ملاحظته هذه بعيداً عن الحقيقة . قال « وارض الهند من تلك البراري يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور ، ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ واليها مصاب مياهها . واذا تفكرت عن المشاهدة فيها وفي احجارها المدملكة الموجودة الى حيث يوجد الحفر عظيم بالقرب من الجبال وشدة جريان مياه

(٧٨) كتاب الهند ، للبيروني ، ص ١٥٧ .

الانهار وأصغر عند التباعد وفتور الجري ورمالاً عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر ، لم تكن تتصور أرضه الا بحراً في القديم قد انكس بحمولات السيول» (٧٩) .

ومن الجدير بالملاحظة ان البيروني قد فطن أيضاً الى عملية الترسيب النهري لا سيما عند اقتراب النهر من مصباته في المغايض او البحار . ولليبروني ملاحظات بارعة اخرى تتعلق باختلاف توزيع اليابس والماء على مر الأزمان الجيولوجية . وملاحظاته تلك لا تختلف بشيء عن حقائق العلم الحديث ، قال : « لا ينتقل البحر الى البر والبر الى البحر في أزمنة ان كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة وان كانت بعده فغير محفوظة ، لان الاخبار تنقطع اذا طال عليها الامد وخاصة في الاشياء الكائنة جزءاً بعد جزء بحيث لا تظن لها الا الخواص . فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً فانكس حتى ان آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها فانها تبدي أطباقاً من تراب ورمال ورضراض ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع ان يحمل على دفن قاصريها هناك بل يخرج منها احجار اذا كسرت كانت مشتملة على اصداغ وودع وما يسمى آذان السمك أما باقية على حالها وأما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاء متشكلاً بشكلا» (٨٠) .

وقد اشتمل هذا الكلام أيضاً على اشارة ذكية الى أهمية الحفريات والتحجرات في تقرير تاريخ الصخور والطبقات الأرضية ، وهذا المبدأ من أهم مبادئ « علم الطبقات الأرضية » الحديث .

ولقد ساهم « اخوان الصفا » بدورهم مساهمة هامة في تنمية الجانب النظري في حقل الجيومورفولوجيا بأرائهم القوية عن العمليات الجيومورفولوجية . فقد أكدوا على أثر عامل التعرية والنحت في التضاريس الأرضية ، وبينوا اختلاف توزيع اليابس والماء على مر العصور الجيولوجية ، ووضحوا نشوء السهول الرسوبية البحرية ، وناقشوا مسألة تكون الجبال الالتوائية . وهكذا يتضح انهم قد اشاروا الى اهم النقاط التي يعنى علم الجيومورفولوجيا الحديث بدراستها . قال اخوان الصفا في رسالتهم الخامسة من (الجسمانيات الطبيعية) : « واعلم يا اخي ان الاودية والانهار كلها تبديء من

(٧٩) كتاب الهند ، لليبروني ، ص ١٥٧ .
(٨٠) راجع كتاب نفيس أحمد ، ص ٦٨ .

الجبال والتلال وتقر في مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران ، وان الجبال من شدة اشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الدهر تنشف رطوبتها وتزداد جفافاً ويساً وتنقطع وتنكسر وخاصة عند انقضاخ الصواعق وتصير احجاراً وصخوراً أو حصى ورمالاً . ثم ان الامطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال الى بطون الاودية والانهار ويحمل ذلك شدة جريانها الى البحار والغدران والآجام . وان البحار لشدة امواجها وشدة اضطرابها وفورانها تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافاً على ساف بطول الازمان والدهور وتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت في قعر البحار جبلاً وتلالاً كما تلبد من هبوب الرياح دعاص الرمال في البراري والقفار . واعلم يا اخي انه كلما انطمت قعورها من هذه الجبال والتلال التي ذكرنا انها تنبت ، فان الماء يرتفع ويطلب الاتساع وينسط على سواحلها نحو البراري والقفار ويغطيها الماء . فلا يزال ذلك دأبه بطول الزمان حتى تصير مواضع البراري بحاراً ومواضع البحار يمساً وقفاراً . وهكذا لا تزال الجبال تنكسر وتصير احجاراً وحصى ورمالاً تحطها سيول الامطار وتحملها الى الاودية والانهار يجريانها حتى البحار وتنعقد هناك كما وصفنا وتنخفض الجبال الشاخنة وتنقص وتقصر حتى تستوي مع وجه الارض . وهكذا لا يزال ذلك الطين والرمال تنبسط في قعر البحار وتلبد وتنبت عنها التلال والروابي والجبال ، وينصب من ذلك المكان حتى تظهر تلك الجبال وتنكشف هذه التلال وتصير جزائر وبراري ويصير ما يبقى من الماء في وهادها وقعورها بحيرات وآجاماً او غدراناً وينبت فيها القصب والوحال . فلا تزال السيول تحمل الى هنال الطين والرمال والوحول حتى تحف تلك المواضع وتنبت الاشجار والعكرش والعشب وتصير مواضع للسباع والوحوش . ثم يقصدها الناس لطلب المنافع والمرافق من الحطب والصيد وغيرها . وتصير مواضع الزروع والغروس والنبات بلداناً وقرى ومدناً يسكنها الناس» (٨١) .

وألف عمر الحيام الملقب بعمر العالم والمتوفي عام ٥٢٦ هجرية رسالة بعنوان « تراجع البحار » برهن فيها على تقلص البحار في جهات شرقي آسيا ، وأقام براهينه على ما تخلف في تلك الجهات من ينابيع ملحية وسبخات وكذلك على وجود بحر قزوين .

وساهم المسعودي أيضاً في الجانب النظري من حقل الجيومورفولوجيا . فقد أشار

(٨١) رسائل اخوان الصفا ، الجزء الثاني ، ص ٨١ - ٨٢ .

في موسوعته (مروج الذهب) الى مسألة اختلاف توزيع اليابس والماء عبر الازمان الجيولوجية والى نشوء السهول الرسوبية البحرية حيث قال : « فليس موضع البر ابدأ برأ ولا موضع البحر ابدأ بحرأ ، ويكون بحرأ حيث كان مرة برأ ، ويكون برأ حيث كان مرة بحرأ »^(٨٢) . كذلك أشار في كتابه (التنبيه والاشراف) الى أهمية اختلاف التضاريس الأرضية . فقد قال : « فجعل عز وجل منها انجداً ومنها اغواراً ومنها انشازاً ومنها مستوية . واما انشازها فمنها الجبال الشاخة ومنافعها ظاهرة في قوة وتحدر السيول منها فتنتهي الى الأرضين البعيدة بقوة جريها ولتقبل الثلوج فتحفظها الى ان تنقطع مياه الامطار وتذيبها الشمس فيقوم ما تحلب منها مقام الامطار . ولتكون الأكام والجبال في الارض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها واوديتها فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكناً ولتكن مقاطع ومقاتل وحواجز بين الارض من غلبة مياه الامطار عليها »^(٨٣) .

وقد وردت أيضاً في كتابات الفيلسوف ابن سينا بعض الملاحظات الجيومورفولوجية الهامة ، لا سيما ما يتعلق منها بتكون الجبال وبأهمية عوامل التعرية ، فقد اشار الى ان الجبال تنقسم الى نوعين ، نوع ينشأ بسبب حركات رافعة كتلك التي تسبب الزلازل ، ونوع ينشأ عن فعل الرياح والمياه الجارية^(٨٤) . ومن الواضح ان هذا التصنيف يقترب اقتراباً كبيراً من التصنيف الحديث للجبال . فالنوع الاول يدخل في صنف الجبال الالتوائية ، والنوع الثاني يدخل في صنف جبال التعرية . ولابن سينا ملاحظات هامة ايضاً عن أهمية عوامل التعرية ، فقد أكد بشكل خاص على بطء عملية النحت ، وعلى آثارها الطويلة الامد^(٨٥) . واذا علمنا ان النظرية المتعلقة بالتضاريس الأرضية التي سادت التفكير الجغرافي الجيولوجي حتى القرن السابع عشر كانت تؤمن بمبدأ « التغير السريع » أو « الثبات الدائم » في التضاريس الأرضية ، ادركنا أهمية الفكرة التي أكد عليها ابن سينا .

كذلك اهتم ابن سينا بتصنيف الصخور ، حيث صنفها الى صخور رسوبية وصخور نارية ، وشرح كيفية تكون كل منها ، وما يمر بكل منها من عمليات جيولوجية ، وقد

(٨٢) مروج الذهب ، للمسعودي ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٨٣) التنبيه والاشراف ، للمسعودي ، ص ٢٥ .

(٨٤) قشرة الارض - للدكتور محمد صفي الدين ، منشورات مكتبة مصر ، ص ٩ .

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٩ .

قاد هذا الاهتمام بعض العلماء العرب الى دراسة المعادن وتصنيفها حسب خصائصها الطبيعية والكيميائية .

أما الظواهر الجيولوجية الاخرى كالزلازل والبراكين فلم ترد عنها في ابحاث الجغرافية العربية الا اشارات خاطفة . ولعل أهمها تلك التي وردت في (رسائل اخوان الصفا) فقد اشاروا الى ظاهرة البراكين على النحو التالي : « واعلم ان في بعض المواضع يرى من بعيد على رؤوس الجبال ويطون الاودية نيران وضياء بالليل ودخان معتكر ساطع في الهواء ومرتفع في الجو ، وعلته ان في جوف الجبال كهوفا ومغارات وأهوية حارة ملتهبة تجري اليها مياه كبريتية او نفطية دهنية فتكون مادة لها رائحة وهي مثل التي بجزيرة صقلية وبجبل مزهر من خوزستان »^(٨٦) .

كذلك فسروا ظاهرة الزلازل على النحو التالي : « واما الكهوف والمغارات والاهوية التي في جوف الارض والجبال اذا لم يكن لها منافذ تخرج منها المياه بقيت تلك المياه هناك محبوسة زمناً . واذا حي باطن الارض وجوف تلك الجبال سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً ، وارتفعت وطلبت مكاناً اوسع . فان كانت الارض كثيرة التخلخل تحللت وخرجت تلك البخار من تلك المنافذ . وان كان ظاهر الارض شديد التكاثف حصيناً منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج في تلك الاهوية لطلب الخروج وربما انشقت الارض في موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوي وهدة وزلزلة . وان لم تجد لها مخرجاً بقيت هناك محتبسة ، وتدموم تلك الزلزلة الى ان يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ »^(٨٧) .

وقد أشار اخوان الصفا ايضاً اشارة سريعة الى اختلاف انواع الجبال من حيث طبيعة تكوينها حيث قالوا : « واعلم ان الجبال التي ذكرناها منها ما هو صخور صلبة وحجارة صلبة وصفوان املس فلا ينبت عليه النبات الا شيء يسير مثل جبال تهامة . ومنها ما هو صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصاة مختلفة متلبدة ساف فوق ساف متماسك الاجزاء ، وهي مع ذلك كثيرة الكهوف والمغارات والاودية والاهوية والعيون والجداول والانهار والاشجار كثيرة النباتات والحشائش والاشجار مثل جبال

(٨٦) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٤ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

تلك هي أهم المواضيع الطبيعية التي طرقتها الجغرافية العربية ، وقد تناولت كما
وضحنا أهم النقاط التي تعالجها الجغرافية الطبيعية بمفهوم لا يختلف كثيراً عن المفهوم
الحديث .

الفصل الرابع

في أدب الرحلات الجغرافي

مما لا ريب فيه أن « الرحلات » كانت منذ بداية التفكير الجغرافي من أهم
وسائل المعرفة الجغرافية ، وظلت « الاداة » الرئيسية للجغرافي حتى نهاية القرن الماضي .
فالجغرافيون اليونانيون والرومانيون الكبار أمثال اراتوستيني وسترابو وبلييني وبطليموس
قد استعانوا بالرحلات استعانة كبيرة في جمع معلوماتهم الجغرافية ، وكذلك فعل
الجغرافيون المسلمون الكبار أمثال اليعقوبي والاصطخري والمقدسي وابن حوقل
والمسعودي والادريسي . ولقد ظل الكشف الجغرافي المعتمد على
النجربة الشخصية من ابرز متطلبات الجغرافي
الاوربي لغاية بداية القرن العشرين حيث تمّ الكشف عن جميع مجاهل الارض عدا
أجزاء قصية محدودة منها . وقد اعتمد رواد الجغرافية العلمية الحديثة من أمثال
همبولدت HUMBOLDT وريتزر RITTER وراتزل RATZEL وفيدال دي لابلاش
VEDAL DE LA BLACHE على الرحلات الشخصية اعتماداً كبيراً .

أما ما يتعلق بالجغرافية العربية فكانت الرحلات تمثل في الحقيقة الهدف المركزي
لها والعدة الأساسية للجغرافي ، ولا نكاد نلتقي بأي جغرافي عربي مرموق لم يكن قد
اعتمد في كتاباته اعتماداً أساسياً على رحلاته الشخصية ، عدا بعض جغرافيين العصور
المتأخرة . فالجغرافيون العرب والمسلمون عموماً هم « رحالة » أصلاً . وكانت الظروف
المادية عوناً لهم على القيام برحلاتهم الواسعة ضمن رقعة العالم الاسلامي الشاسعة التي
كانت تربط بين أجزائها وحدة سياسية ودينية ولغوية . غير اننا لا بد أن نميز بين
صنفين من الرحالة ، صنف يطوف البلدان لهدف علمي وذلك لكي يسجل المعلومات
الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية عنها تسجيلاً أميناً ، وينتمي الى هذا الصنف

الجغرافيون العلميون وصنف يسوح في الأمصار لغرض سياسي أو تجاري أو ديني ، ثم يدون ملاحظاته ومشاهداته في كتاب ، وينتمي الى هذا الصنف الرحالة الادباء ، حيث يغلب على هذا الضرب من « الرحلات » الطابع الأدبي . ومع أن كتابات كل من هذين الصنفين تؤدي في النهاية الى زيادة حصيلة المعلومات الجغرافية ، الا أن من الواضح ان هناك فروقاً جوهرية تميز بينهما ، فكتابات الرحالة الجغرافي تحمل بذور « البحث العلمي » ، بما تنطوي عليه من استقصاء وبحث دائمين ، وملاحظاته تشمل كل ناحية من نواحي البلاد التي يحل فيها طبيعية كانت أم بشرية أم اقتصادية . أما كتابات الرحالة الاديب فذات أفق محدود وهي تكتفي بتسجيل مشاهد عابرة وملاحظات شاردة . فلا يمكننا إذن أن نطالب الرحالة بمثل ما نطالب به الجغرافي من دقة علمية واستقصاء عميق ، وغاية ما يطالب به أن يكون أميناً في نقل المشاهد التي تقع تحت أبصاره وان يرصد أكبر عدد منها مما يمكن ان يكون ذا فائدة علمية .

واذا كان أدب الرحلات الجغرافي قد ظهر بصورة مبكّية في ميدان الجغرافية العربية ، فإنه لم يظهر كحقل متميز ذي سمات خاصة إلا في منتصف القرن السادس الهجري . ويعتقد كراتشوفسكي ان أولى المصنفات التي يمكن أن تكون بداية لهذا الضرب من الأدب الجغرافي هو كتاب الفقيه الاندلسي أبو بكر محمد بن العربي (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م - ١٠٧٦ / ٥٤٣) المسمى (ترتيب الرحلة) وأن مؤلفه هو واضع أصول هذا الفن^(١) ، غير أن من المتفق عليه بين الباحثين أن ابن جبير هو الاب الشرعي لهذا النمط من الفنون الادبية الجغرافية .

ومنذ البداية تفوّق المغاربة على المشاركة في هذا النوع من الكتابة . فما عدا نفر قليل جداً من المشاركة الذين اشتهرت (رحلاتهم) في العهود التالية ، كالسائح الهروي ، فان قائمة الرحالة المغاربة المشهورين تضم اسماءً عديدة من أمثال ابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد والعبدري والتجاني وغيرهم . ويمكننا ان ندرك سبب تفوق المغاربة في هذا الفن فيما لو بحثنا عن المحرك الرئيسي لتلك الرحلات . فلقد ذكر لنا جميع اولئك الرحالة بان هدفهم الاساسي كان حج بيت الله الحرام والدراسة على أيدي علماء الفقه المشهورين . وكانت مراكز العلوم الرئيسية مبنوثة في جهات المشرق العربي

(١) كراتشوفسكي ، ص ٢٩٨ .

ولا سيما في بغداد ودمشق والقاهرة ، كما أن الوصول الى مكة المكرمة والمدينة المنورة كان يتطلب اجتياز بلدان عربية واسلامية عديدة . وكان الحاج كثيراً ما يتخلف في تلك المراكز يغترف فيها من مناهل العلوم الشرعية والأدبية على أيدي علماء عصره ، وكان يحاول أثناء ذلك تقييد مقابلاته مع أولئك العلماء بالاضافة الى تسجيل مشاهداته في البلدان التي مر بها أو عاش فيها بعض الوقت . وبما أن الغرض الديني كان هدفه الاساسي ، لذلك حفلت تلك « الرحلات » بأنباء الفقهاء المشهورين والاولياء وأصحاب الكرامات ، وازدحت باخبار المزارات والمساجد والمشاهد الدينية المشهورة . وكان الرحالة يتنافسون في ذكر أكبر عدد ممكن من الفقهاء والعلماء ورجال الدين الذين التقوا بهم ، وفي تعداد المساجد والمزارات التي شاهدوها . وقد لقيت كتاباتهم ذات النزعة الدينية اقبالا من جمهور القراء الذي كانت تغلب عليه الروح الدينية ، بالاضافة الى ما يتميز به هذا النوع من الكتابة من اثارة وتسليية . وقد شجع هذا الاقبال اولئك الرحالة على التركيز على النواحي الدينية وإهمال المواضيع الاخرى ذات الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، بل وإغفال الحديث عن المعالم الطبيعية للبلدان والمدن الا فيما ندر . كما ان البعض منهم اتجه بفن الرحلة اتجاها كوزموغرافيا ، وذلك بحشدها بمجموعة عظيمة من العجائب والغرائب ، وخصوصاً ذات الصفة الدينية ، استجلاباً لاعجاب الجمهور ومماشة للتفكير الديني السطحي السائد .

وبالنظر للاهمية الجغرافية لهذا الضرب من الفنون الادبية فلا بد لنا أن نقدم لدارسي الجغرافية العربية فكرة واضحة عنه . وخير ما نفعله في هذا الباب تقديم دراسة وافية عن أشهر رحلتين في الادب الجغرافي العربي وهما (رحلة ابن جبير) و (رحلة ابن بطوطة) واللذان يمثلان القمة في هذا الميدان . أما الرحلات المشهورة الاخرى فسنمر عليها مرأسرياً محاولين ايضاح أبرز مقوماتها .

رحلة ابن جبير

لقد أصاب ابن جبير شهرة واسعة في أدب الرحلات العربي على الصعيد الأكاديمي حتى لقد اعتبر بعض الباحثين (رحلته) أرقى ما وصل إليه أدب الرحلات الجغرافي العربي^(١).

ولقد استغرقت رحلته الأولى حوالي سنتين وثلاثة أشهر بدأها في يوم الاثنين التاسع عشر من شوال عام ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) وختمها في يوم الخميس الثاني عشر من محرم عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م). ولقد غادر غرناطة إلى سبتة ثم استقل منها مركباً جنوباً فوصل إلى الإسكندرية بعد حوالي شهر. وسافر منها إلى القاهرة قاصداً ميناء عيذاب على البحر الأحمر، فمر بمنفلوط وأسيوط وأخميم وقنا وقوص. ومن عيذاب استقل مركباً من مراكب البجا إلى جدة. وأقام في مكة حوالي تسعة أشهر، وبعد فراغه من أداء الحج غادرها بصحبة موكب الحج العراقي ماراً بالمدينة المنورة، واجتاز الموكب الصحراء النجدية حتى وصل إلى الكوفة، ثم مر بالحلة فيبغداد. ومكث ابن جبير في بغداد حوالي أسبوعين ثم واصل سفره إلى بلاد الشام، فمر بتكريت وسامراء والموصل ونصيبين وحران حتى بلغ حلب. وزار من مدن الشام حمص وحما وبيانياس وصور، وأقام في دمشق حوالي شهرين ونصف، ثم استقل مركباً مسيحياً حمله إلى بلده. واجتاز في طريقه جزيرة صقلية، حيث اضطر إلى النزول إلى برّها والبقاء فيها لبضعة أيام.

تلك هي الرحلة التي سجل فيها ابن جبير مشاهداته، وهي رحلته الأولى إلى بلاد الشرق العربي. وقد قام برحلتين أخريين لم يدون أخبارهما، الأولى حينما أعاد

(٢) حسين مؤنس، ص ٣٨٤.

صلاح الدين فتح بيت المقدس. وقد بدأها عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وختمها عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م، والثانية حينما توفيت زوجته عائكة أم المجد فحزن عليها حزناً شديداً وهجر موطنه عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م، وظل ينتقل بين فاس وسبتة والإسكندرية مزاوياً للتدريس حتى توفي عام ١٢١٧ م ودفن في الإسكندرية^(٣). ويعتقد بعض الباحثين أن مسجد سيدي جابر بالإسكندرية ربما كان مسجده وقد حرف العامة اسمه مع الزمن^(٤).

ويقول محقق (الرحلة) الدكتور حسين نصار أن عنوانها غير متفق عليه، فهو في المخطوط يتبدى بعبارة (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) وينتهي بعبارة (كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)^(٥). وما يضاعف صعوبة التوصل إلى عنوانها الحقيقي أن محققها ونشرها الأصلي وهو 'رايت William Wright (١٨٥٢) لم يعثر إلا على نسخة خطية واحدة (وهي محفوظة في مكتبة جامعة لندن)^(٦)، وقد كتبها في مكة عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشي عام ٨٧٥ هـ وربما نقلها عن نسخة مغربية^(٧). لذلك فضل رايت أن يختار للرحلة عنواناً عاماً فجعله (رحلة ابن جبير)^(٨). وقد جدد رايت تحقيق الرحلة فيما بعد وساهم معه مستشرقون آخرون، وأعاد دي غويه De Gaeje طبعها عام ١٩٠٧ م. أما الطبقات التي ظهرت في العواصم العربية فقد نقلت عن الطبقات الأوروبية، وقد تولى تحقيقها مجدداً الدكتور حسين نصار ونشرها في القاهرة عام ١٩٥٥.

ولكي نقيّم الرحلة تقييماً صحيحاً ونحدد مكانتها بين الرحلات السابقة واللاحقة فسنتناول بالدرس النقاط التالية:

أولاً - ثقافة الرحالة وأثرها في الرحلة.

ثانياً - أهداف ومضامين الرحلة.

(٣) نفيس أحمد، ص ٧٩.

(٤) الرحلات - بإشراف الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦ (فنون الأدب العربي - الفن القصصي)، ص ٧١.

(٥) رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار، مكتبة مصر بالقاهرة، ١٩٥٥، ص: هـ.

(٦) يقول كراتشكوفسكي أنه عثر على مخطوطة أخرى للرحلة في مدينة فاس (كراتشكوفسكي ص ٣٠٠).

(٧) المصدر السابق، ص: و.

(٨) يعتقد كراتشكوفسكي أن عنوانها ربما كان (رحلة الكنانى) (كراتشكوفسكي ص ٣٠٠).

ثالثاً - قيمة الرحلة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ومكانتها في الأدب الجغرافي العربي .

أولاً - ثقافة الرحالة وأثرها في الرحلة :

تكشف حياة ابن جبير عن اهتمامات مبكرة بحقلين هما علوم الدين والحديث وعلوم اللغة والأدب . وقد أخذ علوم الدين عن أبيه وعن آخرين ، أما علوم العربية والأدب فقد درسها على أيدي جبهة كبيرة من العلماء^(٩) . وقد هيا له تحصيله العلمي أن يتبوأ مركزاً طيباً بين كتاب بلده مما دعا حاكم غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن إلى اختياره كاتباً له .

ولقد طبع هذا الانصراف إلى التحصيل العلمي ذهنية ابن جبير بطابع معين انعكست آثاره على « الرحلة » في جانبين ، جانب يمس أسلوبها والآخر يتصل بمنهجها ومواضيعها .

قأماً أسلوب « الرحلة » فيكاد يجمع الباحثون أنه من أفضل أساليب كتب الرحلات العربية القديمة ، إذ أن ابن جبير كان يعنى بلغته وتصويره عناية فائقة . ولقد اعتبرها كراتشكوفسكي ذروة ما بلغه غط « الرحلة » في الأدب الجغرافي العربي من الناحية الفنية^(١٠) . والواقع أن ابن جبير كان بتصويره الحي الجذاب أقرب إلى فنان بارع منه إلى رحالة اعتيادي . وبالرغم مما كان يشوب أسلوبه من سجع متكلف أحياناً ، وهي إحدى سمات الكتابة الأدبية في ذلك العصر ، لكنه يكشف في الوقت ذاته عن التفاتات رائعة تتم عن موهبة أدبية أصيلة . ومن أمثلة أوصافه الرائعة تصويره للعاصفة البحرية التي عصفت بمركبهم بين صور وصقلية^(١١) ، وحديثه عن أهوال عبور البحر الأحمر (بحر فرعون)^(١٢) ، ووصفه للمخاطر التي ألت بمركبهم عند انطلاقه من سبتة^(١٣) . وتبرز براعته الفنية أيضاً في وصفه للمدن الكبرى وصفاً حياً ودقيقاً وواضحاً ، إلا أن اهتمامه بالجانب الأدبي قد جاء في بعض الحالات على حساب

(٩) راجع المصدر السابق ، ص : ج .

(١٠) كراتشكوفسكي ، ص ٣٠١ .

(١١) رحلة ابن جبير ، منشورات دار التراث - بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

الجانب الجغرافي . فكثيراً ما ألحق بالمدن أوصافاً لا تساعد بأية حال من الأحوال على توضيح معالمها الجغرافية وإن كانت ذات نكهة أدبية جذابة . مثال ذلك مقدماته في وصف بغداد ودمشق وحلب . قال يصف بغداد :

« هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه أنحت الحوادث عليها والتفات أعين النوايب اليها كالطلل الدارس ، والائر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقل والنظر الا دجلتها التي هي بين شريقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهي ترددها ولا تظماً وتسطلح منها في مرآة صقيلية لا تصدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ، ففتن الهوى الا ان يعصم الله منها مخوفة »^(١٤) .

ولقد أغرى نجاح ابن جبير من الناحية الفنية عدداً من الرحالة والكتاب على اقتباس اجزاء من رحلته وتضمينها كتبهم ورحلاتهم ، ولا سيما ما يتعلق بوصف المدن ، ومن أمثلتهم الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي اقتبس وصف الاسكندرية وبغداد ودمشق ووصف الطريق بين المدينة والكوفة .

وأما منهج الرحلة ومواضيعها فيتجلى فيها تأثير ابن جبير بالروح العلمية . فهو لم يلجأ إلى املاء رحلته من الذاكرة ، كما فعل ابن بطوطة مثلاً ، بل أخذ على نفسه تسجيل مشاهداتها يوماً بيوم ، فجاءت أقرب إلى مذكرات يومية منها إلى رحلة سردية . ولم يكن يكتفي بذكر الشهر فحسب ، بل كان ينص على اليوم بل والساعة في غالب الاحيان . وقد حافظ بهذه الطريقة على دقة مشاهداته وانطباعاته مما جعل (رحلته) وثيقة تاريخية أمينة .

ويبرز تأثره بالروح العلمية أيضاً في تجنبه المسالغات بصورة عامة ، ما يتصل منها بمشاهداته أم بالمصاعب التي تعرض لها أثناء السفر . فنحن لا نواجه في رحلته أية مشاهد غريبة يرفضها العقل ، كما اننا لا نقرأ أي حديث عن مصاعب غير واقعية . وقد تفوق ابن جبير في هذه المزية على كثير من الرحالة السابقين واللاحقين الذين

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

انزلقوا الى المبالغات في حكاياتهم بوعي أو بغير وعي ، وتلك آفة من أكثر آفات الرحالة شيوعاً . ومع ذلك ، فلم ينبج من الوقوع في شرك المبالغات أحياناً ، لا سيما ما يتعلق بالاطراء على جمال بعض المدن أو تعداد ما فيها من مدارس ومساجد ورسوم دينية .

كذلك تتجلى روحه العلمية في حديثه الصريح عن العلاقات الطبية بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام بالرغم من حالة الحرب القائمة يومذاك بين صلاح الدين والصليبيين وقد صورها ، وهو المسلم المتدين ، تصويراً أميناً صادقاً . بل لقد ذكر بأن أحوال الفلاحين المسلمين في بعض جهات بلاد الشام التي يسيطر عليها المسيحيون هي أفضل من حال اخوانهم في المناطق التي يحكمها حكام مسلمون^(١٥) . ولدى مروزه بصقلية أشاد بمعاملة ملكها وليم الثاني لرعاياه من المسلمين^(١٦) .

وانطلاقاً من روحه العلمية أيضاً فقد تجنب رواية أية حكاية يرفضها العقل والمنطق ، مما جرد رحلته من الخرافات والاساطير التي تحفل بها العديد من كتب الرحالة الآخرين ، وجعل السمة الرئيسية لها الواقعية في المشاهد والاحداث . وفي الحالات القليلة التي أورد فيها بعض الروايات الغريبة المتداولة سارع الى تصحيحها أو رفضها كلياً . إذا كانت مجافية للمنطق . وخير مثال يوضح رفض ابن جبير للخرافات قصة فيضان بئر زمزم . فقد سمع اثناء وجوده في مكة بأن مياهها تزداد زيادة ملحوظة في أول جمعة من شهر شعبان ، باعتباره شهراً مباركاً ، وهو أمر كان يدعو أهالي مكة الى التبرك بمياهها في ذلك اليوم . فوجد تلك الحكاية مجافية للمنطق ، وعزم مع جماعته على امتحان صحتها . وقاموا بقياس ارتفاع المياه في البئر فظهر لهم بالبرهان أن الحكاية مختلقة من أساسها^(١٧) . ولعل الحكاية الغريبة الوحيدة التي اثبتتها في رحلته دون معارضة هي تلك المتعلقة بدار أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد رواها على النحو التالي : « ومن مشاهدنا (مكة) أيضاً دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي اليوم دارسة الاثر ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه ، يقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه . وذكر انه جاء يوماً صلى الله عليه وسلم الى دار أبي بكر رضي الله عنه فتأدى به ولم يكن حاضراً ، فأنطق الله عز وجل

(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الحجر المذكور وقال : يا رسول الله ليس بحاضر^(١٨) . ومع ذلك فهذه الحكاية تختلف عن غيرها من الحكايات باعتبارها تتعلق بقدرة الله .

ومما يتماشى مع روحه العلمية انه ، خلافاً لكثير من الرحالة المسلمين ، لم يحفل بأخبار الاولياء والدراويش والزهاد وكراماتهم ، ولم يشر اليهم الا عرضاً كظاهرة من الظواهر الدينية الشائعة يومذاك .

الروح العلمية اذن تطبع « الرحلة » بطابع الصدق والدقة . ولا مجال للقول بأن عواطف ابن جبير كانت تؤثر في أحكامه كما زعم بعض الباحثين^(١٩) . فاذا وردت في (رحلته) بعض عبارات الاعجاب أو الاستنكار بشكل مبالغ فيه ، فذلك أمر لم يؤثر على دقة أحكامه وأوصافه بأي حال من الأحوال .

ثانياً - أهداف ومضامين « الرحلة » :

يروى مؤرخو ابن جبير انه بينما كان ذات يوم في مجلس حاكم غرناطة يأخذ عنه ، وكان الحاكم مقبلاً على شرايه ، ملاً كأساً فقدمها له ، فاعتذر بأنه لم يمسه قط ، لكن الحاكم أصر ، فاحتسأها على مضض . وقد كافأه الحاكم بسبعة كؤوس متربعة بالدنانير ، فأضمر أن يكفر عن خطيئته بحج بيت الله الحرام ، وهكذا نبئت فكرة الرحلة نحو الشرق في ذهنه . فالهدف الأول من « رحلته » اذن كان حج بيت الله الحرام ، أي ان الدافع الديني كان أقوى دوافع خلق الرحلة . ولكن هل كان الدافع الديني هو الوحيد الذي خامر ابن جبير ؟ من الواضح أنه فكر منذ البداية بتأليف كتاب يروي فيه مشاهداته في ديار المشرق ، ولا سيما الديار الحجازية ، بالإضافة الى تحقيق هدفه في حج بيت الله الحرام ، لهذا نراه قد بدأ بتسجيل خواطر ومشاهدات رحلته منذ اليوم الاول . فهو يفتتح (رحلته) بالقول : « ابتدئ بتقديدها يوم عرفنا الله السلامة بمنه »^(٢٠) . وبما ان ابن جبير رحالة مثقف فلا ريب انه قد اطلع على كتب الجغرافيين السابقين وتأثر بها . ومما يدل على ذلك حديثه عن مدينة سامراء التي أشار اليها بقوله : « وهي مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا

(١٨) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(١٩) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، ص : ٥ .

(٢٠) رحلة ابن جبير ، منشورات دار التراث ببيروت ، ص ٧ .

بعض جهات منها هي اليوم معمورة . وقد أطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حبتها (٢١) .

غير انه - بطبيعة ثقافته وهدفه - لم يكن ينوي ان يجعل رحلته كتاباً جغرافياً من نوع كتب الادريسي والبكري والغرناطي وغيرهم من جغرافي المغرب ، بل كان يهدف الى جعلها كتاباً ادبياً ذا قيمة دينية يشتمل على مشاهدات وانطباعات شخصية عن ديار المشرق . وهذا يفسر لنا تركيز « الرحلة » على نواحي معينة وأغصانها عن نواحي أخرى لم يكن يجدر برحالة مثقف اهلها . فقد عنت « الرحلة » بالامور الثقافية عموماً ، والنواحي الدينية منها على الخصوص ، واهملت ذكر الاوضاع الاجتماعية والاحوال الاقتصادية ولم تشر اليها الا عرضاً . أما المعالم الجغرافية والمشاهد الطبوغرافية فلم تدخل في اهتمامات رحالتنا على الاطلاق . وقد كرس ابن جبير بالفعل ما يقرب من ثلث رحلته للحديث عن المدينتين المقدستين مكة والمدينة وعن مشاهدتهما الدينية وعن مناسك الحج وشعائره . وكان يبادر في كل بلد بحل فيه الى تفقد المشاهد الدينية وإلى لقاء العلماء والوعاظ وتقصي اخبارهم ومجالسهم . وقد اضعفت اهتمامات ابن جبير هذه القيمة الجغرافية والانثروبولوجية لرحلته ، لكنها جعلت منها في الوقت نفسه وثيقة تاريخية هامة للاحوال الثقافية والسياسية لبلدان المشرق العربي في ذلك العصر . ويمكن أن تتجلى أهداف « الرحلة » في استعراض مضاميتها واستخلاص معلوماتها عن كل بلد تناولته بالبحث .

١ - الرحلة المصرية :

عني ابن جبير خلال تجواله بين المدن المصرية بأمرين رئيسيين هما تتبع الرسوم الدينية ووصف معالم الآثار القديمة ، كما بذل اهتماماً خاصاً بطبيعة الحكم السائد في البلاد . أما الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فلم ترد في أحاديثه الا عرضاً . ولعل أهم اشاراته ذات العلاقة بالاحوال الزراعية هي شرحه لفيضان النيل وتوضيح علاقة ذلك بالصرايب على المحاصيل الزراعية (٢٢) . وقد أشار أيضاً اشارة عابرة الى ازدهار الزراعة وازدهام السكنى على ضفتي النيل ، حيث ذكر وهو في طريقه من الاسكندرية الى القاهرة بأن المنطقة كلها أرض محروثة يعمها النيل بفيضه والقرى فيها يمينا وشمالا لا

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

تحصى كثرة (٢٣) . كذلك علق على الطريق بين القاهرة والصعيد بقوله ان القرى فيه متصلة على شطي النيل علاوة على المدن الكبيرة (٢٤) .

وتخلو الرحلة المصرية ، فيما عدا هذه الاشارات العابرة ، من أي حديث صريح عن الوضع الزراعي في البلاد . أما الصناعات فلم يرد لها أي ذكر على الاطلاق . وقد وردت اشارة عابرة الى حالة التجارة اثناء وصفه للطريق بين قوص وعيذاب حيث قال : « ورمنا في هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذبية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب . وأكثر ما شاهدناه من ذلك احمال الفلفل ، فلقد خيل لنا لكثرتة انه يوازي التراب قيمة » (٢٥) :

وقد شكنا ابن جبير من صرامة التفتيش الكمركي في الثغور المصرية مما ينم عن اهمية الدور الذي تلعبه التجارة في حياة البلاد الاقتصادية . وأكد بشكل خاص على اجراءات التفتيش في ميناء الاسكندرية ، وكذلك على دقة التفتيش لمراكب المسافرين في نهر النيل . وبالرغم من ان ابن جبير يقطع بأن السلطان صلاح الدين الايوبي لا يدري بمثل تلك الاجراءات الصارمة والا لأبطلها ، الا ان من الواضح ان الضرائب الكمركية كانت تشكل مورداً مهماً من موارد الدولة تستحق العناية والاهتمام ، وهو أمر ينبىء عن ازدهار تجاري .

أما الاحوال الاجتماعية فلا تتناولها (الرحلة) الا من جانب واحد هو الجانب الديني ، بينما لا نجد اية اشارات الى جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى من عادات وتقاليد ومستوى المعيشة . وهناك تأكيد واضح على سيادة الروح الدينية بين الناس ، فثمة عدد هائل من الجوامع والمساجد والمشاهد الدينية وقبور الشهداء والاولياء . ويؤكد ابن جبير بصدد حديثه عن الاسكندرية انها أكثر بلاد الله مساجد ، وان بعض المبالغين يقدرون عددها بأثني عشر الف مسجد ، وان في غالبيتها أئمة تدفع لهم الدولة أجوراً شهرية (٢٦) . أما عن القاهرة فقد ذكر ان مساجدها لا يحصيها العد ،

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٧ .
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وان الدولة تتولى الاتفاق عليها بسخاء . « وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي اليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الاموال »^(٢٧) . ويبدو ان هناك غرضاً سياسياً في تشجيع الدولة للشؤون الدينية والاتفاق عليها بسخاء ، وهو كسب ولاء رجال الدين وابناء الشعب لتثبيت دعائم الحكم الجديد بعد اسقاط الدولة الفاطمية . وكان رجال الدين يلعبون دوراً مهماً في ذلك الاسناد ، اذ ان خطباء الجوامع كانوا - كما أشار ابن جبير - يستفتحون خطبهم بالدعاء للحكم الجديد^(٢٨) .

ويستأثر الجانب الثقافي باهتمام ابن جبير على اختلاف وجوهه ، فهو دائم السؤال عن المدارس والمارستانات (المستشفيات) والآثار التاريخية ، وان رحلته المصرية غنية بالمعلومات في هذا الحقل أكثر من أي جزء آخر من أجزاء رحلته . فلدى حديثه عن الاسكندرية اهتم اهتماماً خاصاً بمنارتها ووصفها وصفاً مسهباً^(٢٩) . واشادة بكثرة المدارس فيها واعتبرها مفخرة من مفاخر المدينة . « وهي مدارس لاهل الطب والتعبء يقدون اليها من الاقطار النائية فيلقى كل واحد مسكناً يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه واجراء يقوم به في جميع أحواله »^(٣٠) .

أما القاهرة فقد سجل لنا عنها صورة ثقافية حية وشاملة للغاية ، فقد تناول بالوصف جميع مشاهداتها الدينية والثقافية والتاريخية . فوصف بأسهاب مسجد سيدنا الحسين ، وقلعة القاهرة ، والاهرام التي سماها (معجزة البناء) . وأولى اهتمامه مارستان القاهرة فحدثنا عنه بالتفصيل ، وكان يحتل قصراً من القصور الفخمة ، وقد خصص جزءاً من هذا المستشفى للنساء ، وخصص جزءاً آخر للمجانين^(٣١) . وأشار الى وجود مستشفى آخر في القاهرة على غرار المستشفى المذكور .

ويتجلى اهتمام ابن جبير بالمعالم الثقافية بشكل أوضح اثناء تنقله بين المدن المصرية الواقعة على ضفتي النيل . وبالرغم من انه يعتذر عن عدم امكانية الحديث عن

جميع الآثار على ضفتي النهر وانه يقصد الى الاكبر والاشهر ، الا انه مع ذلك أفاض في وصف الآثار البارزة الفرعونية منها والاسلامية . وفضلاً عن اشارته الى الآثار الثانوية فقد وصف بأسهاب المعابد الفرعونية بجوار مدينتي اخميم واسيوط ، وكان وصفه على جانب عظيم من الدقة مما يكسبه اهمية خاصة في حقل الدراسات الاركيولوجية .

وتكتسب رحلة ابن جبير المصرية اهمية خاصة من وجهة النظر التاريخية ، فهي سجل حي لسيرة صلاح الدين الايوبي في مصر . وبالرغم من ان ابن جبير يبدو متحسماً لصلاح الدين ، ربما لتأثره بما لمسه من احتفاله بالشؤون الدينية ، أو ربما لعنايته بالمغاربة ، الا انه لم يفقد صفة الحيادية في احكامه . ولعل ابرز ما حققه صلاح الدين لمصر مدة حكمه هو الاستقرار والاطمئنان ، فقد علق ابن جبير على الحياة في الاسكندرية بقوله : « ومن الغريب ايضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم في النهار في جميع احوالهم »^(٣٢) . وقال في موضع آخر : « ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ان الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على مثل ذلك شاهدنا احوالهم بمصر والاسكندرية »^(٣٣) .

ومنذ دخل ابن جبير مدينة الاسكندرية شرع بالحديث عن مناقب السلطان صلاح الدين . فحدثنا عن اهتمامه بالغرباء وتعيينه المدارس والاطباء لهم ، بل وحتى الحمامات التي يستحمون فيها ، كما حكى لنا عن اهتمامه بالمغاربة وتعيينه رغيفين من الخبز لكل منهم يومياً . وختم حديثه عنه بقوله : « ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة »^(٣٤) .

وأثناء وجوده في مدينة القاهرة عاد الى الحديث عن اهتمام صلاح الدين بأمور الدين وسخائه في الاتفاق على المساجد والجوامع والمدارس ، وقدر مجموع ما ينفق على تلك الجوامع والمدارس بما ينيف على ألفي دينار مصرية في الشهر^(٣٥) .

وروى لنا أيضاً منجزاته الأخرى ومنها اقامة مارستان القاهرة وبناء قناطر بغربي

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

مصر للدفاع عن شمالي البلاد ، وبناء قلعة القاهرة لاعدادها مسكناً له . وضرب لنا أمثلة من عدله بإزالة المكس المضروب على الحجاج مدة دولة الفاطميين . والواقع ان ابن جبير كان يتغنى باسم صلاح الدين طيلة (الرحلة) فقد عاد الى الحديث عنه اثناء الرحلة الحجازية واثناء الرحلة الشامية بشكل خاص واثني عليه عاطر الشاء .

أما أوصاف المدن المصرية فهي لا تنفع الجغرافيين كثيراً ، فقد اهتم ابن جبير بوصف المعالم الثقافية أكثر من اهتمامه بالمعالم الجغرافية . فقد وصف مدينة الاسكندرية على النحو التالي : « فأول ذلك حسن موضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا اعتق ولا أحفل منه ، واسواقه في نهاية الاحتفال أيضاً . ومن العجب في وصفه ان بناءه تحت الأرض كبنايه فوقها واعتق وامتن لان الماء من النيل يتحرق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فيتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً . وعائنا فيها أيضاً من سواري الرخام وألواح كثره وعلوا واتساعاً وحسناً ما لا يتخيل يالوهم حتى انك تلقى في بعض الممرات بها سواري يغض الجو بها صعوداً لا يدرى ما معناه ولا لم كان أصل وضعها . وذكر لنا انه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم ويشبه ان يكون ذلك للرصد . ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، ولولاه ما اهتمدوا في البحر الى بر الاسكندرية يظهر على ازيد من سبعين ميلاً . ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً يزاحم الجو سما وارتفاعاً يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع » (٣٦) .

ومن الواضح ان الصورة الجغرافية للمدينة باهتة تماماً ، وان ابن جبير كمعاده قد ركز على الآثار والمعالم الثقافية . أما مدينة القاهرة فلم يقدم لها أي وصف جغرافي واضح بل استعرض مساجدها ورسومها الدينية وآثارها القديمة والاسلامية . كذلك وصف بعض احيائها وصفا موجزاً ، مثال ذلك وصفه لحى (الروضة) بقوله « وعلى شط نيلها مما يلي غربها والنيل معترض بينها قرية كبيرة حافلة ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجتمعة اللهو والنزهة وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له . وهذه الجزيرة مسجد

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٣ - ١٤ .

جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه زيادة النيل عند فيضه كل سنة » (٣٧) .

ووصف ابن جبير المدن الواقعة على ضفتي النيل وصفاً موجزاً . فقال عن مدينة منفلوط : « وهي بمقربة من الشط الغربي ميامنا للمصاعد في النيل فيها الاسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق ، وهي بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها ، وقمحتها يجلب الى مصر لطيفة ورزانه حبه قد اشتهر عندهم بذلك فالتجار يصعدون المراكب لاستجلابه » (٣٨) .

وقال عن مدينة اسيوط : « وهي من مدن الصعيد المشهورة بينها وبين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال ، وهي جميلة المنظر حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق » (٣٩) .

وقال عن مدينة قنا : « وهي من مدن الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان حافلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة . . . وهذه المدينة المذكورة في الشط الشرقي من النيل وبينها وبين قوص نحو البريد » (٤٠) .

وقال عن مدينة قوص : « وهذه المدينة حافلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين وتجار أرض الحبشة لانها محظر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون بصحراء عيذاب واليهما انقلاهم في صدرهم من الحج » (٤١) .

ولقد تحدث ابن جبير بأسهاب عن الطريق الصحراوي الممتد بين قوص وميناء عيذاب القديم وذكر مواضع الماء فيه موضعاً موضعاً . ثم وصف ميناء عيذاب على النحو التالي : « وهو من أحفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٣٩) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وتقلع منها زائداً الى مراكز الحجاج الصادرة والواردة وهي صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب» (٤٢).

وهكذا يتضح ان المعلومات الجغرافية التي قدمها ابن جبير عن مصر قليلة للغاية ، وان فوائد الرحلة المصرية تاريخية أكثر منها جغرافية .

٢ - الرحلة الحجازية :

تكتسب رحلة ابن جبير في الديار الحجازية أهميتها من دقة وصفها للكعبة المشرفة والمسجد النبوي ومن اوصافها المسببة لمكة المكرمة والمدينة المنورة وآثارها ورسومها الاسلامية ، وكذلك من براعة وصف الطريق الصحراوي الذي يربط بين المدينة والكوفة . وقد أولى ابن جبير اهتمامه للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، كما سجل صورة واضحة للاحوال السياسية والثقافية للبلاد .

وقد لاحظ اثناء مكثه في جدة ان الوضع الاقتصادي للسكان مترد للغاية ، وانهم يبيعون في شظف من العيش (٤٣) . وذكر انهم يستخدمون انفسهم في جميع المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم أو مبيع لبن أو ماء أو تمر يلتقطونه أو حطب يجمعونه . ومن الواضح انهم يعتمدون في موارد رزقهم على الحجاج اعتماداً رئيسياً .

واهتم ابن جبير اهتماماً خاصاً بمظاهر الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة . وقد لاحظ ان موسم الحج يكاد يكون قوام حياتها الاقتصادية . ففي هذا الموسم تجتمع فيها التجارات من كل مكان . فتعرض في الاسواق من الذخائر النفيسة الجواهر والياقوت وسائر الاحجار الكريمة ، ومن انواع الطيب المسك والكافور والعنبر والعود ، كما تعرض فيها العقاقير الهندية ، والامتنعة العراقية واليمانية ، والبضائع المغربية . « كل ذلك في ثمانية ايام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها ، فما على الارض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم » (٤٤) .

وذكر ان جبير أيضاً أن أسواق مكة تغص بالفواكه طيلة موسم الحج ، وهي على

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ .

انواع كثيرة كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقشاش والخيار ، وتجلب هذه الفواكه من الطائف ومن القرى المحيطة بها . كذلك تزدحم أسواقها بالخضروات كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب وغيرها ، فضلاً عما يجلب اليها من زبيب ولوز وقصب سكر (٤٥) .

ولم يعن ابن جبير بالحديث عن مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة ، ولم يشر اليها على الاطلاق . ولكنه رسم لنا صورة طريفة للعلاقات التجارية بين الحجاج وبدو الصحراء النجدية . وقد عكست تلك الصورة أهمية تجارة المقايضة بالنسبة للبدو الاعراب . وقد ذكر ابن جبير مواضع عديدة على الطريق الصحراوي بين المدينة والكوفة تتخذ مراكز لتبادل البضائع بين الحجاج والبدو ، منها سميرة ووقصة والثعلبية ، وكان البدو يبادلون السمن واللبن والاغنام بقماش الخام .

أما ملاحظاته الاجتماعية فقد اقتصر على الجوانب المتصلة بالدين ، وهو أمر طبيعي ، وقد وصف ما يجري من احتفالات في المناسبات الدينية بإسهاب وتفصيل . فوصف احتفالات الليلة الاولى للعمرة الرجبية ، وهي احتفالات يخرج فيها أهل مكة على بكرة ابيهم ويلعبون بالاسلحة ، كما وصف أيضاً احتفالات بداية شهر شعبان ومنتصفه ، واحتفالات شهر رمضان وعيد الفطر المبارك . ثم تناول بإسهاب ودقة وصف مناسك الحج وشعائره مما يجعل كتاباته مرجعاً هاماً في هذا الشأن . وقد ختم ملاحظاته الاجتماعية عن أهل الحجاز بقوله : « وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى . وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها ينتهبونهم انتهاباً ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة الى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه » (٤٦) .

ولقد انصبت اهتمامات ابن جبير الثقافية في هذا الجزء من رحلته على تتبع مجالس الوعظ والخطابة التي انعقدت في مكة والمدينة اثناء وجوده ، وقد سجل لنا صورة دقيقة عنها وعن مستوى خطبائها .

وسجل لنا أيضاً صورة واضحة عن الوضع السياسي في الديار الحجازية . وكان

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٩ .

(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

أمراء مكة يدينون بالطاعة للخليفة العباسي ولمثله في مصر صلاح الدين الأيوبي ، الا أنهم كانوا يتمتعون في الوقت نفسه بنوع من الاستقلال الذاتي . وقد أشار ابن جبير الى جشعهم واستغلالهم للحاج والى تفشي الفساد والرشوة بينهم^(٤٧) .

وتبرز أهمية رحلة ابن جبير الحجازية - كما ذكرنا - بما اشتملت عليه من أوصاف دقيقة مسهبة للمدينتين المقدستين ، ولا سيما مكة المكرمة . والواقع ان ابن جبير لم يترك شاردة ولا واردة عن مكة المكرمة من دون ان يسجلها ، مما يجعل كتابته عن هذه المدينة مرجعاً هاماً للمؤرخين والمعنيين بشؤون الدين . وقد عني على وجه الخصوص بوصف الكعبة المشرفة وصفاً بليغاً دقيقاً لعله من أفضل وأدق ما ورد من أوصاف لها في كتب الرحالة والمؤرخين . وتحدث عن جميع المشاهد والرسوم الدينية ، ولم يترك أثراً أورسماً من دون ان يشير اليه . وما قيل عن مكة المكرمة يقال عن المدينة المنورة ، فقد تناول بالوصف المسهب جميع آثارها ورسومها الدينية ، وعلى رأسها مسجد الرسول (ص) . غير ان أوصافه الجغرافية لكل من المدينتين المقدستين لم تكن دقيقة ولا وافية . فقد وصف مكة بقوله : « هي بلدة وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس ، كبيرة مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يحصىه الا الله عز وجل »^(٤٨) .

ولم يورد أي وصف جغرافي للمدينة المنورة ، كما لم يصف أية مدينة حجازية أخرى . بيد أن وصفه المفصل الدقيق للصحراء النجدية عبر الطريق الذي سلكه من المدينة الى الكوفة يعتبر من أجل الكتابات الجغرافية عن تلك المنطقة . وقد أغرى ذلك الوصف بعض الرحالة الذين سلكوا نفس الطريق فيما بعد على اقتباسه وتضمينه رحلاتهم ، ومن بينهم الرحالة المشهور ابن بطوطة .

وأخيراً فقد تضمنت الرحلة الحجازية أيضاً بعض الملاحظات ذات القيمة الجغرافية عن طريقة سفر ركب الحجاج عبر الصحراء النجدية ، فضلاً عن براعة ذلك الوصف ودقته .

٣ - الرحلة العراقية :

لعل الرحلة العراقية هي من أكثر أجزاء رحلة ابن جبير فائدة للجغرافي ، فقد وردت فيها ملاحظات هامة تكشف عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٤٨) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

وتتم تلك الملاحظات عن ازدهار زراعي في القسم الاوسط من العراق . فقد ذكر بصدد حديثه عن مدينة الكوفة بأن الجانب الشرقي منها كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر^(٤٩) . كما ذكر بأن : « الطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجلها في بسائط من الارض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً . ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها ، فمحراثها لا حد لاتساعه وانفساحه »^(٥٠) .

ومن الواضح أن هذا الازدهار الزراعي ثمره من ثمار العناية بشؤون الري ، يؤيد ذلك ما لاحظته ابن جبير من كثرة الجداول والقنوات المتفرعة من الفرات . فقد ذكر انه لا يكاد المراء يمضي ميلاً الا ويجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات ، وان تلك الطرق هي أكثر الطرق سواقي وقناطر^(٥١) . وقد انعكس هذا الازدهار الزراعي على حالة القرى المتناثرة بين الحلة وبغداد ، حيث وصفها ابن جبير بانها على غاية من الحسن والاتساع^(٥٢) .

ولقد واصل ابن جبير عنايته بالاحوال الزراعية في العراق بعد مغادرته بغداد في طريقه الى الموصل ، فذكر بأن ركب الحج قد نزل بعد ارتحاله من بغداد بقرية يمر بقرىها نهر دجيل وهو يتفرع من دجلة ويسقي القرى المجاورة بأجمعها . ولاحظ بأن العمران ينقطع بعد مدينة تكريت فيضطر المسافرون الى استصحاب الماء ليوم وليلة ، الا انه ما يلبث ان يظهر ثانية بعد قرية العقر ، وتتصل القرى والعمائر حتى مدينة الموصل^(٥٣) .

وهناك ملاحظات أخرى تتم عن ازدهار الوضع الاقتصادي في البلاد . فقد أشار الى نشاط النقل المائي في شط الحلة ، كما أشار الى ازدهار الاسواق وازدحام السكان في بغداد والحلة وتكريت . لكن الامر الملفت للنظر انه لم يشر الى الاحوال الاقتصادية في مدينة كبيرة كالموصل ، مع انها مدينة تجارية قبل كل شيء .

واذا كان قد أولى الوضع الزراعي اهتمامه ، فانه أهمل ذكر صناعات البلد اهمالا

(٤٩) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٢) المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

تماماً ، سوى اشارته العرضية الى تخصص احدى محلات بغداد - وهي محلة العتابية - بصناعة الثياب العتابية من حرير وقطن مختلفة الالوان .

ومن الاشارات الاقتصادية المهمة التي عرض لها حديثه عن عيون القار بجوار القيارة ، وقد وصف عملية تدفق القير وصفاً دقيقاً ، ثم أوضح أهميته الاقتصادية^(٥٤) .

أما ملاحظاته الاجتماعية فلم تكن ذات قيمة كبيرة . فهي لم تتعرض الى عادات السكان وتقاليدهم ومظاهر حياتهم ، بل سجلت انطباعه العام عن اخلاقهم ، وكان انطباعاً عاطفياً في غالب الاحيان . فقد امتدح مثلاً أهالي تكريت وذكر انهم احسن احلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد^(٥٥) . كما امتدح أيضاً أهل الموصل بقوله : « وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون اعمال البر فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم »^(٥٦) .

ولكنه حمل حملة قاسية على أهل بغداد وأسهب في ذم اخلاقهم بدرجة ملفتة للنظر ، حتى ظن بعض الباحثين ان تلك الحملة منبثقة عن أسباب شخصية^(٥٧) ، وما قاله في ذلك : « وأما أهلها (بغداد) فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء ، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء ، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ان الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون ان الله خلق بلاداً أو عباداً سواهم ، يسحبون اذيالهم أشراً وبطراً ، ولا يغيرون في ذات الله منكرًا . يظنون ان أسنى الغمار في سحب الأزرار ، ولا يعلمون ان فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ، وما منهم من يحسن الله قرضاً فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدي غسر للميزان تعرضه ، لا تكاد تظفر من خوالص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف ، لا يبالون في ذلك بعب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٥٧) الرحلات ، للدكتور شوقي ضيف ، ص ٨٤ .

فالغريب فيهم معدوم الارفاق متضاعف الانفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق أو يهش له هشاشة انتفاع واسترفاق كأنهم من التزام هذه الخلقة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ، فسوء معاشرته ابنائها يغلب على طبع هوائها ومائها^(٥٨) .

وتكشف اشارات ابن جبير الاجتماعية ايضاً عن ضعف الروح الدينية بين السكان ، لا سيما بين أهل بغداد ، اذا ما قورنت بقوتها في بلاد الشام أو مصر . كما تكشف ايضاً عن ارتفاع نسي في مستوى المعيشة ، لا سيما في العاصمة بغداد . فقد ذكر عند حديثه عن مدينة بغداد ان الجهة الشرقية منها حافلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل على بشر لا يحصيهم الا الله ، كما ذكر بأن حماماتها لا تحصى وان البعض يقدرها بحوالي ألفي حمام^(٥٩) .

وأولى ابن جبير - كعاداته - النواحي الثقافية اهتماماً كبيراً ، فأفاض في الحديث عنها ، وأوضح لنا ان المستوى العلمي في بغداد كان ما يزال مرتفعاً . فقد ذكر ان ببغداد ثلاثين مدرسة يقصر كل منها عن الوصف ، أشهرها النظامية ، وان لكل من تلك المدارس أوقافاً عظيمة وعقارات يعود ريعها الى الفقهاء المدرسين بها والى الطلبة المقيمين بها^(٦٠) . كذلك حدثنا بأسهاب عن مجالس الوعاظ ، واثني بشكل خاص على جمال الدين أبي الفضائل بن علي بن الجوزي امام عصره في الحديث والوعظ . وتحدث باعجاب عن مستشفى بغداد المطل على دجلة والذي كان أشبه بمدينة صغيرة بما يحف به من بيوت وسوق حافلة . وكان الاطباء يتفقونه كل يوم اثنين وخميس ويرتبون للمرضى ما يحتاجون اليه من الادوية ، كما كان يقوم بشؤونه موظفون يتولون الاشراف على راحة المرضى وطعامهم وأدويتهم^(٦١) .

وأشار ابن جبير اشارات عابرة الى الوضع السياسي في البلاد ، ولم يوله من العناية ما أولى وضع مصر أو الحجاز أو بلاد الشام . وتدل اشاراته على ان الخليفة كان مغلوباً على أمره ، وان السلطة الحقيقية كانت بأيدي قواد الجيش من المماليك ، وان العباسيين كانوا معتقلين في بيوتهم لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم^(٦٢) .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

ولسنا نجد في رحلة ابن جبير العراقية اشارات الى المعالم الجغرافية القائمة على طريق سفره ، سوى اشارته العابرة الى دجلة والفرات بقوله : « وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد اغنت شهرتهما عن وصفهما ، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابهما الى البحر ، ومجراهما من الشمال الى الجنوب ، وحسبهما ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما النيل » (٦٣) .

أما الأوصاف الجغرافية للمدن العراقية فكانت محدودة وغير وافية ، ولم يذكر سوى مدن قليلة ، مركزاً اهتمامه على بغداد . ويعود ذلك الى قصر المدة التي أمضاها في العراق ، والى ارتباط مشاهداته بالمدن التي اعترضت طريق سفره الى بلاد الشام . قال يصف مدينة الكوفة : « هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر . ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهي لا تزال تضر بها ، وكفالك بتعاقب الايام والليالي محيياً ومغنياً . وبناء هذه المدينة بالأجر خاصة ولا سور لها ، والجامع العتيق آخرها مما يلي شرق البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق » (٦٤) .

وقال يصف مدينة الحلة : « هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها . وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها . ولهذه المدينة أسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية . وهي قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجاً ، فديارها بين حدائق النخيل . وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع » (٦٥) .

وقال يصف مدينة تكريت : « وهي مدينة كبيرة واسعة الارحاء فسيحة الساحة حافلة الاسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق ، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها في جوفها ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيع ، ويظف بالبلد سور قد أثير الوهن فيه . وهي من المدن العتيقة المذكورة » (٦٦) .

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

وقال يصف مدينة الموصل : « هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض ، وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه ، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله . ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وابراجها في مائها . وللبلدة روض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق . وللمدينة جامعان أحدهما جديد والآخر من عهد بني أمية . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة . ولها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الرض » (٦٧) .

أما بغداد فقد فصل الحديث عنها ، وما ذكره : « هذه المدينة العتيقة وان لم تنزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القريشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهر اسمها . . . وهي كما ذكرناه جانبان : شرقي وغربي ، ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه ، وكان المعمور أولاً . وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانية ، منها بجوامع يصل بها الجمعة . فأكبرها القرية وهي التي نزلنا فيها يربض فيها يعرف بالربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق ، والزوارق فيها لا تحصى كثرة ، فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء . والعادة ان يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها . ثم الكرة وهي مدينة مسورة . ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة . ثم الشارع وهي أيضاً مدينة ، فهذه الاربعة أكبر المحلات . وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد . واسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيلة وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب في دجلة ، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات ، ويشق على باب البصرة التي ذكرنا محلته نهر آخر منه وينصب أيضاً في دجلة . ومن اسماء المحلات العتابية وبها تصنع الثياب

(٦٧) المصدر السابق ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الألوان . ومنها الحريرية وهي أعلاه وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد ، الى اسماء يطول ذكرها . . . وبالعربية البساتين والحدائق ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية . . والشرقية حفيلة الاسواق ، عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى . . . وبها من الجوامع ثلاثة . . . وأما حماماتها فلا تحصى عدة . . . وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء . . . والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية . . . وللشرقية أربعة أبواب : فأولها وهو في أعلى الشط باب السلطان ، ثم باب الظفرية ، ثم يليه باب الحلبة ، ثم باب البصلية . هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشط الى أسفله ، وهو يعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة . وداخلها في الاسواق ابواب كثيرة . . . » (٦٨)

تلك هي أبرز المعلومات التي وردت في رحلة ابن جبير العراقية ، وهي كما يتضح ذات قيمة جغرافية وتاريخية بالرغم من إيجازها .

٤ - الرحلة الشامية :

الرحلة الشامية غنية بالمعلومات على اختلاف أنواعها ، كما انها ثرية بالصور التي تصور الحياة في هذه الديار ببراعة وحذق . الا ان ابن جبير أهمل كعادته العناية بجوانب الحياة الاقتصادية . وإذا شئنا ان نستخلص صورة واضحة عن الوضع الاقتصادي للبلاد فلا بد لنا أن نفتش بين السطور . فهناك اشارات متفرقة تنم عن نشاط تجاري وازدهار زراعي وصناعي . فالاهتمام بالاسواق في حلب دليل معقول على أهمية التجارة فيها . فاسواقها واسعة كبيرة متصلة الانتظام يتخصص كل جزء منها ببضاعة معينة . « وكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً » (٦٩) .

وكذلك حال الاسواق في دمشق التي وصفها ابن جبير بانها من أحفل اسواق البلاد واحسنها انتظاماً وابدعها وضعاً (٧٠) . وهو أمر يدل على ازدهارها التجاري . لكن وصف الاسواق على هذا النحو لا يمكن ان يعطي بالطبع صورة واضحة عن الوضع الاقتصادي والتجاري في البلاد . ولم ترد أي اشارة الى صناعات البلاد ، بالرغم مما عرف عن بلاد الشام من حذق في صناعات كثيرة متنوعة .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ١٧٣ - ١٨٤

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

وأشار ابن جبير الى الاوضاع الزراعية اشارات عابرة وردت اثناء تنقلاته بين المدن الشامية أو من خلال وصفه لها ، وهي تنم عن ازدهار الزراعة . فقد ذكر مثلاً عند حديثه عن بلاد المعرة أنها من أخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقاً ، وانها غنية باشجار الزيتون والتين والفسق وانواع الفواكه الاخرى ، وان بساتينها وقراها تتصل لمسيرة يومين (٧٠) . وذكر كذلك عند حديثه عن مدينة حماه ان المزارع - ولا سيما مزارع الاعناب - تمتد خارج المدينة امتداداً عظيماً وتتصل البساتين على شطي النهر . أما الطريق المؤدي الى دمشق فقد وصفه بأنه بساتين متصلة لا يوصف حسناتها (٧١) . وفيما عدا تلك الاشارات لم يتحدث ابن جبير حديثاً صريحاً عن الزراعة .

وتناول ابن جبير الجوانب الاجتماعية بأسهاب نسبي ، وركز حديثه عن سكان دمشق . وقد اهتم بجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية وهو الجانب الديني ، الا انه صور أيضاً بعض عادات وتقاليده سكان دمشق . فقد لاحظ ان أهل دمشق يخاطبون بعضهم بعضاً بالتمويل والتسويد والتعظيم الشديد . فاذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول : جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام . . وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوباً (٧٢) .

واستنكر ابن جبير طريقة سير أهالي دمشق ، فقد لاحظ انهم جميعاً ، الصغير والكبير ، يمشون وأيديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة وكأنهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً . وقد شرح أيضاً بأسهاب طريقة أهل البلاد في وداع موتاهم ، وأوضح المراسيم المتبعة في جنازتهم .

وأكد ابن جبير تأكيداً خاصاً على روح التدين التي يتميز بها أهل دمشق خصوصاً وسكان بلاد الشام عموماً . وضرب أمثلة كثيرة على ذلك . ومثال ذلك تعظيمهم للحاج ، فهم يتمسحون بهم عند سفرهم ويتهافتون عليهم تبركاً عند عودتهم . وكذلك اقبالهم الشديد على الجوامع والمساجد . وهم يبذلون الاموال على انشاء المرافق للغرباء من حفاظ القرآن والمنتمين للطلب والفقراء المعدمين . وقد علق ابن جبير على

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(٧١) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .

(٧٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

ذلك بقوله : « ولو لم يكن بهذه المشرقية كلها الا مبادر أهلها الكرام الغرياء وايشار الفقراء ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدار الى بر الضعيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها . وربما يعرض أحدهم كسوته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله في خيرا لاكل الفقير طعامي ، لهم في ذلك سر شريف » (٧٣) .

وقد نجم عن روح التدبّر هذه كثرة الصوفية في دمشق . ويقول عنهم ابن جبير انهم الملوك بتلك البلاد فقد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان (٧٤) . ولم يكن الصوفية والزهاد كثيرين في دمشق فحسب ، بل كانوا يكثر في جميع بلاد الشام ، وكان البعض منهم يلجأ الى أماكن منعزلة في الجبال يتفرغ فيها لعبادة الله . وكان اولئك الزهاد يلقون الرعاية حتى من النصارى المجاورين لجبال لبنان ، اذ كثيراً ما يجلبون لهم القوت ويحسنون اليهم (٧٥) .

ان هذا التدبّر الذي اتسمت به حياة سكان بلاد الشام لم يدفعهم - كما يشير ابن جبير - الى التعصب ضد أصحاب الاديان الاخرى . فقد لاحظ ان علاقتهم بجيرانهم المسيحيين طيبة جداً وقائمة على التسامح . الا ان هذا التسامح الديني لا ينعكس على علاقة المسلمين بعضهم ببعض على اختلاف طوائفهم . وحينما يتحدث ابن جبير عن تلك العلاقة التي اتسمت بالقسوة الشديدة من قبل أهل السنة تجاه بعض طوائف الشيعة فانه يكشف عن تعصبه لمذهبه السني (٧٦) . قال في الموضوع مشيراً في الوقت نفسه الى جماعة (الفتوة) ونظامها : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنيين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى ، منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الامامية والزيدية ، وهم يقولون بالترفضيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة ، فهم يزعمون الآلهة لعلي رضي الله عنه تعالى عن قولهم ، ومنهم الغرابية وهم يقولون ان علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب وينسبون الى الروح الامين عليه السلام قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً ، الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء ، قد أضلهم الله عنه وأضل بهم

(٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

(٧٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٧٧) الرحالة العرب ، تأليف الدكتور نقولا زيادة ، دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٥٦ ، ص ٥٩ .

كثيراً من خلقه نسأل الله العصمة في الدين ونعوذ به من زيغ الملحدين . وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمر الرجل كله . وكل من ألحقوه بهم لحصلة يرونها فيه منها يحزمون بالسراويل فيلحقونه بهم ، ولا يروه ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة بر يقسمه . وهم يقتلون هؤلاء الروافض ايئناً وجدوهم . وشأنهم عجيب في الانفة والإتلاف » (٧٨) .

وفي موضع آخر أشار الى مذبحه أوقعها السنيون بالاسماعيلية فاستأصلوهم عن آخرهم وكوموا بالبطحاء جاجهم (٧٩) .

وأولى ابن جبير - كعادته - اهتمامه بالجوانب الثقافية المختلفة من آثار ورسوم دينية ومدارس ومستشفيات . فعند حديثه عن حلب اهتم اهتماماً كبيراً بقلعتها المشهورة ووصفها وصفاً دقيقاً . كذلك اسهب في وصف جامعها . وحينما انتقل الى دمشق تناول جميع مشاهدتها ورسومها الدينية بالشرح المسهب . وقد بدأها بوصف جامعها المشهور وصفاً بلغ من الدقة شأواً بعيداً . ويعتبر حديثه عن جامع دمشق مرجعاً تاريخياً هاماً ذا قيمة عالية ، وهو لا يقل أهمية عن وصفه للكعبة المشرفة ، ولعله أفضل ما ورد من أوصاف لهذا الجامع في كتب الرحالة الآخرين .

وقد أشاد ابن جبير باهتمام السلطات والسكان بأمر التعليم ، ولا سيما التعليم الديني ، وبذلهم الاموال الطائلة من اجله . وقد ذكر ان بدمشق نحو عشرين مدرسة ، غير ان كثيراً من المساجد والمشاهد الدينية تتخذ مرافق لتعليم القرآن وكتب الدين ، ولا سيما بالنسبة للغريباء وقد خصصت لها الاوقاف لتقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها . هذا فضلاً عن اتخاذ جامع دمشق موضعاً للتدريس ، حيث ان كل سارية من سواريه لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس (٨٠) . ولذلك فقد دعا ابن جبير مواطنيه الى انتهاز الفرصة والارتحال الى بلاد الشام لطلب العلم . « فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة » (٨١) .

(٧٨) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٨١) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

وأشار ابن جبير أيضاً إلى مستشفيات دمشق ، فذكر ان بها مارستانين اجدهما قديم والآخر حديث ، وان الحديث احفلهما واكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ويدير شؤونهم موظفون يتكفلون برعاية المرضى واعداد الادوية والاعذية لهم ، ويزوره الاطباء كل يوم متفقدين المرضى ، فيأمرون باعداد ما يناسبهم من الاغذية والادوية . وقد خصص جناح منه للمرضى المجانيين^(٨٢) .

أما ملاحظات ابن جبير ذات الطابع السياسي فتكتسب أهمية خاصة نظراً لأنها تلقي ضوءاً كاشفاً على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ابان الحروب الصليبية . . فقد عرض جانباً من سير تلك المعارك ، وتحدث عن احتلال صلاح الدين الايوبي لحصن الكرك . وقد دهش من استمرار العلاقات التجارية بين الجانبين من دون ان تؤثر عليها المعارك الحاسمة الدائرة بينهما . « ففي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يحاصر حصن الكرك ، كان اختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمانة على غاية . وتجار النصارى يؤدون أيضاً في بلاد المسلمين على سلعمهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشغولون بحربهم والناس في عافية والدين لمن غلب »^(٨٣) .

وازدادت دهشة ابن جبير حينما خرج الى بلاد الافرنج فلم يعترضه أو يضايقه احد ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين قد استولى على مدينة نابلس وسى كل من فيها ، وكان سبيهم في ذلك الوقت يدخل بلاد المسلمين^(٨٤) . وقد مر عند ارتحاله من دمشق الى بانياس على أراضي زراعية يتقاسمها المسلمون والمسيحيون ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة مناصفة ومواشيهم مختلطة^(٨٥) . وقد أوضح أوضاع المسلمين تحت الحكم المسيحي على النحو التالي : « والطريق بين تبين إلى عكة كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك انهم يؤدون هم نصف الغلة عند

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٠

(٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ، وساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل ، رسائيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع »^(٨٦) .

أما ملاحظاته ذات الصفة الجغرافية البحتة فكانت نزره وقليلة الفائدة . فقد وصف جبل لبنان بقوله : « وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر . . وجبل لبنان هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لأنه وراء انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم »^(٨٧) .

وأشار الى انهيار بلاد الشام اشارة عابرة فقال عن نهر العاصي : « والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي لأن ظاهراً انحدره من سفلى الى علو ومجره من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلى حصن ويقربه منها »^(٨٨) . وأشار في موضع آخر الى منبع نهر الخابور^(٨٩) . ووصف أيضاً بحيرة طبرية بقوله : « وبحيرة طبرية مشهورة وهي ماء عذب وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ . والاقوال فيها تختلف وهذا القول اقربها الى الصحة لأنها لم نعاينها ، وعرضها أيضاً تختلف سعة وضيقاً »^(٩٠) .

أما أوصافه الجغرافية للمدن السورية فتكتسب أهمية كبيرة نظراً لرسائيقها ودقتها . وقد أسهب في وصف مدينتي حلب ودمشق . ومما قاله في وصف حلب : « أما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حقل التركيب ، بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب »^(٩١) .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

وقال أيضاً : « وأمرها في الاحتفال عظيم فهي بلدة تليق بالخلافة ، وحسنها كله داخل لا خارج لها الا نهير يجري من جوفها الى قبليها ويشق ربضها المستدير بها ، فان لها ربضاً كبيراً فيه من الخانات ما لا يحصى عدده . وبهذا النهر الارعاء وهي متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضة . وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله . وكيفما كان الأمر فيه داخلًا وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التي لا نظير لها والوصف فيه يطول » (٩٢) .

أما مدينة دمشق فلم يترك فيها شاردة ولا واردة من دون أن يصفها أو يتحدث عنها بأسهاب . ومن أوصافه للمدينة : « لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقي وهو شرقي . . . ويلي هذا الباب باب توما ، وهو أيضاً في حيز الشرق ، ثم باب السلامة ، ثم باب الفراديس وهو شمالي ، ثم باب الفرج ، ثم باب النصر ، وهو غربي ، ثم باب الجابية كذلك ، ثم باب الصغير وهو بين الغربية والقبلة ، والمسجد الجامع مائل الى الشمالية من البلد والارباض به مطيفة ، الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول وسككه ضيقة مظلمة وبنائه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الله خلقاً وحسنه كله خارج لا داخل » (٩٣) .

وقال يصف ربوتها : « وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه ، وأكبر هذه الأنهار يعرف بشورا وهو يشق تحت الربوة . . . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ولا اشرف كاشرافها حسناً ومجالاً واتساع مسرح للابصار . وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها » (٩٤) .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

وقال يصف مدينة حمص : « هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه ، أفح أغبر لا ماء ولا ظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظلمها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة يسفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك » (٩٥) .

وقال يصف مدينة حماه : « مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الغناء ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمونة وديارها مركومة لا يهش البصر اليها عند الاطلال عليها كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها حتى اذا جست خلالها ونقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرته بساتين تهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه يتسرب في ظلالها وينساب على سمت اعتدالها . . . وموضوع هذه المدينة في ودة من الارض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة قد تولى نحتها الزمان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان . وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلي الجبلي ويطيף بها .

وللمدينة السفلى سور يحرق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور . وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها » (٩٦) .

وقال يصف مدينة عكا : « هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق

(٩٥) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

فيها مواطناء الاقدام .. وهي وصور لا بساتين حولها وانما هما في بسيط من الارض افيح يتصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليها من بساتينها التي بالقرب منها . ولها عمالة متسعة والجلال التي تقرب منها معمورة بالضياح ومنها تجبى الثمرات اليها . وهما من غر البلاد . ولعكة في الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء . ولها مع شاطئها مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه (٩٧) .

وهكذا يتضح لنا أن الرحلة الشامية هي من أغنى أجزاء الرحلة بمعلوماتها التاريخية والجغرافية ، كما أن أوصاف المدن فيها هي من أفضل ما ورد في الرحلة من أوصاف .

ثالثاً - قيمة الرحلة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية :

بعد أن استعرضنا منهج ابن جبير وأهدافه ومضامين رحلته بات من اليسير علينا أن نحدد قيمة معلوماتها من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

فأما من وجهة النظر الجغرافية فإن (الرحلة) لم تشتمل الا على معلومات نزرقة قليلة القيمة عن البلدان التي تعرضت لها . ففي الجانب الطبيعي كانت عنايتها بالمعالم الطبوغرافية والمناخية والهيدروغرافية ضعيفة تماماً . فهي لم تشر الى طبيعة التضاريس في البلدان المذكورة الا اشارات عابرة للغاية . وبالرغم من أنها تناولت بعض الجبال في الحجاز وبلاد الشام بالذكر ، لكن وصفها كان ادبياً أكثر منه جغرافياً . كذلك حال وصفها للصحراء النجدية ، وكانت اشاراتها للأنهار الكبرى كالنيل ودجلة والفرات اشارات عامة لا تنطوي على قيمة جغرافية . ولم ترد فيها ملاحظات مناخية على الاطلاق .

وفي الجانب البشري ، كانت عنايتها بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية ضعيفة عموماً . وقد أهمل ابن جبير - خلافاً لكثير من الرحالة - مظاهر الحياة الاقتصادية اهمالاً يكاد يكون تاماً ، فهو لم يذكر شيئاً عن صناعة أي بلد من البلدان ، الا ما ورد عرضاً . ولم يهتم بالاحوال الزراعية واكتفى بوصف عام لما اعترض طريقه من مزارع وبساتين . ولسنا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها ، سوى عبارته التقليدية التي يرددها دائماً عن المدن المزدهرة وهي أن سكانها لا

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ و ٢٥٩ .

يحصيهم الا الله تعالى (٩٨) . وهو لا يوضح لنا أيضاً ، الا بشكل محدود جداً ، عادات وتقاليده الشعوب التي عرفها . غير انه ركز - كما اشرنا اعلاه - على الجانب الثقافي والديني على وجه الخصوص تركيزاً عظيماً . وقد نجح في رسم صورة واضحة حية لجوانب الحياة الثقافية والدينية ، لا سيما في بلاد الشام ومصر .

ولعل أبرز جانب جغرافي في (الرحلة) هو ما يتعلق بتناولها لشؤون السفر ومسالكه ووصفها للمدن في البلدان المعنية . فقد سجل لنا ابن جبير صوراً دقيقة لمطلبات السفر وظروفه والمصاعب التي تواجه الرحالة أثناء تنقلاته بواسطة البر أو البحر . وقد تهيأ له ان يخترق البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وان يسافر بواسطة النيل من أقصى شمالي مصر الى أقصى جنوبها وان يخترق الصحراء النجدية من غربها الى شرقها ، فأمدنا بمعلومات قيمة عن مشاكل السفر في تلك الجهات خصوصاً ، وعن وسائل ومتطلبات ومصاعب السفر البحري على العموم . وقد أتبع له ان يستعمل كثيراً من مصطلحات الملاحة وبناء السفن في العصور الوسطى ، فحفظ لنا بذلك عدداً وافراً منها مما يمكن الاستفادة منه في فهم بعض النصوص الأخرى المدونة في ذلك العصر (٩٩) .

وفضلاً عن ذلك فقد وصف لنا الطريق التي سلكها وصفاً دقيقاً وواضحاً ، وكان يلتزم دائماً بتعيين خط واتجاه سيره بشكل مضبوط ، كما كان يلتزم بذكر الزمن الذي يستغرقه تنقله من موضع الى آخر . لذلك أصبح في الامكان تتبع تنقلاته بيسر ووضوح . ولم يشب تنقلاته الغموض الا في المرحلة الأخيرة من رحلته حينما تهيأ لمغادرة بلاد الشام في طريق عودته الى بلده .

أما وصفه للمدن فهو على جانب كبير من الأهمية ، فقد تميز بالرصانة والدقة ، وقد نجح في رسم صورة واضحة وحية لكثير من المدن التي زارها ، ولعلها تمثل أبرز جانب جغرافي في رحلته . ولا يغض من قيمة وصفه للمدن ما كان يلحقه ببعضها من مقدمات أدبية أو مبالغات عاطفية .

وأما من وجهة النظر التاريخية ، فلا ريب أن « الرحلة » تقدم لنا معلومات مهمة عن الفترة التاريخية التي أمضاها الرحالة في التجول بين بلدان المشرق . وتخص تلك الفترة بالذات حكم الأيوبيين وعهد احتدام الحروب الصليبية . وقد رسم لنا ابن جبير

(٩٨) الجغرافية والرحلات عند العرب ، للدكتور نقولا زيادة ، ص ١٦٨ .

(٩٩) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، للدكتور زكي محمد حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨٦ .

صورة واضحة لصالح الدين الايوبي . وبالرغم من تحمسه الشديد له باعتباره بطل حركة التحرير الاسلامية ضد الصليبيين ، الا انه حاول ان يكون موضوعياً في أحكامه فروى لنا انجازاته في مصر وبلاد الشام والحجاز ، وذكر وقائع ملموسة تبين ميله الى الاصلاح الديني والعمرائي ، والى توطيد دعائم العدل والاستقرار في الجهات التي يسيطر عليها .

ومن المعلومات التاريخية التي اكسبت « الرحلة » أهمية كبيرة ملاحظات ابن جبير عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام والتي كان يتقاسم حكمها آنذاك المسلمون والمسيحيون . وتعود أهمية تلك المعلومات الى طابع الموضوعية الذي اتسمت به . وقد أوضح ابن جبير ان التسامح كان عنوان تلك العلاقات ، فكانت التجارة تجري بشكل طبيعي بين كل من الجهات التي يسيطر عليها المسيحيون والجهات التي يحكمها المسلمون ، وكانت معاملة المسلمين للرعايا المسيحيين ، ومعاملة المسيحيين للرعايا المسلمين طبيعية وعادلة . وقد اعترف الاب لامنز LAMENZ بأن ملاحظاته في هذا الخصوص تمتاز بقوة ملاحظة نافذة^(١٠٠) .

ومن المعلومات التاريخية الهامة أيضاً ما يخص وضع المسلمين في جزيرة صقلية أيام حكم النورمان . فقد ذكر كراتشكوفسكي ان تلك المعلومات تكسب « الرحلة » قيمة فريدة^(١٠١) ، وقد صور فيها ابن جبير مظاهر الحضارة المادية والروحية لمسلمي صقلية ، كما صور فيها معاملة وليم (غليام) النورماني لرعاياه من المسلمين . وقد قال في ذلك : « شأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة من أهل دولته والمرتمسون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخيول والاتباع »^(١٠٢) .

وقد علق بعض الباحثين على حديث ابن جبير عن وضع المسلمين في صقلية بأنه

(١٠٠) كراتشكوفسكي ، ص ٣٠٠ .

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(١٠٢) رحلة ابن جبير ، دار التراث بيروت ، ص ٢٦٧ .

كان متناقضاً في آرائه ، فمرة يشيد بما يلقوه من تسامح ديني ، وطوراً يذكر أنهم يتكتمون في دينهم ، الا ان المؤرخين قد اثبتوا على اية حال بأن الدولة النورمانية في صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها ، وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدنيهم في كثير من نواحي الحياة^(١٠٣) .

وهناك معلومات تاريخية أخرى تلقي ضوءاً كاشفاً على الاحوال السياسية في البلدان المعنية بالرغم من ايجازها ، وهي تلك التي تتعلق بالعراق . فقد أوضح بأن زمام الأمور كانت بأيدي قواد الجيش ، وان الخليفة لم يكن سوى رمز لا حول له ولا قوة ، كما أوضح ان الاقامة الاجبارية كانت مفروضة على العباسيين . وصور لنا أيضاً فساد الحكم في الديار الحجازية وتفشي الرشوة بين أمراء البلاد والقائمين على شؤون الكعبة المكرمة ، كما بين ما يلاقيه الحجاج من عنت واستغلال وسوء معاملة من قبل القائمين على الأمور .

أما ما يتعلق بمركز (رحلة ابن جبير) في الادب الجغرافي العربي فلا شك انها قد احتلت مركزاً مرموقاً ، بل يمكن القول انها قد تبوأ مركز الصدارة ، فقد اكسبت صاحبها شهرة أدبية واسعة بين الاجيال لا سيما بين مواطنيه المغاربة ، ولم يحدث لاية (رحلة) أخرى ان اقتبس منها الكتاب بالقدر الذي حدث لرحلة ابن جبير . وما تزال « الرحلة » تستأثر باهتمام البحاثة العرب والاجانب وجمهور واسع من القراء بما يظهر لها من طبعات جديدة .

(١٠٣) زكي حسن ، ص ٨٧ .

رحلة ابن بطوطة(*)

إذا كانت (رحلة ابن جبير) تعتبر في نظر الكثيرين من دارسى الادب الجغرافى العربى قمة ادب الرحلات العربى ، فلا ريب ان (رحلة ابن بطوطة) هي اعظم (الرحلات) شعبية ، وان صاحبها أوسع الرحالة المسلمين شهرة لدى جمهور القراء ، حتى لقد لقبه بعض الباحثين بـ (سيد الرحالة العرب والمسلمين) (١٠٤) .

ولم يكتسب ابن بطوطة هذه الشهرة عبثاً ، فهو بلا شك يتفوق على جميع الرحالة القدماء - العرب والافرنج بما فيهم ماركو بولو - في اتساع رحلاته ، حتى لقد قدر ما قطعه بحوالى مائة وخمس وسبعين ألف ميل (١٠٥) . ولقد أمضى ما يقرب من نصف عمره وهو يتجول بين البلدان ويختزن في ذاكرته المشاهد والصور والاخبار . وكان قد غادر موطنه طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره بهدف حج بيت الله الحرام ، وعاد اليه وقد شارف على الخمسين . وقد زار خلال رحلاته معظم اجزاء العالم القديم المعروف ، عدا القسم الاوروبى . فساح في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ماراً بنجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ، وطوّف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام واقطار المغرب العربى وساحل افريقيا الشرقى . وتجول في بلاد فارس والاناطول واواسط آسيا وتركستان والحوض الادنى لنهر الفولغا ، ثم اتجه الى اقطار الشرق الاقصى فأقام في بلاد الهند زمناً ، ثم تجول بين جزر الساحل الجنوى الغربى للهند . ومكث ما ينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية وزار سرندين والملايو ، ثم رحل الى جنوبى الصين ، وربما تقدم في جولته

(*) للتفصيل : راجع كتابنا (ابن بطوطة ورحلته) .

(١٠٤) الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٨٧ .

(١٠٥) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢١ .

حتى شمالي الصين ، ولما عاد الى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ الى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة الى الاندلس . ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجها الى السودان الغربى في مهمة رسمية ، ولبت يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين . وحينما استقر به المقام اخيراً في فاس عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان ابي عنان المرينى راح يقص على الناس اخبار رحلاته الطويلة وما صادف خلالها من عجائب وغرائب وما عرف من الاشخاص ، فيثير دهشة سامعيه ويستحوذ على اعجابهم ، مما جعل السلطان ابي عنان الى دعوته الى املاء رحلته على كاتبه ابن جزى . وهكذا كسب الادب الجغرافى العربى رحلة من امتع ادب الرحلات هي المسماة (تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) .

ولكى نقيّم (رحلة ابن بطوطة) تقييماً علمياً لا بد لنا اولاً من القاء الضوء على شخصيته ومقوماتها النفسية والاجتماعية . وفي هذا المجال يمكن القول ان هناك صفتين قد غلبتا على طبيعته وتحكمتا في حياته وهما روح المغامرة وحس الاستطلاع ونزعة التدوين والورع . ولقد قادته الصفة الاولى الى الطواف في بلدان عديدة والى قطع المسافات الطويلة ، ولم يكن له من هدف سوى اشباع تلك الرغبة الجامحة . فقد لبث شهوراً طويلة يتجول بين جزر المحيط الهندي ويقطع الهند شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً دون هدف واضح . وقد كان بهذا الاعتبار يمثل الرحالة القديم المثالى الذي لا يهدف الى تحقيق غرض علمى معين كما لا ينبغي كسب مغامرات تجارية معينة . لهذا فاننا نعتقد ان ابن بطوطة لم يلجأ في يوم من الايام الى تسجيل أية ملاحظات ذات صفة علمية اثناء رحلاته . ولعل هذه الناحية تكشف لنا عن العفوية والسطحية التي تتصف بهما ملاحظاته عموماً . فلم ترد في (رحلته) ملاحظات تنم عن ترو وتفكير ومقارنة الا نادراً . والواقع ان ملاحظاته هي من النوع الذي يعلق بالذاكرة نتيجة المشاهدة . وربما كان أفضل وصف لسروح (الرحلة) هو ذلك الذي سجله ابن جزى كاتب (الرحلة) في المقدمة حيث قال : « . . . وهو يملئ ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار واوليائها الابرار » (١٠٦) .

ولقد استتبع عدم لجوء ابن بطوطة الى تسجيل ملاحظاته في حينها الى فقدان (الرحلة) لكثير من المقومات الجغرافية الضرورية . فلم يكن في كثير من الاحيان يعو،

(١٠٦) الرحلة - ج ١ ، ص ٤ .

بذكر الاتجاهات اثناء سفراته ، بل انه كان يقفز في بعض المواضع قفزات غريبة من مدينة الى اخرى . لهذا اصبح من الصعب رسم خارطة واضحة لحظ سيره في كثير من البلدان . كذلك اتسم وصف المدن لديه بسطحية وعمومية واضحة بحيث لا يمكن للمرء ان يتمثل الموضع الجغرافي ، بل ولا يمكن الاستشهاد به . والحقيقة ان اغلب اوصافه للمدن متشابهة ومتكررة ونادرا ما تكشف عن سمة جغرافية متفردة . وفضلا عن ذلك فقد حرف عدد غير قليل من المدن نتيجة النسيان ، لاسيما ما يتعلق بالبلدان الاعجمية مما حير الباحثين في صحة وجودها أو في مواضعها الحقيقية . ولعل أهم مشكلة تواجه الباحث في (رحلة ابن بطوطة) هو عدم انطباق اسماء كثير من المدن المذكورة على المدن الحالية .

ولو قارنا الجوانب الجغرافية في (رحلة ابن بطوطة) بمثيلاتها في (رحلة ابن جبير) من حيث أوصاف المدن وخط السير لوجدنا ابن جبير متفوقاً عليه ، ويعود ذلك الى قيام ابن جبير بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته يوماً بيوم مما أكسبها الدقة والتميز، بينما عمد ابن بطوطة الى املاء مشاهداته على ابن جزري بعد مضي ما يزيد على ربع قرن .

أما الصفة الثانية التي تحكم في حياة ابن بطوطة وهي نزعة الورع والتدين فلا ريب انها قد طبعت (رحلته) بطابعها الخاص كلياً . فلا تكاد أية صفحة من صفحات (الرحلة) تخلو من الحديث عن رجال الدين أو من الحكايات ذات الصبغة الدينية . وقد يرد البعض على مثل هذا الادعاء بالقول بأن الظرف الذي أملى فيه ابن بطوطة (رحلته) ظرف يعنى بأمور الدين ورجاله أكثر من أي شيء آخر، ويقبل قصص كراماتهم وخوارقهم كحقائق مسلم بها ، وان حكاياته لم تكن منبعثة من افراط شخصي بالورع بل كانت انعكاساً لرغبات العصر ، وهو قول غير بعيد عن الصحة . ومع ذلك فان هذا العذر لم يكن يقتضي بالضرورة تكريس (الرحلة) لشؤون الدين ورجاله ، فهي لم تكن رحلة دينية وان كان غرضها الاول حج بيت الله الحرام ، وقد انتفى ذلك الهدف بمرور الزمن . بل اننا نرى ان (رحلة) مشابهة كان غرضها الاول حج بيت الله الحرام ، وهي (رحلة ابن جبير) ، لم تنصرف ذلك الانصراف الى تقصي اخبار رجال الدين والاولياء والزهاد ورواية الاساطير عنهم كما حفلت بذكرها (رحلة ابن بطوطة) . ولقد أدت بابن بطوطة نزعة الدين الى اهمال النواحي الجغرافية فوردت ملاحظاته الجغرافية بصورة ثانوية ومبتسرة ، سوى حالات قليلة ، بينما أفاضت (الرحلة) في تناول النواحي الدينية ، وان لم تكتسب معلوماتها تلك أهمية خاصة . بيد اننا لا نود ان نحمل نزعة ابن بطوطة الدينية ما في (الرحلة) من قصور جغرافي ،

فالخس الجغرافي لدى ابن بطوطة كان ضعيفاً أصلاً . ولقد كانت تفوته معالم جغرافية بارزة في بعض المدن لم تكن تنطبع في ذاكرته ، ولم تكن تستلفت انتباهه .

أما ما يتعلق بحكاياته فقد كانت معقولة عموماً وتنم عن الصدق . ولا يعني ذلك انها كانت مجردة من المبالغة دائماً ، لكن درجة الاختلاق فيها لم تكن عالية . واذا قارنا حكاياته بحكايات الرحالة الآخرين لوجدناها عموماً أقل مبالغة . ففي أحد مواضع رحلات ماركو بولو مثلاً يقول بأنه قام بقياس ريشة طير الرخ فوجد انها تبلغ تسعين شبراً من أشباهه^(١٠٧) . أما المسعودي فيذكر في كتابه (أخبار الزمان) قائمة طويلة بأساء الطيور والاسماك والحيوانات الغريبة التي لا وجود لها^(١٠٨) . وكذلك يفعل الغرناطي في كتابه (المغرب في بعض عجائب المغرب) حيث يزعم بأن هناك نوعاً من العنب في مدينة سرقسطة في الاندلس يبلغ وزن الحبة الواحدة عشرة مثاقيل ، أي ما يعادل ٤٥ غراماً^(١٠٩) . ومع ذلك فقد تعرضت بعض حكايات ابن بطوطة الى الشك والارتياب الذي يبلغ حد التكذيب .

ولقد لمح ابن جزري نفسه - كاتب الرحلة - الى تلك الشكوك في حكايات ابن بطوطة مع انه كان من أشد المتحمسين لها . فقد ذكر في بداية (الرحلة) انه قد أورد جميع ما أقره من الحكايات والاخبار ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار^(١١٠) ، فكأنه كان يعتذر مقدماً عما يبدو من غرابة في تلك الحكايات وعما قد توحى من عدم الثقة ، بل ان ابن بطوطة نفسه كان يوثق حكاياته بين حين وآخر بايمان غليظة لكي يصدقه سامعوه . فهو يقول في أحد مواضع حكاياته عن السلطان محمد طغرل شاه ملك الهند : « وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه ، وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق وكفي بالله شهيداً »^(١١١) . وفي موضع آخر يقول : « وانما أذكر منه ما حضرته وشهدته وعايته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفي بالله شهيداً »^(١١٢) .

(١٠٧) الارتداد والكشف الجغرافي - ترجمة شاكرك خصبك ، ص ٤٤ .

(١٠٨) اخبار الزمان . للمسعودي ، ص ٥٠ - ٧١ .

(١٠٩) حسين مؤنس ، ص ٣٢٧ .

(١١٠) الرحلة ، الجزء ١ ، ص ٤ .

(١١١) المصدر السابق ، الجزء ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(١١٢) المصدر السابق ، الجزء ٢ ، ص ٤١ .

ولم تراود الشكوك معاصريه فحسب ، بل راودت عدداً غير قليل من دارسي (رحلته) في الوقت الحاضر أيضاً . ولقد أثارت شكوكهم اجزاء معينة من (الرحلة) ، لا سيما حكاياته عن ملك الهند محمد طغرل شاه ومشاهداته في الصين والقسطنطينية ، فالمستشرق فران Ferrand مقتنع تماماً انه لم يصل الى الصين . والمستشرق يول Yule يؤكد بأنه لم يدخل القسطنطينية . ويؤيدهما في هذين الرأيين آخرون . لكن عدداً آخر من المستشرقين دافعوا عنه وبرروا ما يبدو من خلط أو غرابة في حكاياته عن هذين البلدين . فقد أكد جب Gibb ان ابن بطوطة قد روى ما اعتقده حقيقياً الا ان بعد الشقة الزمنية وخضوعه للعاطفة الدينية قد أديا به الى خلط الحقيقة بالخيال في بعض المواضع والحكايات فلم يميز بين ما شاهده حقيقة وبين ما سمعه سماعاً^(١١٣) . كذلك أكد كراتشكوفسكي ان حكاياته بوجه عام جديرة بالثقة^(١١٤) . بل ان بعض المستشرقين تحمس له تحمساً عظيماً كالمستشرق الايطالي دوزي Dozy فاطلق عليه لقب (الرحالة الأمين)^(١١٥) . ومهما بلغ تفاوت المستشرقين حول مدى صدقه فلا بد ان نعترف بأنه استسلم للخرافات في بعض حكاياته استسلاماً مطلقاً وبدرجة غير مقبولة ، وأبرز مثل على ذلك حكاية الفرجية^(١١٦) وحكاية الرجل الصيني المعمر^(١١٧) وحكاية الشجرة المقدسة^(١١٨) وغيرها من الحكايات .

واذا ضربنا صفحاً عما اشتملته (الرحلة) من عيوب جغرافية أو مبالغات أو حكايات مختلفة ، فانها تظل ذات قيمة كبرى بما تحفل به من معلومات متنوعة عن اجزاء واسعة من العالم القديم . فقد تميزت بشمولية عظيمة تكاد تفتقد في أي مؤلف من مؤلفات الرحالة القدماء . وقد مكنت تلك الشمولية ابن بطوطة ان يدلي بأحكامه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل بلد عن خبرة ومعرفة بالأوضاع السائدة في بقية بلدان العالم القديم . ومما لا ريب فيه ان رحلاته الواسعة قد اكسبته فهماً خاصاً لآحوال الشعوب كما اكسبته معرفة باقتصادها ، هذا بالإضافة الى معاصرتة

Gibb, H. A. R., Ibn Battuta Travels in Asia And Africa, Routledge And Kegan, London (١١٣) 1953, P. 12.

(١١٤) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٨ .

(١١٥) دائرة المعارف ، - بيروت ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩ .

(١١٦) رحلة ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(١١٧) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(١١٨) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

لكثير من الاحداث التاريخية للبلدان التي زارها ومعرفته المباشرة بحكامها .

لذلك يمكن القول أن (رحلة ابن بطوطة) ذات اهمية عظيمة لدارسي الجغرافية التاريخية ولعلماء الانثروبولوجيا . فقد حفلت بالادوصاف المسهب والدقيقة للانظمة الاجتماعية والسياسية لبلدان جنوب شرقي آسيا ، ولا سيما الهند وجزر الهند الشرقية والصين ، وكذلك لاقطار آسيا الوسطى والغربية كتركستان وبلاد الاناضول ، وكذلك لجهات افريقيا الغربية ، مما يمكن اعتباره سجلاً ممتازاً للآحوال السائدة في البلدان المذكورة في ذلك العصر . وسنحاول في الصفحات التالية ان نستعرض ابرز المعلومات ذات الاهمية الجغرافية والانثروبولوجية التي وردت في ثنايا « الرحلة » .

١ - العالم العربي :

تتصف ملاحظات ابن بطوطة عن أقطار العالم العربي بالايجاز والسطحية عموماً ، بالرغم من انه زار تلك الاقطار مرات عديدة ومكث فيها شهوراً طويلة . والواقع انه لم يصف جيداً الى المعلومات عن تلك الاقطار بالقياس لما قدمه الرحالة الجغرافيون السابقون . واذا كان لوصفه الجغرافي لعدد من مدن العالم العربي قيمة ما ، فان تلك القيمة تتضاءل بعد ان ثبت ان قسماً كبيراً منها قد اقتبس من (رحلة ابن جبير) او ربما من رحلات اخرى . ولو قارنا ملاحظاته الجغرافية بملاحظات ابن جبير الذي سبقه بما يقرب من قرن في التجوال بين أقطار العالم العربي لتبين لنا أن ملاحظات ابن جبير اكثر دقة ونفاذاً . فقد أشار ابن جبير الى ظاهرات هامة - جغرافية وأثرية - كانت تغيب عن ابن بطوطة . وقد يكون لبعد الشقة الزمنية بين وقت زيارته للاقطار العربية وبين تسجيله « للرحلة » أثر في ذلك . لكن من الواضح ايضا ان ما يتمتع به ابن بطوطة من حس جغرافي وعلمي كان أدنى مرتبة لما كان يتمتع به ابن جبير . ولعل مرجع ذلك أيضاً الى عناية ابن بطوطة بالاشخاص واخبارهم أكثر من عنايته بتسجيل الاوضاع الجغرافية للمدن والاقطار المعنية .

ويمكن القول ان اقل ملاحظات (الرحلة) قيمة هي التي تتعلق ببلدان شبه الجزيرة العربية . فلم يذكر ابن بطوطة من مدنها سوى عدد محدود ، كما انه لم يسجل عنها اية ملاحظات اقتصادية أو اجتماعية جديرة بالاهتمام .

وتأتي كتابته عن العراق بالدرجة الثانية بعد شبه الجزيرة العربية في ايجازها وسطحيته . هذا فضلاً عن ان ملاحظاته - لا سيما الاجتماعية منها - يعوزها الوضوح والدقة في كثير من الاحيان . ومما لا ريب فيه أنه لم يأت بجديد عن هذه البلاد .

والمعروف ان الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين قد مسحوا العراق جغرافياً اكثر من أي قطر اسلامي آخر ، باعتباره مركز الخلافة الاسلامية . وكانت كتابات البعقوبي وابن خردادبة والمقدسي والاصطخري وغيرهم شاملة لشتى نواحي الجغرافية من طبيعية واقتصادية وبشرية . ولم يصف الرحالة والجغرافيون المتأخرون أية معلومات هامة الى المعلومات المبكرة . وبالرغم من ان ابن بطوطة كان قد زار العراق مراراً عديدة ، لكنه لم يحاول التعمق في طبيعة الحياة الاجتماعية ، كما انه لم يسجل اية ملاحظات اقتصادية ذات قيمة تذكر . ويمكن ان يعزى اهماله للعراق الى حالة النفور التي تملكته تجاه البلاد ، والتي تتجلى في ثنايا حديثه عن مدن وسط وجنوب العراق وعن سكانها الشيعة ، وربما كانت غزارة المعلومات الجغرافية عن العراق وسهولة تداولها سبباً اضافياً آخر لذلك الاهمال .

وتعتبر أحاديثه عن بلاد الشام أفضل ما ورد في (الرحلة) من معلومات عن أقطار العالم العربي . وبالرغم من انه اقتبس الكثير من أوصاف المدن عن ابن جبير - لا سيما ما يتعلق بدمشق - الا ان ملاحظاته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قيمة واصيلة . وقد أمدنا بصور دقيقة عن عادات السكان في حياتهم اليومية وعن نشاطهم الاقتصادي ومستواهم الثقافي . كذلك قدم لنا صوراً واضحة عن نوع الحكم السائد في البلاد . وتعزى جودة ملاحظاته عن بلاد الشام وسعتها وشمولها الى تكرار زيارته لهذه البلاد والى اقامته الطويلة نسبياً فيها . فقد أقام في دمشق - كما اخبرنا - ما يزيد على عام يدرس على أيدي علمائها في الجامع الاموي ، اضافة الى زيارته المتكررة . وكان قد أحب البلاد وطابت نفسه للاقامة فيها . كل ذلك قد لَوَّن أحاديثه عن بلاد الشام بكون خاص وأكسبها نكهة طيبة ، وجعل (رحلته) من المراجع الهامة لدراسة أحوال البلاد الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية في ذلك العهد .

أما أحاديثه عن مصر فلم تشتمل على ملاحظات قيمة سوى ما أورده عن نهر النيل وطريقة فيضانه . وقد اقتصرنا بقية المعلومات على حكايات عن الاولياء والسلطين . ويجدر بالذكر ان كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين حافلة بالمعلومات عن نهر النيل ، وقد أسهبوا في وصف مجراه وطريقة فيضانه .

أما ملاحظاته عن بلدان المغرب العربي والاندلس فهي أقل ملاحظات (الرحلة) قيمة من وجهة النظر الجغرافية . وما يزيد في ضآلة قيمتها ما كتب من أدب جغرافي غزير عن تلك البلدان . فقد قام عدد كبير من المغاربة برحلات الى أقطار العالم العربي والاسلامي ودونوا مشاهداتهم عن بلدان المغرب العربي بالذات كابن سعيد والتجاني

والعبدري وابن جبير ، فضلاً عن الكتابات الجغرافية القيمة للادريسي والبكري .

وهكذا يتضح ان اضافات ابن بطوطة الجغرافية عن أقطار العالم العربي محدودة عموماً ، وهي أقل قيمة من اضافاته عن الأقطار الاسلامية الاخرى .

٢ - جنوب غربي آسيا :

تتركز أهمية جولات ابن بطوطة في بلدان جنوب غربي آسيا على ما احتوته من معلومات جديدة عن بلاد الاناضول وعن مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، في حين أن ما ورد من معلومات عن البلاد الايرانية كان ضئيلاً الأهمية .

فأما كتاباته عن بلاد الاناضول فانها ذات أهمية تاريخية خاصة ، اضافة الى ما احتوته من معلومات أصيلة لم ترد في كتب معاصريه أو سابقيه من الجغرافيين المسلمين . فقد زار هذه البلاد في الوقت الذي كانت فيه عملية قيام الدولة العثمانية آخذة في التبلور . ويقول جب GIBB بهذا الصدد : « تعتبر قصص ابن بطوطة عن تركيا من التقارير الاولى القليلة التي غمستها عن الايام الاولى للامبراطورية العثمانية » (١١٩) . ولعل من أهم ملاحظاته الاجتماعية حديثه عن نظام « الأخي » الذي كان سائداً في بلاد الاناضول . كذلك سجل ابن بطوطة ملاحظات اجتماعية هامة أخرى تكشف عن الوضع الاجتماعي قبل تبلور الدولة العثمانية ، ومثال ذلك انتشار تعاطي (الخشيش) انتشاراً واسعاً بين مختلف طبقات السكان ، وانتشار البغاء العلني على نطاق واسع . أما ملاحظاته الاقتصادية فقد كانت مفيدة ووافية ، حيث تحدث عن الزراعة في البلاد وعن أنواع المزروعات ، كما أبدى اهتماماً خاصاً بالصناعات .

أما أحاديثه عن البلاد الايرانية فتكاد تخلو من أية أهمية علمية لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار الادب الجغرافي العربي الغزير الذي ألف عن هذه البلاد منذ القرن التاسع الميلادي حتى عصر ابن بطوطة . وفضلاً عن ذلك فان خط سير ابن بطوطة بين المدن الايرانية كان متلفعاً بالغموض والارتباك . كذلك لم تكن ملاحظاته عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية قيمة على وجه العموم . وقد انصبت ملاحظاته الاجتماعية على ايضاح أثر الدين على سلوك الناس ، حيث بين لنا انه كان يسيطر على تصرفاتهم سيطرة تامة . وتكشف ملاحظاته الاقتصادية عن ازدهار زراعة القواكه في ايران والتي

(١١٩) جب ، ص ٣٥٦

كانت عصب الحياة الاقتصادية في البلاد ، كما تكشف عن أهمية صيد اللؤلؤ كمورد اقتصادي هام .

٣ - آسيا الوسطى :

شملت جولات ابن بطوطة في آسيا الوسطى بلاد القرم وجنوبي روسيا وتركستان ، وهي مناطق كان يحكمها السلطان محمد أوزبك خان القبيلة الذهبية . وقد صوّرت أحداثه أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعية في أول عهدهم بالاسلام . وتعتبر تلك المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة إليها أحد . فهو أول رحالة مسلم صور النظام الاسري لدى القبائل المغولية وأوضح مكانة المرأة العالية فيه ، كذلك أفاض ابن بطوطة في وصف الجوانب المختلفة من حياة القبائل التركستانية ، حيث تحدث عنها في حلها وترحالها وفي مآكلها وملبسها ومشربها وأوضاعها الاقتصادية مما هيا لنا صورة دقيقة عن نمط حياتها . ويمكن القول ان ملاحظاته في هذا الباب من أفضل الكتابات الأنثروبولوجية العربية القديمة .

٤ - الشرق الأقصى :

تضمنت جولات ابن بطوطة في الشرق الأقصى الهند وجزر المحيط الهندي والصين ، ويشغل حديثه عن هذه الجولات ما يقرب من نصف (الرحلة) . ويعود سبب هذا الاهتمام الى كونه قد أمضى قرابة عشرة أعوام من غربته في تلك الجهات فامتلاّت جعبته بالحكايات عنها . وقد بلغت بعض تلك الحكايات حدا من الغرابة أثار الشكوك في نفوس السامعين من معاصريه ، كما أثار ظنون بعض دارسي « الرحلة » ، لاسيما ما يتعلق برحلته الى الصين . ولقد كانت حكاياته عن الهند وملكتها محمد طغرل شاه أشد الحكايات غرابة بالنسبة لمعاصريه . فقد روى من القصص عن بدخه وترفه وكرمه ما يفوق الخيال ، كما حكى عن قسوته وبطشه ما يتجاوز التصور . وما لا ريب فيه ان خياله قد لعب دوراً هاماً في تلك الحكايات ، الا انه بالتأكيد لم يخلطها اختلاقاً . فلقد تهيأت له فرصة للعيش في معية الملك محمد شاه قرابة ثماني سنين ، وقد خالط اثناء تلك المدة رجال بلاطه والمقربين منه وسمع منهم كثيراً من القصص ، ولكنه لم يحصها . وقد أثبت ابن بطوطة خلال (رحلته) بأكملها انه مستعد لتصديق كل ما يسمع من حكايات واخبار مهما بلغت غرابتها ، وبدر ما حاول محاكمتها محاكمة منطقية . ويمكن ان يعزى موقفه هذا الى كثرة ما شاهد وسمع من حكايات يفوق بعضها الخيال بالرغم من واقعيتها ، إضافة الى طبيعة ثقافته الضحلة . فهو اذن لم يعتمد الكذب في رواية أخبار ملك الهند أو في تصوير ما جرى له من حوادث

وغرائب ، لكن خياله الحي زوّق بعض تلك الاحداث . واذا كانت حكاياته عن الهند قد بدت غريبة لمعاصريه فإن تلك الحكايات لم تعد غريبة على سمعنا في الزمن الحاضر . فنحن نعرف اليوم ان شبه القارة الهندية بأرضها الواسعة المتنوعة وغاباتها الكثيفة وجبالها الشاهقة وطبقاتها الاجتماعية المتنافرة بشرائها الباذخ وفقرها المدقع حافلة بكل عجيب وغريب . وعلى أية حال فلا بد لنا أن نؤكد بأن ابن بطوطة قد عني عناية خاصة بالتحدث عن الجوانب التاريخية والسياسية في الحياة الهندية دون الجوانب الاجتماعية والاقتصادية مما جعل ملاحظاته الاقتصادية والاجتماعية قليلة الأهمية ، في حين باتت أخباره التاريخية عن الامارات الاسلامية الهندية مرجعاً هاماً واصيلاً للمؤرخين ولدارسي تاريخ الهند في العصور الوسطى .

أما حكاياته عن جزر المحيط الهندي ، لاسيما جزر الملديف (جزر ذبابة المهل) التي أقام فيها ما ينيف على عام ونصف فقد أثارت الريبة في نفوس سامعيه بما اشتملته من معلومات غريبة عن الحياة الاجتماعية لتلك الاقطار النائية ، وخصوصاً عن الحياة العائلية . وبما ان سكان تلك الجزر كانوا يدينون بالاسلام فقد بدت بعض عاداتهم شاذة ومتنافية مع طبيعة التعاليم الدينية . ومهما قيل عن غرابة تلك المعلومات فانها تعتبر مصدراً أولياً عن الحياة الاجتماعية لتلك الجزر في ذلك العهد . ويعتبر ابن بطوطة أول كاتب يدوّن الملاحظات عنها .

أما ما يتعلق بأخباره عن الصين فلم تشتمل على أية غرائب بل كانت تصويراً أميناً لأهم معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تلك البلاد ، وقد قدم لنا صورة واضحة جداً عنها . ومن الجدير بالذكر ان شكوك الباحثين والمعاصرين عن زيارته للصين تعزى الى غموض وصفه للطريق الذي سلكه الى تلك البلاد ، وإلى اضطراب أسماء المدن والبقاع التي تحدث عنها . غير أن مسألة زيارته لتلك البلاد وعدمها لا تغض من أهمية ودقة معلوماته عنها .

٥ - أفريقيا الغربية :

لعل جولات ابن بطوطة في الصحراء العربية الكبرى وإفريقيا الغربية من أدق وأفضل ما اشتملت عليه (رحلته) ، كما انها من أكثر أجزاء (الرحلة) خلواً من المبالغات . وقد امتازت بوضوح خط سيرها بالرغم من اختلاف الباحثين حول مواضع بعض المدن ، والتي تعتبر في الوقت الحاضر مدناً تاريخية منقرضة . ويمكن أن نعلل دقة (الرحلة الافريقية) بكونها آخر رحلاته ويكونه قد شرع في تدوينها عقب عودته بشهور قليلة ، فكانت معلوماتها ما تزال طرية في ذهنه . وقد حاول ان يروي مشاهداته بحياد

رحلة آخرون

يضم بعض الباحثين الى طائفة « الرحالة » عدداً من الكتاب الذين زاروا قطراً معيناً أو مدينة معينة ودونوا مشاهداتهم عنها ، كعبد اللطيف البغدادي وابن فضلان واسامة بن منقذ . غير ان كتابات أمثال هذه الشخصيات لا تمثل في الحقيقة السمات العامة لأدب الرحلات ، فهم لم يكونوا رحالة أصلاً بل قاموا برحلاتهم لأهداف خاصة مما جعل كتاباتهم من طراز معين ، وان كانت ذات فائدة جغرافية . والواقع اننا لو شئنا ان نحصي كتب « الرحلات » الحقيقية لوجدنا ان عددها ليس كبيراً . ولعل أشهرها - فيما عدا رحلتي ابن جبير وابن بطوطة اللتين تتبآن المكانة الاولى - (رحلات) ناصري خسرو وسليمان التاجر وبزرگ بن شهریار واهروي وابن سعيد والعبدي وابي حامد الغرناطي وعدد آخر من (الرحلات) ذات المكانة الثانوية .

فأما رحلة ناصري خسرو (١٠٥٠ م - ١٠٦١ م) المعنونة (سفرنامه) (زاد المسافر) فلا يمكننا ان نضمها الى أدب الرحلات الجغرافي العربي بالرغم مما حوته من ملاحظات قيمة عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلدان العربية وخصوصاً فلسطين ومصر وسوريا والحجاز . ذلك ان هذا الكتاب قد دون باللغة الفارسية ، وهو يمت بذلك الى الادب الفارسي .

وأما رحلات سليمان التاجر وبزرگ بن شهریار ، فان الحديث عنهما يشوبه الكثير من الغموض . فسليمان التاجر الذي يعتبر من طلائع الرحالين (القرن التاسع الميلادي والثالث الهجري) لم يخلف أثراً مكتوباً ، بل نقلت أخباره عن الرواة . وقد قام بتسجيلها شخص آخر هو ابوزيد السيرافي ، الذي ربما أضاف إليها مما جمعه من حكايات الشيء الكثير . ولنا نعرف بالضبط مدى الدقة في أخبار هذا الرحالة ، الا أن من المتفق عليه انه كان من اهالي سيراف وانه كان من ابرز تجارها الذين كانوا يتاجرون ببضائع الهند والصين ، لذلك كانت حكاياته من المصادر المبكرة جداً عن بلاد

تمام مما جنبها شطحات الخيال . أما معلوماتها فهي بمجموعها دقيقة كما انها أصيلة وقيمة ، ولم يرد لها مثل فيما كتبه الادريسي أو البكري عن تلك الجهات . وقد أثبتت تحقيقات الرحالة الاوروبيين في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أن معلوماته عن الصحراء العربية الكبرى وعن غربي أفريقيا صحيحة ودقيقة . ويمكن القول أن أبرز أخطائه في هذه الرحلة حديثه عن نهر النيجر ، وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين العرب من قبله وشاركهم بعض الرحالة الغربيين من بعدهم ، ألا وهو اعتبار نهر النيجر فرعاً من فروع نهر النيل . وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً بين الرحالة الغربيين حتى أثبت منجو بارك PARK عام ١٧٩٥ انعدام الصلة بين النهرين . ولعل ابن بطوطة اقتبس هذا الرأي من الادريسي . وفيما عدا هذا الخطأ الجغرافي الذي وقع فيه فان معلوماته وأوصافه الجغرافية للمناطق التي اخترقها خلال رحلته الافريقية هي من أفضل ما ورد في (الرحلة) من أوصاف جغرافية . وقد لخص لنا بدقة وبراعة الاوضاع الطبوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية للصحراء الكبرى ولافريقيا المدارية الغربية ، وحقق فيها مستوى عالياً في الكتابة الجغرافية .

كذلك تتصف رحلة ابن بطوطة الافريقية بأهمية تاريخية واثنوبولوجية . وتكمن أهميتها التاريخية في كونها سجلاً قيمياً مبنياً على تجربة شخصية لاحوال مملكة مالي الاسلامية في عهد السلطان منسى سليمان . فقد أسهب ابن بطوطة في وصف بلاط مالي وما يجري فيه من مراسيم واحتفالات ، وقد استغرقت اوصافه تلك صفحات عديدة . وأما أهمية (الرحلة) من الناحية الاثنوبولوجية فتكمن في ثرائها بالملاحظات الاجتماعية والاقتصادية عن قبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن افريقيا الغربية . ويعتبر ابن بطوطة من أوائل الرحالة الذين كشفوا عن النظام الأمي MATRIAR-CHAI الذي تتبعه قبائل الطوارق لا سيما في منطقة ايولاتن والجهات المجاورة ، وهو النظام الذي يجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل ان لم تكن أعظم شأناً منه ، ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها . كذلك رسم لنا ابن بطوطة صورة اقتصادية متكاملة لكل منطقة مر بها في افريقيا الغربية موضحاً طريقة تعاملها الاقتصادي وما تتبادله من بضائع وما تنبت من مزروعات وما تصنعه من صناعات .

وهكذا يبدو لنا من هذا الاستعراض ان رحلة ابن بطوطة حافلة بالمعلومات الاصلية عن كثير من بلدان الشرق الاقصى وغربي أفريقيا . والواقع انها ليست مؤلفاً ذا قيمة جغرافية وتاريخية واثنوبولوجية فحسب ، بل هي في الوقت نفسه كتاب أدبي قيم حافل بالحكايات الممتعة والعبر النافذة .

الهند والصين وعن البحار الشرقية . وقد استفاد من تلك الاخبار والحكايات عدد كبير من الجغرافيين العرب اللاحقين .

وأما بزرك بن شهریار الناخذاه فالغموض يحيط به وبحكاياته أكثر من سابقه . ويدل لقبه انه كان ربانا يجتري الملاحة ، وكان يجوب البحار الشرقية . ويبدو ان كتابه الذي نشره بعض المستشرقين بعنوان (عجائب الهند بره وبحره وجزائره) قد ضمّ كثيراً من حكايات غيره من ملاحى عصره (القرن الرابع الهجري) والعصور التالية ، حتى أصبح الكتاب عبارة عن قصة ملاحى العرب فوق متن المحيطين الهندي والهادي على توالي العصور وما شاهدوا فيها من عجائب الملاحة وغرائب العواصف وما أبصروه من حيوانات واسماك بحرية ونسور وطيور مائية^(١٢٠) .

وأما الهروي (ابو الحسن علي بن ابي بكر) المتوفى عام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م ، فقد اكتسب صفة الرحالة بحق ، اذ كان يلقب بالسائح الهروي . وقد قال عنه ابن خلكان « انه لم يترك براً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها الا رآه ، ولم يصل الى موضع الا كتب خطه على حائطه »^(١٢١) . وكان الهروي يعنى على نحو الخصوص بوصف المساجد والمواضع الدينية التي كانت هدفه الاول ، فرحلته المسماة (الاشارات في معرفة الزيارات) تنبئ عن نزعة دينية قوية ، الا انه كان اضافة الى ذلك يسجل بعض الملاحظات الاجتماعية والتاريخية العامة . وقد أوضح منهجه في كتابه بالعبارة التالية : « أما بعد فانه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات ، وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور . ووقع الامتناع الى انه حصل لي الاجتماع برسول وقد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته اذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الرسول زيارات الشيخ . . . فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب . . »^(١٢٢) .

ولقد ذكر البلدان التي زارها وتحدث عنها في كتابه على النحو التالي : « وهنا

(١٢٠) الرحلات - باشراف شوقي ضيف ، ص ٣٣

(١٢١) أدب الرحلات . لاهد ابو سعد ، ص ١٣٨

(١٢٢) الاشارات الى معرفة الزيارات - لابي احسن علي بن ابي بكر الهروي ، عنيت بنشره وتحقيقه حابين سورديل - طومين - منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية - ١٩٥٣ ، ص ١ .

ابتدىء بذكر الروايات من مدينة حلب واعمالها والبلاد التي تليها ، ثم أذكر الشام بأسرها والساحل بأسره وبلاد الفرنج وفلسطين والارض المقدسة وجميع زيارات البيت المقدس ومدينة الخليل وديار مصر بأسرها والصعيد والبلاد البحرية والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها واطراف الهند والحرمين الشريفين والمدينة واليمن وبلاد العجم . . . وهذا الكتاب مقتصر على ذكر الزيارات . واما ذكر الابنية والآثار والعجائب والاصنام فلها كتاب مفرد غير هذا . . »^(١٢٣) .

وأما الرحالة الآخرون فجميعهم من المغرب ، ولا تكتسب رحلاتهم أهمية خاصة فقد خلت من الملاحظات الاجتماعية والاقتصادية والعمرائية الهامة وركزت بصورة خاصة على النواحي الدينية .

فابن سعيد الاندلسي (المتوفى عام ١٢٧٤ م) لم يكن دقيق الملاحظة فيها كتبه عن الأقطار التي شاهدها ، ولا سيما مصر التي اتهمه المقرئزي بالتحامل عليها^(١٢٤) ، علماً بأن مشاهداته في مصر هي أهم ما تضمنته (رحلته) . وكان قد زار أيضاً دمشق وحلب والموصل وبغداد والبصرة وارجان وتونس والمغرب . وقد نقل المقرئ في كتابه (نفح الطيب) الكثير من نصوص رحلاته .

وأما محمد العبدري (محمد بن علي بن عبد الدار القرشي) فقد كان يمكن ان يخلف لنا « رحلة » من مستوى « الرحلات » التي خلفها ابن جبير وابن بطوطة ، الا ان مزاجه الخاص قد غلب احكامه على المدن وسكانها فجاءت عاطفية كما أكد ذلك من قبل ابن عبد السلام الناصري^(١٢٥) . كما ان احتفاله الشديد بالجانب الادبي قد جاء في كثير من الاحيان على حساب النواحي الجغرافية . وقد اتبع في كتابة رحلته المسماة (الرحلة المغربية) التي كتبها في حدود ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م طريقة ابن جبير . فقد افتتحها قائلاً : « كان سفرنا تقبله الله تعالى في اليوم الخامس والعشرين من ذي قعدة من عام ثمانية وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) مبدؤها من حاحة صانها الله وكان طريقنا على بلاد القبلة »^(١٢٦) .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٣ .

(١٢٤) الجغرافية والرحلات عند العرب - لقولا ريادة ، ص ١٧٠ .

(١٢٥) رحلة العبدري - تحقيق محمد القاسي - منشورات جامعة محمد الخامس .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٧ .

ولقد أفاض العبدري في امتداح المدن والسكان التي لقي رعاية وحفاوة من أهلها ، بينما ذم الأماكن التي لم يلق فيها ترحيباً خاصاً . وكان ميالاً في الحقيقة إلى الذم أكثر من المدح ، ففيها عدا مدينة تونس ومذن قليلة أخرى ، فقد ذم ذماً شديداً مدن القاهرة والاسكندرية والقيروان وطرابلس وقابس وتلمسان وغيرها . بل اننا لا نكاد نعث في كتب الرحالة على ذم يضارع في حدته ما ورد في (رحلته) عن مدينة القاهرة وسكانها ، وما قال في ذلك : « ثم وصلنا إلى قاعدة الديار المصرية ، ومدينة الملكة بالبلاد الشرقية فوجدناها معدية المعنى ببعض ما رأينا بها وسمعنا . وهي مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكي عديد الرمل والقطر ، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر تريك صورة ليل في عين ابن الحمير وتسفر لك خبرتها عن وجه كثير تبدل الذكي التحرير وتحير . . . وحسبها شراً أنها جريد لحشالة العباد ووعاء لنفاية البلاد ومستقر لكل من يسعى في الأرض بالفساد من أصناف أهل الشقاق والعناد والاحاد استولى الحسد على قلوبهم . واستوى الغش في جيوبهم فنار الحسد مضطربة في الجوانح وسهم الغش ممزوج في غسل النصائح ، خرجت عمارتها عن الحد المعروف وزادت كثيراً عن القدر المألوف . . فهي سوق ينصب بها الشيطان رايته ويجري إليها غايته . ويرى فيها لا تباعه وهم أهلها آيته . أطبقوا على سوء الاخلاق وتوافقوا على رفض الوفاق وتراضعوا ألبان اللوم وتحالفوا ألا وجد منا افتراق . فجوادهم أبخل من الحباب وشجاعهم أجبن من صافر الجنادب وعالمهم أجهل من فراش ورفيعهم أوضع من خشخاش ورصينهم أحر من خدائش وجملهم أقبح من غول وصحيحهم أسقم من مذبول . . الخ » (١٢٧) .

غير أنه كان على العموم دقيقاً وبارعاً في وصف المعالم الطبيعية للمدن والبلدان . ومن ذلك قوله في وصف مدينة أنسا مثلاً : « وأما بلد أنسا فهو بلد منفسح منشرج في بسيط مليح طيب التربة يغل كثيراً وبه ماء جار كثير ونخل وبساتين وهو آخر بلاد السوس من أعلاه متصل بالجبل وكان فيها مضي مدينة كبيرة فتوالت عليها الخطوب المجتاحة ونزول الأقدار المتاحة حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين فليس بها إلا رسوم حائلة وطلول مائلة » (١٢٨) .

ولقد اشتملت رحلة العبدري على زيارة مدن عديدة مبتدئاً إياها من مدينة حاحة

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٨ .

في منطقة السوس الأقصى قاصداً حج بيت الله الحرام ، فاجتاز بلاد السوس الاوسط ومر بتلمسان والجزائر وبجاية وقسطنطينة وتونس ، ثم قطع ليبيا حتى الاسكندرية . وسافر من الاسكندرية إلى القاهرة . ومن هناك اتبع الطريق البري إلى مكة . وبعد أن فرغ من الحج قفل عائداً ماراً بفلسطين ثم القاهرة ثم الاسكندرية ثم متخذاً نفس الطريق الاول .

أما أبو حامد الغرناطي فيتطلب منا وقفة خاصة ، ولا نبالغ أن قلنا أن مشاهداته تأتي في أهميتها بعد رحلتي ابن جبير وابن بطوطة . وبالرغم من أن المعلومات عنه ضئيلة ، وما تزال معظم كتاباته في حيز المخطوطات ، إلا أن في الامكان اعطاء فكرة واضحة عن انجازاته في أدب الرحلات الجغرافي . والواقع أنه جدير بأن يوضع مع رحالة الصف الاول في الادب الجغرافي العربي ، فلقد امضى فترة طويلة من عمره يتجول بين البلدان ، وشملت جولاته أقطاراً عديدة في أوروبا وآسيا ، اضافة إلى البلدان العربية . فلقد عادر مسقط رأسه في الأندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وهو في السابعة والعشرين من عمره وطاف بنواحي المغرب الأقصى ووصل سجلماش . ثم انتقل إلى إفريقية (تونس الحالية) . ثم غادرها بطريق البحر إلى الاسكندرية ونزل بسردينية . ومن الاسكندرية انتقل إلى القاهرة عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، وظل في مصر حتى عام ٥١٥ هـ . ثم سافر إلى دمشق ومكث وقتاً قصيراً . ثم وصل إلى بغداد سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٣ م ، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الذي كان سنده . وبعد ثماني سنوات من الإقامة في بغداد سافر إلى أهر في إيران عام ٥٢٤ هـ ثم إلى أربيل . وأقام في هذه النواحي فترات طويلة ، وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر أنه دخل خوارزم ثلاث مرات . ولقد دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا ، أي أنه عبر البحر الاسود من آسيا الصغرى إلى القرم . ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل إلى مصب القولجا . ثم انحدر إلى شرق إيران وخوارزم ماراً ببحر الخزر . وأقام في هذه الجهات فترات طويلة ، حوالي ثلاث سنوات ، وخاصة في مدينة سجسين (وكانت تسمى أيضاً مدينة أتل وتقع آثارها قرب مدينة استراخان الحالية) . كذلك أقام فترة طويلة في بلاد المجر التي يسميها انقورية ويسمي قومها (الباشغرو) . ثم غادر المجر قاصداً سجسين ومر ببلاد الصقالبة، ووصل خوارزم في أواخر عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٣ م ، وغادرها في ٥٤٦ هـ / ١١٥٥ م . قاصداً الحج فمر ببخارى ومرو ونيسابور والري واصفهان والبصرة . وأدى فريضة الحج ثم قصد إلى بغداد ، وظل في بغداد حتى سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م . وفي سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٥ م .

ذهب الى الموصل وبقي فيها عاماً . ثم خرج الى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ، ثم انتقل الى دمشق في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ - ١١٧٠ م . وتوفي فيها وهو في الثانية والتسعين من عمره (١٢٩) .

وهكذا يتضح بأن أبا حامد الغرناطي كان يحب الاسفار حباً حقيقياً حتى لم يكن يستقر له قرار في مدينة معينة ، وانه بذلك قد جمع من التجارب والمشاهدات ما لم يتوفر لاي رحالة عربي آخر سوى ابن بطوطة . ولو أنه تجنب في رواية مشاهداته اسلوب المبالغات والغرائب لتفوق على أية رحالة آخر . ولكنه بسبب هذا الاسلوب اعتبر من قبل كثير من الباحثين انه من أوائل من انحدر بالعلم الجغرافي الى درجة الخرافة ، وانه خلق منه علماً عجائبياً هدفه الاول البحث عن عجائب الكون والارض والمخلوقات والمبالغة في التحدث عنها . ويعتقد كراتشكوفسكي ان مادته الجغرافية فقيرة للغاية ومضطربة ، كما يعتقد ان ميله الى الغرائب واضح جداً (١٣٠) .

غير ان الباحثين يتفقون أيضاً على أن ما خلفه لنا الغرناطي من مادة جغرافية يمكن ان تمدنا بمعلومات طيبة اذا ما غربلت ومحصت تمحيصاً دقيقاً . ولا تشمل تلك المادة المعلومات الجغرافية التي أوردها في بعض كتاباته ، وهي معلومات نقلها عن كتاب ثانوين بصورة مشوهة ، بل تشمل الحكايات التي جمعها عبر سياحاته في البلدان . وقد أودع تلك الحكايات في كتابين هما (تحفة الالباب ونخبة الاعجاب) و (المغرب عن بعض عجائب المغرب) . أما الكتب الاخرى التي ينسبها اليه بعض الكتاب امثال (تحفة الكبار في أسفار البحار) و (نخبة الازدهان في عجائب البلدان) فلم تثبت نسبتها اليه . ويبدو انه ألف كتاب (المغرب) في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥٥ م في بغداد وأهداه الى الوزير عون الدين بن هبيرة ، وكتب (تحفة الالباب) بعد ذلك بعامين في الموصل بناء على الحاح من الشيخ معين الدين أبي حفص عمر الأردبيلي .

فأما كتابه الثاني (تحفة الالباب) فقد حاول فيه الغرناطي ان يظهر كعالم جغرافي اضافة الى كونه رحالة ، غير ان معلوماته المبسرة ومعارفه البسيطة قد خانت ، فلجأ مرة أخرى الى حشر الكتاب بحكاياته الاسطورية . ولقد اشتمل الكتاب على أربع ابواب . وخصص الباب الاول لصفة الدنيا وسكانها من انسانها وجانها ، والباب الثاني لصفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والباب الثالث لصفة البحار وعجائب حيواناتها وما

(١٢٩) حسين مؤنس ، ص ٣٢٤ .

(١٣٠) كراتشكوفسكي ، ص ٢٩٥ .

يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والقار ، والرابع لصفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام الى يوم النشور (١٣١) . وقد تعطينا عناوين هذه الابواب فكرة عن مضمون الكتاب . فهو عبارة عن خليط غريب من المعلومات الاسطورية والواقعية ، وهو يمثل بذلك أفضل تمثيل النهج الجديد في الجغرافية العربية ، وهو النهج الكوزموغرافي . وقد جعل هذا النهج الذي اتبعه فيما بعد كثير من الجغرافيين الجغرافية العربية أقرب الى علم هدفه التسلية .

أما كتابه الاول الذي اشتمل على حكايات رحلاته ، وهو كتاب (المغرب ..) ، فقد احتوى أيضاً على معلومات جغرافية وفلكية كثيرة ، كالحديث عن أوقات الصلاة ومعرفة الفيء والزوال والاقاليم السبعة والفصول الفلكية وطول الارض وعرضها والبحار وعرضها ، الا انه مع ذلك عني عناية خاصة بمشاهداته الشخصية مما جعل الكتاب وثيق الصلة بأدب الرحلات . ولقد أفاض في هذا الكتاب بذكر عجائب مدن الاندلس والمغرب ، كما خصص جزءاً هاماً منه لوصف بلاد تركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاد المجر ، وهي منطقة شاسعة تحتل أجزاء من آسيا وأوروبا فيما بين خوارزم وسهل المجر . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالحديث عن الناس وحرفهم وأشكالهم وعاداتهم وتقاليدهم ونتاجاتهم الاقتصادية . ويعتقد بعض الباحثين ان أوصافه لهذه المناطق تعتبر من الاسانيد العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في دراسات الجغرافية التاريخية والبشرية ، لانها معلومات أصيلة قد سجلت بصدق وأمانة بالرغم مما يشوب بعض حكاياتها من مبالغات (١٣٢) . أما كراتشكوفسكي فيقول بان أبا حامد أحد المؤلفين الذين تظفر حكاياتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب الاتحاد السوفياتي (١٣٣) . والحقيقة ان المعلومات المتعلقة بالجهات المذكورة هي أهم ما خلفه لنا أبو حامد الغرناطي واعظمها قيمة في مجمل كتاباته . أما مشاهداته في البلاد العربية فليست بذات قيمة تذكر . ولعل من أفضل الأمثلة على أسلوبه ذي النكهة الجغرافية البشرية وصفه التالي لبلاد الصقالية ، قال : « لما دخلت الى بلاد الصقالية خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالية وملاؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات كأنه الحبر ، وهو مع ذلك طيب صاف ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار بعضها على

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(١٣٢) حسين مؤنس ، ص ٣٣٥ .

(١٣٣) كراتشكوفسكي ، ص ٢٩٧ .

بعض أكثر من السمك لا تؤذي أحداً ، وفيه حيوان مثل السنور الصغير له جلد أسود يسمى سمور الماء تحمل جلوده الى بلغار . ولما وصلت الى بلادهم رأيت بلداً واسعة كثيرة العسل والخنطة والشعير والتفاح الكبير . . . ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه . . . وللصقالب سياسات عظيمة ، اذا تعرض احدهم لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأي شيء من التعدي كان ، أخذ من المتعدي جملة من المال . فان لم يكن له مال بيع اولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية . فإن لم يكن له اهل ولا اولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من عنده حتى يموت . . . وبلادهم آمنة ، واذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلي يبيع هو وأولاده وداره ويعطى لذلك التاجر دينه ، والصقالب شجعان وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية . . . وحدثت انهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم وتفسد عليهم نسائهم بالمعجزات السحرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم فيشدون أيديهم فارجلهن ويلقيهن في النهر ، فكل من رسبت من المعجزات في الماء تركوها وعلموا انها ليست بساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار» (١٣٤) .

وقال يتحدث عن جهات شمالي روسيا التي يسميها ولايتي (ويسوا) و(يورا) : « . . وفيهما يصطاد والقندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هنالك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم نحيء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ويتخذ بيوتا في البر الى جانب النهر . . . ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلا جداً ، حتى ان التجار يقولون ان الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفي الشتاء يكون الليل طويلا مثل ذلك . . . وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش الا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السمور جداً ويأكلون لحمه . والتجار يحملون اليهم السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ويأخذون أثمانها جلود السمور ، ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق اليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم الواحاً ينحتونها طول كل لوح باع وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرب (الرجل) بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده

(١٣٤) أدب الرحلات - لأحمد أبو سعد ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

الشمال وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الانسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ويرفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة فيذهب على ذلك الثلج بسرعة . ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً ان يمشي هناك البتة لان الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد ، وأي حيوان تمشى عليه يفوص فيه فيموت ، الا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب فانها تمشي عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيض جلودها في زمن الشتاء» (١٣٥) .

وقال يصف الحياة في مدينة سجسين : « والشتاء عندهم شديد البرد وبيوتهم في الشتاء من خشب الصنوبر ، ويوقدون النار ، ولهم أبواب صفار مغطاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والحطب عندهم كثير . ويحمد النهر حتى يصير كالأرض تمشي عليه الخيل والعجل من البهائم جميعا ويتقاتلون على ذلك الجمد . ومشيت عرض ذلك النهر لما جدد فكان عرضه ألفي خطوة وثمانمائة ونيفاً وأربعين خطوة بخطوي سوى الأنهار التي تخرج من ذلك النهر» (١٣٦) .

أما جانب المبالغات في حكاياته فيمكن أن يتمثل بالحكايات التالية ، قال : « وأهل ويسوا ويورا يمتنعون في الصيف من دخول بلاد البلغار لأنه اذا دخل في تلك الديار واحد في شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء وتفسد على الناس زروعهم . وهذا مجرب عندهم . . . وفي بلادهم نوع من الطير الكبير لها مناقير طوال مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف . . . واذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو الثلج أذابته كما تذيب النار» (١٣٧) .

وقال في موضع آخر : « ولقد حدثت ان يبلغار سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا أذننها وجعلوا فيه حبالا وجروا تلك السمكة فانفتح أذننها وخرج من داخلها جارية تشبه الأدمية بيضاء حمراء الخدين سوداء الشعر من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا واخرجوها الى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها

(١٣٥) الرحلات ، بأشراف شوقي صيف ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(١٣٦) حسين مؤنس ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(١٣٧) الرحلات ، ص ٥٤ .

وتصيح ، وقد خلق الله لها في وسطها مثل جلد أبيض كالثوب الصفيق القوي من وسطها الى ركبتيها يستر عورتها كأنه أزار مشدود على وسطها ، فامسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها (١٣٨) .

وقال في موضع آخر : « وقد رأيت في مدينة البلغار من نسل العاديين رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة أذرع كان يسمى نقي كان يأخذ الفرس تحت ابطه كما يأخذ الانسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جسده وأعضائه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يحمل على عجلة ويبيضه لرأسه كأنها مرجل ، وكان اذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجرة البلوط يسكها كالعصا بيده لو ضرب بها القيل لقتله (١٣٩) .

وقال متحدثاً عن اليمن : « عند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا ، كل انسان منهم نصف انسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقال لهم وبار ، وهم من ولد ارم بن سام أخي عاد وتعود ، ليس لهم عقول ، يعيشون في الأجام وبلاد الشجر على شاطئ بحر الهند ، والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكلونهم ، وهم يتكلمون العربية ويتناسلون ويسمون بأسماء العرب ويقولون الاشعار (١٤٠) .

وهكذا يتضح بأن كتابات الفرناطي تجمع بين الضدين ، الملاحظات البشرية الدقيقة البارعة ، والحكايات الخرافية التي لا يمكن ان يقبلها العقل والتي تفوق بغرابتها حكايات أي جغرافي أو رحالة عربي آخر .

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٣٩) حسين مؤنس ، ص ٣١٦ .

(١٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٤٥ .

الفصل الخامس

في الجغرافية الفلكية والرياضية

لا يعنينا في هذه الدراسة استعراض جهود المؤلفين العرب والمسلمين في علم الفلك الذي أسموه بعلم « الهيئة » (١) ، فالواقع ان أمثال هذه البحوث من اختصاص علماء الفلك ، وهي تكاد تستقل عن الدراسات الجغرافية البحتة . غير أننا سنحاول استعراض أهم الآراء والانجازات الفلكية ذات الجوانب الجغرافية ، لا سيما وان الجغرافيين العرب والمسلمين قد ربطوا الجغرافيا بالفلك . وبناء على ذلك سنتناول بالبحث النقاط التالية :

- أولاً - مفاهيم الجغرافيين العرب والمسلمين عن الأرض .
- ثانياً - آراء الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد مساحات ومواقع الأرض .
- ثالثاً - أهم الانجازات الفلكية للجغرافيين العرب والمسلمين .

(١) كان العرب يطلقون على عالم الفلك لقب (صاحب صنعة) .

مفاهيم الجغرافيين العرب والمسلمين عن الأرض

لا ريب أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد تأثروا في آرائهم عن الأرض بالآراء اليونانية - الرومانية ، ولا سيما بآراء أرسطو وبطليموس . وكانت الفكرة السائدة عن الأرض لدى العرب أنها مسطحة ، ولعل تلك الفكرة ثمرة للافكار التقليدية المتوارثة عن الاجداد ، وربما اقتبست من اليهود . غير أن الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين سرعان ما نبذوا تلك الفكرة منذ أن شاعت بينهم آراء بطليموس ، وآمنوا جميعاً بكروية الأرض . وظهر تأثرهم بالآراء اليونانية كذلك في اعتقادهم بأن الأرض تحتل مركز الكون ، وأنها محاطة بالبحار . ويمكن القول أن آراءهم عن الأرض باتت تحكمها ثلاث فرضيات : الاولى انها مدورة ، والثانية انها ثابتة في مركز الفلك ، والثالثة انها محاطة بالبحار . وقد اعتاد معظم الجغرافيين العرب أن يصدروا مؤلفاتهم بتلك الفرضيات الثلاث . فلقد وصف ابن خرداذبة مثلاً في مقدمة كتابه « المسالك والممالك » شكل الأرض على النحو التالي : « قال أبو القاسم صفة الأرض انها مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحبة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك ، وبنية الخلق على الأرض ان النسيم جاذب لما في ابدانهم من الثقل لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد » (١) .

أما ابن رسته فقد ذكر في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) بأن « الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها فهي في وسطها كالمح في البيضة . . وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ،

(١) المسالك والممالك - لابن خرداذبة ، ص ٤ .

والدليل على ذلك ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض قبل طلوعها على المواضع المغربية ، وغيبوتها على المشرقية أيضاً قبل غيبوتها عن المغربية ، ويتبين ذلك من الاحداث التي تعرض في العلوفانه يرى وقت الحادث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض ، مثل كسوف القمر فانه اذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منها على ثلاث ساعات من الليل مثلاً ، أقول وجد ذلك في الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين . فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقي ان الشمس غابت عنه قبل غيبوتها عن البلد الغربي . . ويوجد هذا الاختلاف في الأوقات في جميع ما يسكن من الأرض . . فانه ان سار أحد في الأرض من ناحية الجنوب الى الشمال رأى انه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التي كان لها غروب فيكون أبدي الظهور ، وبحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد . . فيدل جميع ما ذكرناه على أن بسيط الأرض مستدير وان الأرض على مثال الكرة » (٢) .

وقال المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف) : « وذكر من عني بمساحة الأرض وشكلها ان تدويرها » (٣) يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل وذلك تدويرها مع المياه والبحار فان المياه مستديرة مع الأرض وحدها واحد ، فكلمنا نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تم باستدارة الماء وطوله وعرضه » (٤) .

وقال ابن الفقيه في كتابه (مختصر كتاب البلدان) : « وذكر بعض الفلاسفة ان الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحبة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك . وبنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في ايديهم من الخفة والأرض جاذبة لما في ايديهم من الثقل ، لان الأرض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد » (٥) .

أما أبو الريحان البيروني فكان من أكثر الجغرافيين المسلمين عناية بشرح نظرية

(٢) الاعلاق النفيسة - لابن رسته ، ص ٨ و ١٢ .

(٣) المقصود به محيطها

(٤) كتاب التنبيه والاشراف - للمسعودي - منشورات مكتبة خياط - بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣١ .

(٥) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمداني ، ص ٤ .

كروية الأرض . وقد أورد بالتفصيل البراهين التي ذكرها العلماء الأغريق والرومان عن هذه النظرية ، ولا سيما يرايين أرسطو وبطليموس ، وأضاف إليها يرايين جديدة . وختم يرايينه قائلاً : « وما ذكرنا يعرف سبب كروية الأرض لأن أبعادها لو لم تتماسك مع نزوعها الى المركز ونزوع ما هو أبعد عنه الى الموضع الأقرب منه ان خلالة لم يكن بد من اجتماعها حول الوسط اجتماعاً مستويًا للابعد تسوية الميزان ، لكن اجزاءها متماسكة مخرجة عن وجهها عن الاستواء الى التضريس بالجبال والانجاد بقصد من التدبير الالهي وان لم يخرج لها جملة الأرض ، وليس منه في الماشي معنى يضمها وان كان يتفاضل ، فان سطح الماء مستدير وأصدق كروية من الأرض لانه ان توهم مستويًا كان وسطه أقرب الى المركز من حواشيه ، فما منها سائل لا محالة الى وسطه وغير مستقر الا بعد استواء الأبعاد وزوال الأعلى والأسفل من السفح بالانتقال من الاستواء الى الاستدارة . وهذا معنى قصده بطليموس في الأصل الثاني وحوله في الاستدلال من الأرض الى الماء . فان السائر في براريها نحو الجبال يظهر له منها أعاليها كأنها تبرز من الأرض شيئاً بعد شيء حتى ينتهي إليها . وهذا ظاهر في الوجود يستقيم منه الدلالة على الأرض والماء معاً في الكروية . ومتى كان بين السائر وبين الجبل الشامخ الذي وراءها معاً في الكرية . ومتى كان بين السائر وبين الجبل الشامخ الذي وراءها لان المدرك منه هو أعاليه ، فلو كانت الأرض مستقيمة السطح لكان أدراك الأقرب من تلك المتوسطات أولاً أولى من الأبعد بل سفوح الشامخ وأسافله لأنها أقرب الى البصر من أعاليه بحسب فضل ما بين القطر وبين الضلع من المثلث القائم الزاوية . فان اعتبر الحال بتأمل نيران موجهة في أعلى الجبل ووسطه وأسفل سبقت رؤية التي توقد في القمة من التي في الوسط ، ومن التي في الوسط من التي في السفح . وعلى استمرار هذا الدليل في الأرض والماء معاً يتفرد الماء بدليل مما يخفصه وهو المراكب في البحار ، فان أدقها تظهر للناظر إليها من بعيد قبل جثتها ، والجثة أعظم منها لولا ان حدة الماء الكروية يمنعها وتخفيها مع انبطاحها بسبب اختلاف الانصباب الى ان يزول الستر بالاقتراب فيظهر حينئذ » (٥) .

وأيد أخوان الصفا في رسالتهم الرابعة كروية الأرض وقالوا في ذلك : « والأرض جسم مدور مثل الكرة وهي واقفة في الهواء بأن الله يجمع جبالها وبحارها وبراريها وعماراتها وخرابها ، والهواء يحيط بها من جميع جهاتها شريقها وغربها وجنوبها

(٥) راجع كتاب القانون المسعودي - لابي الريحان البيروني - الجزء الاول ، ص ٢٥ - ٣٧ ، و ٤٧ - ٤٩ .

وشمالها ومن ذا الجانب ومن ذلك الجانب ، وبعد الأرض من السماء من جميع جهاتها متساو » (٦) .

ولقد فضل ياقوت الحموي في شرحه لشكل الأرض آراء الخوارزمي فقال في كتابه (معجم البلدان) : « وأصلح ما رأيت في ذلك وأسده في رأيي ما حكاه محمد ابن أحمد الخوارزمي ، قال أن الأرض في وسط السماء والوسط هو السفلى بالحقيقة ، والأرض مدورة بالكلية ، مخرجة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوحدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك من الكروية ، اذا وقع الحس منها على الجملة ، لان مقادير الجبال وان شامت صغيرة بالقياس الى كل الأرض . ألا ترى ان الكرة التي قطرها ذراع أو ذراعان اذا نتأ منها كالجوارسات وغار فيها أمثالها ، لم يمنع ذلك من اجراء أحكام المدور عليها بالتقريب ؟ ولولا هذا التضريس لاحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها حتى لم يكن يظهر منها شيء » (٧) .

وأيد الكتاب المتأخرون أيضاً فرضية كروية الأرض ، وعلى رأسهم ابن خلدون . فلقد ذكر في المقالة الثانية من (مقدمته) الشهيرة : « أعلم انه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم ان شكل الأرض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها . وقد يتوهم من ذلك ان الماء تحت الأرض وليس بصحيح وانما تحت الطبيعى قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل » (٨) .

كذلك أيد هذه الفرضية أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) واورد البراهين على كروية الأرض حيث قال : « أما جملة الأرض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة أدلة منها أن تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للمشرقين على طلوعها وغروبها للمغربين يدل على استدارتها شرقاً وغرباً ، وارتفاع القطب والكواكب الشمالية وانحطاط الجنوبية للواغلين في الجنوب بحسب غولها وتركب الاختلافين للسائرين على سمت بين السمتين وغير ذلك دليل على استدارة جملة باقي الأرض . وأما تضاريسها

(٦) رسائل اخوان الصفا - الجزء الثاني ، ص ١١١ .

(٧) معجم البلدان - لياقوت الحموي ، ص ١٧ .

(٨) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٤ .

التي تلزمها من جهة الجبال والاعوار فانه لا يخرجها عن أصل الاستدارة ولا نسبة لها محسوسة الى جملة الأرض . فانه قد تبرهن في علم الهيئة ان جبلاً يرتفع نصف فرسخ يكون عند جملة الأرض كخمس سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع . وكذلك ثبت في علم الهيئة أن الأرض في وسط الفلك بعدة أدلة ، منها ان انخساف القمر في مقاطراته الحقيقية للشمس يدل على ان الأرض في الوسط والواقف على الأرض من جميع الجوانب رأسه الى ما يلي المحيط وهو الفوق ورجله الى ما يلي المركز وهو التحت ، ومحبذ الأرض مواز لمقعر الفلك المحيط به ، والسائر على الأرض يجب ان يصير سمت رأسه في كل وقت جزءاً آخر من الفلك ... (٩) .

وافتح الدمشقي كتابه ؛ (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) بشرح مسهب لشكل الأرض ومركزها في الكون حيث قال : « اجمع المحققون لعلم الهيئة على أن الأرض جسم بسيط طباعه ان يكون بارداً يابساً متحركاً إلى الوسط . وانما خلقت بأسطة باردة يابسة للغلظ والتماسك ، اذ لولا ذلك لما أمكن قرار الحيوان عليها ولا حدث النبات والمعدن فيها . وهي كروية الشكل بالكلية مضرسة بالجزوية من جهة الجبال البارزة والوحدات الغائرة ولا يخرجها ذلك من الكروية . وهي في الوسط من الفلك ولا نسبة لها اليه ، لان أصغر كوكب من الثوابت بقدرها مرات ووسط الفلك هو السفلى منه ومثلها فيه كمثل النقطة في الدائرة أو كالمح من البيضة ، فهي واقفة في الوسط والماء محيط بها الا المقدار البارز الذي خلقه سبحانه وتعالى وجعله مقراً للحيوان فانه بمنزلة التضاريس والخشونات على ظهر الكرة ، فمثلها بها كمثل الثمرة العفص المضرسة مع الاستدارة . وجعل الله البارز منها مقراً للحيوان البري ووهدها المغمورة بالماء مقراً للحيوان البحري . وجعل كل واحد من العناصر فلكاً محيطاً بما دونه الا الماء فانه منعه العناية الالهية عن الاحاطة . لذلك المذكور ولما بين مركزي الشمس والأرض من المخالفة ، فان الشمس تدور على مركزها الخاص بها الذي هو غير مركز الأرض ، فتقرب من جانب الأرض وهو الجنوب موضع حضيضها ، وتبعد من جانب وهو الشمال موضع أوجها . ولما كان ذلك انجذبت المياه الى جهة الجنوب وانحسرت من جهة الشمال فصار الشمال يابساً (أرضاً طافية) . وجعل الله تعالى لون الأرض في الغالب أغبر أدكن ليظهر النور والضياء وليتمكن أبصار الحيوان من النظر فتمت الحكمة

(٩) تقويم البلدان - لابي الفدا ، ص ٣ .

(واقنن نظام الحيوان والنبات والمعدن) . قالوا والدليل على أن الأرض كروية الشكل مستديرة ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع النواحي في وقت واحد ، بل يرى طلوعها في النواحي المشرقية من الأرض قبل طلوعها على النواحي المغربية ، وغيبوتها عن المشرقية قبل غيبوتها عن المغربية . وكذلك خسوف القمر اذا اعتبرناه وجدناه في النواحي المشرقية والمغربية مختلفاً متفاوت الوقت ، ولو كان طلوعه وغروبه في وقت واحد بالنسبة الى النواحي لما اختلف . ولو أن انساناً سار من ناحية الجنوب الى ناحية الشمال رأى أنه يظهر له من الناحية الشمالية بعض الكواكب التي كان لها غروب فتصير ابدية الظهور . وبحسب ذلك يكون عنده من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع ابدية الخفاء على ترتيب واحد . والماء محيط بالأرض ولولا التضريس لغمرها حتى لم يبق منها شيء ، ولكن العناية الالهية اقتضت اللطف بالعالم الانسي فأبرز له من الماء جزءاً منها ليكون مركزاً للعالم . وأحاطة الماء لها بالأمر الطبيعي اذ كل خفيف يعلو على الثقيل . والماء أخف من الأرض فكان مركزه بها والهواء جاذب لها من جميع جهاتها الى الفلك بالسوية كجذب المغناطيس للحديد ولذلك وقفت في الوسط .

وذهب آخرون الى انها واقفة في الوسط من دفع الفلك لها من جميع جهاتها كتراب ملقى في قارورة تدور بسرعة قوية دورانها مستمر فان ذلك التراب ينجذب الى وسطها ، وكذلك التبن اذا ألقي في طشت مملوء بماء وأدير ذلك الماء بقوة دار التبن معه وانضم الى الوسط مجتمعة بعضاً مع بعض . وذهب آخرون الى ان الأرض بطبعها هاربة من الفلك الى ذاتها على ذاتها فهي اذن منضمة منه من سائر جهات احاطته بها انضماماً الى نفسها عنه بالتساوي ، واذا زال الفلك يوم القيامة وانتشرت كواكبه وطوي طي السجل ذهب عنها الموجب لهروبها فامتدت وانتشرت واهتزت وتساوت بالانفراش الى قريب من اذبال الساء الثانية (الثابتة) والله أعلم .

ثم انهم مثلوا حلول الساكن فيها بتفاحة غرز فيها شعير من سائر جهاتها ، فكل شعيرة منتصبة الى ما قابلها من جميع جهاتها ، لا فرق بين شيء منها في استقامته ، وحيث كان الناس في استيطانهم فإن أرجلهم الى الأرض ورؤوسهم الى السماء . وكل فريق منهم يرى ان أرضه التي هو عليها هي المستقيمة في الاعتدال . وقالوا في تحقيق هذه الدعوى لو ان أهل ناحية من نواحي الأرض حفروا بئراً وأطالوها الى المركز ، وحفر أهل الناحية التي تقابلهم بئراً أخرى وأطالوها الى ان يلتقي الحفيران ويكون الماء

واحداً لا يرسل كل واحد دلوه ، وكان أسفل هذا الدلو مقابلاً لأسفل الدلو الآخر وكان هؤلاء يجرون دلوهم الى فوق والآخرين كذلك لا يشك كل واحد منهم انه جاذب دلوه من أسفل البئر الى اعلاه . واستدلوا أيضاً على ذلك ان الانسان اذا كان في موضع من الأرض وأخرج خطأ مستقيماً من مكانه الى مركز الأرض وانتهى به الى الجهة الأخرى فانه يمكن أن يكون على طرف الخط من الجهة الأخرى من رجله ؛ حتى انهم قالوا متى قيس بين أهل الصين وبين أهل الاندلس اللذين هما على طرفي المعمور كانت أقدامهم متقابلة وكان طلوع الشمس والقمر عند هؤلاء غروبها عند هؤلاء وليل هؤلاء نهار وبالعكس» (١٠) .

أما ما يتعلق بحركة الأرض فقد مال الجغرافيون العرب والمسلمون الى الاخذ بفرضية العلماء اليونانيين وهي سكون الأرض ، لا سيما وان هذه الفرضية تتناسب ومعتقداتهم الموروثة . والحقيقة انهم لم يتعرضوا لمناقشة هذه الفرضية آلا بصورة عابرة باعتبارها من الحقائق المسلم بها ، ونادراً ما تجشموا عناء البرهنة عليها . وبطبيعة الحال فقد عزوا ظاهري الليل والنهار والفصول الأربعة الى حركة الشمس حول الأرض . ومن بين القلائل الذين تعرضوا لهذه القضية اخوان الصفا في (رسائلهم) المعروفة والبيروني في كتابه (القانون المسعودي) . فقد فسر اخوان الصفا ثبات الأرض في وسط السماء على النحو التالي : «وأما سبب وقوف الأرض في وسط الهواء ففيه أربعة أقاويل . منها ما قيل ان سبب وقوفها هو جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الجذب من جميع الجهات . ومنها ما قيل انه الدفع يمثل ذلك فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الدفع من جميع الجهات . ومنها ما قيل أن سبب وقوفها في الوسط هو جذب المركز لجميع اجزائها من جميع الجهات الى الوسط ، لانه لما كان مركز الأرض مركز الفلك أيضاً وهو مغناطيس الانقال يعني مركز الأرض ، واجزاء الأرض لما كانت كلها ثقيلة انجذبت الى المركز وسبق جزء واحد وحصل في المركز فصارت الأرض بجميع اجزائها كرة واحدة بذلك السبب . ولما كانت اجزاء الماء أخف من اجزاء الأرض وقف الماء فوق الأرض . ولما كانت اجزاء الهواء أخف من اجزاء الماء صار الهواء فوق الماء . والنار لما كانت اجزائها أخف من اجزاء الهواء صارت في العلو مما يلي فلك القمر . والوجه الرابع ما قيل في

(١٠) عجائب البر والبحر - للدمشقي ، ص ٩ - ١١ .

سبب وقوف الأرض في وسط الهواء هو خصوصية الموضع (اللائق به) . وذلك ان الباربي عز وجل جعل لكل جسم من الاجسام الكليات يعني النار والهواء والماء والأرض موضعاً مخصوصاً هو أليق المواضع به ، وهكذا القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، جعل لكل واحد منها موضعاً مخصوصاً في فلكه هو ثابت فيه والفلك يديره معه . وهذا القول أشبه الأقاويل بالحق ...» (١١) .

وقال البيروني مبرهنًا على ثبات الأرض ومؤيداً بذلك فرضية بطليموس : «ثم نعود الى القسم الثاني من حركة الأرض وهي على نفسها نحو المشرق من غير انتقال من مكانها وقد قال بها أصحاب أرجيه من علماء الهند ونظن بالداعي اليها الزام الساء ما يرى من حركات الكواكب فيها بالحركة الثانية الشرقية والزام الأرض لوازم الحركة الاولى الغربية كيلا تجتمع على الساء حركتان مختلفتان معاً - وهذا وان لم يكن قادحاً في مباني هذه الصناعة فقد قلنا ان لا أثر للحركة الاولى في الاثر لانها تدبر جلته ادارة واحدة . فليس يحسن من مناهج التحصيل ان يتمسك به ان انتقض من جهات آخر ، أو أن يجهل البحث عن حقيقته ولم يخرج الامر فيه من طريقته . فأما بطليموس فانه استجمل القائلين بها عن جهة حملهم سرعة الحركة على الاشياء الثقيلة الكثيفة وبطونها أو بطلانها على الاشياء الخفيفة اللطيفة . وهذا استدلال هو بالبحث الطبيعي أليق منه بالتعليمي بل هو اقناعي فان في اللطيف والكثيف الى أن يحصل منهما على حقيقة معنى ...»

وأما النظر التعليمي في هذا المعنى فإن القول فيه راجع الى أن الأرض لو كانت متحركة بهذه الحركة لتخلف عنها ما انحاز منها من طائر مخلوق أو شيء مرمي به نحو جو السماء أو سحاب واقف في الهواء ، فترى حركتها نحو المغرب دائماً وان كانت لها أيضاً هذه الحركة كما للأرض وجب أن يرى ساكناً من أجل حركتها على التحاذي ، لكننا نراها متحركة في جميع الجهات فليست ولا هي بمتحركة هذه الحركة التي بها الليل والنهار ...»

فليعلم الآن أن الأرض لو كانت متحركة كما ذكر لكان ما ذكرنا من الأميال لمنطقة حركتها ثلاثمائة وستين ضعفاً في أربع وعشرين ساعة يختص الجزء من تسع مائة من الساعة ، وهو الدقيقة من الفلك مائة ألف وسبع مائة وثمان وسبعين ذراعاً ،

(١١) رسائل اخوان الصفا ، ص ١١٣ .

ومقدار دوران هذه الدقيقة من الأزمان بتقدير الهند اياه نفس واحد من أنفاس الانسان . فاذا كانت الحركة فيه قريباً من ميل كانت ظاهرة للقياس ، فان كانت الاشياء المنفصلة عن الارض حافظة للمسافة بما لها مع الارض من الحركة فمعلوم انه اذا غشيها قوة زائدة قاسرة انها يزيلها عن ذلك السكون المتخيل ويظهر فيها أثرها ما وجبت اختلافها في الجهات لان القاسرة في جهة المشرق مجتمعة مع الطبيعة وفي جهة المغرب معاندة لها دافعة ، فتكون وثبة الواثب فيهما مختلفتين ومرور السهم المرمي اليهما والطائر القاطع نحوهما متباينا . ويتفاوت كذلك في الشمال والجنوب للاتساع في احدهما والتضيق في الآخر ، وليس من ذلك شيء بوجود ، فليس للارض في مكانها حركة دورية في مركزها (١٢) .

وبالرغم من اجماع الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على ثبات الارض وعدم حركتها فان نفرأ قليلاً منهم قد خامرته الشكوك في سكون الأرض ، واشاروا الى احتمال تعرضها لدورة يومية حول مركزها من أمثال عمر الكاتبي وأبي الفرج الشامي . بل أن نفرأ آخر ، ومن بينهم أبي سعيد السجزي ، قد ألحح الى امكان حدوث حركة الارض حول الشمس . وقد ورد على لسان البيروني قوله بأنه رأى الاضطراب المسمى بالزرقالي اخترعه أبو سعيد السجزي فأعجبه ويستحق مبدعه الثناء . وهذا الاضطراب مؤسس على ما ذهب اليه البعض من أن الحركة المشاهدة لنا هي حركة الأرض لا حركة الفلك . ولعمري هذه عقدة يصعب حلها (١٣) .

وعلى أية حال فلا بد من أن نؤكد ان هذه الشكوك لدى بعض العلماء المسلمين لا تمثل سوى اتجاه ضعيف وقد رفضته الغالبية العظمى من علماء العرب والمسلمين وبرهنوا على خطئه كما فعل البيروني وعمر الكاتبي والزويني وقطب الدين الشيرازي وغيرهم . ومن المعروف ان العلماء اليونانيين قد رفضوا أيضاً من قبل رأي اريستارخس ARISTRACHUS الاسكندراني القائل بدوران الارض حول نفسها وحول الشمس ، ولم يأخذ علماء الفلك بفرضيته الا في منتصف القرن السادس عشر على يدي كوبرنيكس وغاليليو .

(١٢) راجع : القانون المسعودي ، ص ٤٩ - ٥٢ .

(١٣) علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى - تأليف كارلو نالينو - روما ١٩١١ ، ص ٢٥٢ .

آراء الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد مساحات ومواقع الأرض

لقد شغلت الجغرافيين العرب والمسلمين مسألة حجم الأرض ، ومساحات الجهات المسكونة منها ، ومدى امتدادها على سطح الارض ، وكيفية تحديد مواقع المدن والظواهر الطبوغرافية المختلفة من جبال وأنهار وبحار وبحيرات .

فأما ما يتعلق بحجم الارض فقد تداولوا أولاً أرقاماً عديدة يمت البعض منها الى الهندود ويمت البعض الآخر الى اليونانيين والرومانيين ، الى ان توصلوا الى رقم خاص بهم . ولقد تراوحت التقديرات الهندية لمحيط الارض بين ٣٣١٧٧ ميلاً (ارياباهتا) و ٥٠٩٣٨ ميلاً (براهما جويتا) و ٤٧١٤٠ ميلاً (اكاليا) (١٤) . كما تراوحت التقديرات اليونانية - الرومانية بين ٤٤٠٠٠ ميل (ارسطو) و ٢٦٦٦٠ ميلاً (اراتوستنس) و ١٨٠٠٠ ميلاً (بوسيدونيوس وبطليموس) (١٥) . أما التقديرات العربية فقد أشار اليها ابن رسته في الجزء السابع من كتاب (الاعلاق النفيسة) على النحو التالي : « الذي يحيط بالارض اعني الدائرة العظمى التي على كرتها اربعة وعشرون ألف ميل (*) ، لان كثيراً من القدماء ذكروا ان الذي وجد بين مدينتين على خط واحد من الخطوط التي تدور على أقطار معدل النهار اذا كان بينهما من العرض جزء واحد من ثلاثمائة وستين جزءاً من الدائرة العظمى التي على الارض من الاميال ستة وستين ميلاً وثلاثي ميل . وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً بالتقريب مع الماء المحيط بها ، يكون نصف ذلك ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية عشر ميلاً بالتقريب » (١٦) .

(١٤) نفيس أحمد ، ص ١٩٢ .

(١٥) شريف محمد شريف ، ص ٢١١ و ٣٣٠ و ٤٠٨ .

(*) لقد توصل العلامة الايطالي نالينو الى ان الميل العربي يساوي ١٩٧٣،٢ متراً وهو أكثر من الميل الايطالي

بحوالى ٣٨٤ متراً فالميل الايطالي يساوي ١٥٨٩ متراً . (نالينو ، ص ٢٨٩ وص ٢٩٣) .

(١٦) الاعلاق النفيسة - لابن رسته ، ص ١٧ - ١٨ .

وقال ابن الفقيه : « والارض مقسومة نصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب ، وهذا طول الارض وهو أكبر خط في كرة الارض ، كما ان منطقة البروج أكبر خط في الفلك . وعرض الارض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش . واستدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً(*) والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون أصبعاً ، والأصبع ست حبات شعير مصفوفة بطن بعضها الى بعض فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ » (١٧) .

أما المسعودي فقد أورد الأرقام التالية لمحيط الارض : « قال المسعودي : وذكر من عني بمساحة الارض وشكلها ان تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرون ألف ميل . . وذلك انهم نظروا الى مدينتين في خط واحد احدهما أقل عرضاً من الاخرى وهما الكوفة ومدينة السلام فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الاكثر ثم قسموا ما بقي على عدد الاميال التي بينهما فكان نصيب الدرجة مما يجازيها من أجزاء الارض المستديرة ستة وستين ميلاً وثلاثين ميلاً على ما ذكر بطليموس(**) . فاذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلاثمائة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل . وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلاً ، والميل أربعة آلاف ذراع بالسوداء ، وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل(*) . والذراع أربع وعشرون أصبعاً والأصبع ست شعيرات مضموم بعضها الى بعض ، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال . ومنهم من يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع والفرسخ أربعة أميال ، وكلاهما يؤولان الى شيء واحد . وفيما ذكرناه من مقدار حصة الدرجة من الاميال تنازع ؛ فمنهم من رأى ان ذلك سبعة وثمانون ميلاً ، ومنهم من

(*) الفرسخ يساوي ٣ أميال عربية ، وهو يبلغ حوالى ٦ كيلومترات (٥٩١٩ متراً) .

(١٧) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ٤ - ٥ .

(**) من المعلوم ان تقدير بطليموس لمحيط الارض كان حوالى ١٨٠٠٠ ميل ، فهو اذن غير مسؤول عن التقدير الذي تناقله الجغرافيون العرب . ويقول نالينو في تفسير هذا الخطأ : (حينما ترجم العرب كتب اليونان والسريان لم يعتبروا أن الميل الروماني والسرياني أصغر من ميلهم العربي ، فنتيجة سهوهم نسبوا الى بطليموس مقدارا زائدا على مقداره بكثير . ص ٢٧٩ - ٢٨١) .

(*) يعتقد نالينو أن مقدار الذراع السوداء هو ٤٩٣,٣ ملليمتر ، ص ٢٨٩ .

رأى ذلك ستة وخمسين ميلاً وثلاثين ميل ، والمعول في ذلك على ما حكيناه عن بطليموس» (١٨) .

وأشار اخوان الصفا الى أن بعد الأرض من السماء من جميع جهاتها متساو ، وان أعظم دائرة في بسيط الارض هي ٢٥٤٥٥ ميلاً (٦٨٥٥ فرسخاً) ، وقطر هذه الدائرة هو قطر الارض هو ٦٥٥١ ميلاً (٢١٦٧ فرسخاً) بالتقريب . ومركزها هي نقطة متوهمة في عمقها على نصف القطر وبعدها من ظاهر سطح الارض ومن سطح البحر من جميع الجهات متساو لان الارض بجميع البحار التي على ظهرها كرة واحدة» (١٩) .

ونقل ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) رأي أبي الريحان البيروني في حجم الارض ومساحتها ، حيث ذكر بان طول قطر الارض بالفراسخ الفان ومائة وثلاثة وستون فرسخاً وثلاث فرسخ ، ودورها بالفراسخ ستة آلاف وثمانمائة فرسخ . وعلى هذا تكون مساحة سطحها الخارج منكسراً أربعة عشر ألف وسبعمائة وأربعة وأربعين ألفاً ومئتين واثنين وأربعين فرسخاً وخمس فرسخ(*) . كذلك أورد الحموي تقديرات أخرى على النحو التالي : « وقال دورينوس ان الارض خمسة وعشرون ألف فرسخ ، من ذلك الترك والصين اثنا عشر ألف فرسخ ، والروم خمسة آلاف فرسخ ، وبابل ألف فرسخ . وحكي ان بطليموس صاحب المجسطي قاس حران وزعم انها أرفع الارض فوجد ارتفاعها ما عدد ، ثم قاس جبلاً من جبال آمد ، ورجع فمسح

(١٨) التنبيه والاشراف - للمسعودي ، ص ٣١ - ٣٢ .

(١٩) رسائل اخوان الصفا ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢٠) معجم البلدان - لياقوت الحموي ، ص ٨ .

(*) لقد أوضح الدكتور احمد سوسة في كتابه (الادريسي في الجغرافية العربية) مدى اقتراب قياسات البيروني من القياسات الحالية على النحو التالي :

طول الدرجة على خط الاستواء ٢٢٤٣٨٩ ذراعاً (٥٦,٩٩) ميلاً عربياً أو ٦٨,٧٦ ميلاً (١١٠,٦٨٠ كيلومتر) في قياسنا الحالي .

طول المحيط = ٨٠٧٨٠٠٤٠ ذراعاً (٢٠١٦٠) ميلاً عربياً أو ٢٤٧١٥,٥ ميلاً بقياسنا الحالي .

طول القطر = ٦٤١٧ ميلاً عربياً أو ٨٧٦٧ ميلاً (١٢٦٦٢) كيلومتراً بقياسنا الحالي .

ولما كان محيط الارض الحقيقي ٢٤٨٨٠ ميلاً (٤٠٠٤٤) كيلومتراً ، والدرجة ٦٩,١١ ميلاً (١١٠,٢٢٣ كيلومتراً) والقطر ٧٩٢٠ ميلاً (١٢٧٤٧ كيلومتراً) فيكون التفاوت بالنسبة للمحيط ١٦٤,٥ ميلاً (٢٦٥ كيلومتراً) أقل من الرقم الحقيقي (٠,٣٥) من الميل (٠,٥٦) من الكيلومتر بالنسبة للدرجة . أما بالنسبة للقطر فالتفاوت يصبح ٥٣ ميلاً (٨٥ كيلومتراً) أقل من الرقم الحقيقي . (ص ٢٠٥) .

من موضع قياسه الاول الى موضع قياسه الثاني على مستو من الارض فوجده ستة وستين ميلا ، فضربه في دور الفلك وهو ست وستون درجة فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف ميل ، يكون ذلك ثمانية آلاف فرسخ . وقال غير بطليموس مما يرجع الى رأيه أن الأرض مقسومة بنصفين بينها خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهو أطول خط في كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج(*) أطول خط في الفلك ، وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى الشمال الذي تدور حوله بنات نعش ، فاستدارة الأرض بموضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، الدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ . وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضاً مثل ذلك ، لان العمارة في الأرض بين خط الاستواء وكل واحد أربع وعشرون درجة ، ثم الباقي قد غمره ماء البحر . فالخلق في الربع الشمالي من الأرض والربع الجنوبي خراب ، والنصف الذي تحتها لا ساكن فيه ، والربعان الظاهران هما أربعة عشر اقليماً منها سبعة عامرة وسبعة غامرة من شدة الحر بها» (٢١) .

وذكر ابن خلدون في (مقدمته) ان « خط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الأرض واكبر خط في كرتها ، كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار(**) أكبر خط في الفلك ، ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة ، والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر الف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبغاً والاصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهراً لبطن . وبين دائرة معدل الفلك التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة ، لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة ، والباقي منه خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود ، كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر » (٢٢) .

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(*) تمثل منطقة البروج الحلقة التاسعة والاخيرة من حلقات الفلك في مفهوم الجغرافيين العرب وهي منطقة النجوم الثابتة .

(**) المقصود بدائرة معدل النهار خطي الطول المتقابلين اللذين يكونان دائرة كاملة وهي التي تسمى MERT- DIAN CIRCLE . أما خط معدل النهار فيقصد به خط الاستواء .

(٢٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٥ .

ولم يقتنع الجغرافيون والفلكيون العرب والمسلمون بالتقديرات التي ورثوها عن الهنود والاغريق لمقدار محيط الأرض ، وقاموا أنفسهم بمحاولة عملية للتثبت من هذه القضية . وقد جاءت المبادرة من الخليفة العباسي المأمون الذي أمر باجراء قياس لطول درجة من خط نصف النهار(*) للتوصل الى مجموع محيط الأرض . وقد اقتضت هذه العملية القيام بمسح عملي لعله كان الاول من نوعه في هذا الميدان . وقد دلت قياساتهم بأن طول الدرجة يبلغ ٥٦ ميلا ، في حين ان بطليموس كان قد حدد طول الدرجة بـ ٦٦ ميلا(*) . وقد روى ابن خلكان تلك العملية على النحو التالي :

« ان المأمون كان مغرمًا بعلوم الاوائل وتحقيقها ، ورأى فيها ان دور كرة الأرض أربعة وعشرون الف ميل ، كل ثلاثة أميال فرسخ . فأراد المأمون أن يقع على حقيقة ذلك فسأل ابناء موسى بن شاكر المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي . فقال أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل تتحقق ذلك أم لا . فسألوا عن الأراضي المتساوية أي البلاد هي ؟ فقليل لهم صحراء سنجار في غابة الاستواء ، وكذلك وطأت الكوفة . فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى أقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا الى سنجار . وجاءوا الى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالي (أي خط عرض الموقع) ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً . ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الأرض من انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان ، فلما فرغ

(*) المقصود بخط نصف النهار خط الطول الذي يمتد من خطب الشمالي الى القطب الجنوبي ، وهو يمثل نصف دائرة ويسمى أيضاً بخط الهجرة . ومن الواضح ان قيام العرب باستخراج مقدار « الدرجة » عن طريق قياس المسافة بين خطي عرض في موضع يتقاطعان فيه مع أحد خطوط الطول قد أوقعهم في خطأ طفيف ، وهذا الخطأ ناتج عن اعتقادهم بأن الأرض عبارة عن كرة كاملة وليست مفلطحة عند القطبين كما هو الواقع . وقد أدى شكلها هذا الى أن يزيد القطر الاستوائي على القطر القطبي بحوالى ٢٦ ميلا . وأدى ذلك بدوره أيضاً أن يزيد مقدار الدرجة كلما اتجهنا نحو القطب . فهي تبلغ مثلاً ١١٠٥٦٤ متراً بين درجة العرض صفر والدرجة الاولى ، في حين تبلغ ١١١٦٨٠ متراً بين درجة العرض ٨٩ و ٩٠ درجة . وقد أجرى فلكيو المأمون قياساتهم عند درجة العرض ٣٦٣٥ درجة ، مما أدى الى أن تزيد حساباتهم لمحيط الأرض عن الحقيقة ، ولكن بمقدار غير كبير . فقد زاد تقديرهم لدرجة العرض عن الحقيقة بحوالى ٨٧٧ متراً . هذا مع العلم ان قياس ايراتوستين للدرجة زاد عن الحقيقة بحوالى ١٥٧٥ متراً .

(*) ينبغي ان نلاحظ بأن الميل العربي هو أكبر في الحقيقة من الميل الروماني في عهد بطليموس .

الحبل نصبوا في الارض وتداً آخر وربطوا فيه جبلا طويلا ومشوا الى الجهة الشمالية أيضاً كفعلمهم الأول . ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على ارتفاع الأول درجة . فمسحوا ذلك القدر الذي قدره من الارض بالحيال فبلغ ستة وستين ميلا وثلاثي ميل ، فعلموا ان كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلا وثلاثان . ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه جبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الجنوبي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك . وهذا اذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك . فلما عاد بنو موسى الى المأمون واخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الاوتل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر . فسيرهم الى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك» (٢٣) .

وقد علق المستشرق الايطالي نالينو على هذه الرواية بقوله : « لا تخلو رواية ابن خلكان من شيء من الخلط والخطأ . . . والصحيح انما هو ما يستخرج من زيج ابن يونس وكتب غيره في أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوساً من خط نصف النهار في صحراوي أي البرية عن شمال تدمر وبرية سنجار ، ثم أن حاصل العملين اختلفا فيما بين ٥٦ ١/٤ من الأميال و٥٧ ميلا ، فاتخذوا متوسطها وهو ٥٦ ٢/٣ من الأميال تقريباً ، أي ان طول الدرجة عن فلكي المأمون هو ١١١٨١٥ متراً ، وعلى هذا فطول المحيط ٤١٢٤٨ كيلومتراً (أي حوالي ٢٥٤٠٠ ميلا) ، وهو كما لا يخفى قريب من الحقيقة ودال على ما كان للعرب من البال الطويل في الارصاد والرياضيات واعمال المساحة . . . » (٢٤) .

ولقد حاول البيروني التثبت من هذه القضية واجرى مسحاً عملياً في احدى سهول داهستان الشمالية من اقليم جرجان ، كما أشار الى ذلك في المقالة السابعة من كتابه (القانون المسعودي) ، الا أن محاولاته تلك لم تنجح . ثم عاد فابتكر طريقة اخرى لقياس درجة من خط نصف النهار حيث وجد انها ٥٦٠٥٠ ميلا ، وقد ذكر

(٢٣) وفيات الاعيان - لابن خلكان ، الجزء الاول ، ص ٧٩ و ٨٠ ، طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ .

(٢٤) نالينو ، ص ٢٨٧ .

تلك الطريقة في كتابه (الاضطراب) على النحو التالي : « وفي معرفة ذلك الطريق قائم في الوهم الصحيح بالبرهان والوصول الى عمله صعب لصغر الاضطراب ، وقلة مقدار الشيء الذي يبني عليه فيه . وهو أن تصعد جبلاً مشرفاً على بحر أو تربة ملساء ترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط ، ثم تعرف مقدار عمود ذلك الجبل وتضرب في الجيب المستوي لتمام الانحطاط الموجود وتقسم المجتمع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه ، ثم تضرب ما خرج من القسمة في اثنين وعشرين أبداً ، وتقسم المبلغ على سبعة فيخرج مقدار احاطة الارض بالمقدار الذي به قدرت عمود الجبل » (٢٥) (*) .

ولم تقتصر جهود الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على محاولة التوصل الى مقدار محيط الارض ، بل حاولوا التعرف على مساحات الارض المسكونة أيضاً . وقد وردت في كتاباتهم تقديرات مختلفة لمساحات الارض المسكونة وللبحار التي تقع ضمنها ، وقد استند اغلبها الى كتابات اليونانيين ، كما اعتمد أيضاً على كتابات الهنود والايرائين فضلاً عن تقديراتهم الشخصية . وقد خضعت تقديراتهم بطبيعة الحال إلى الاعتقاد الذي توارثوه عن اليونانيين والرومانيين من أن جزءاً محدوداً فقط من الارض هو الذي يسكنه البشر ، وهو الجزء الذي أطلق عليه اسم (الربع المسكون) ، والذي حدده الرومان (بطليموس) بين خطي عرض ١٦ جنوباً و٦٣ شمالاً بينما حدده الجغرافيون العرب بين خطي عرض ٢١ جنوباً و٦٣ شمالاً . ولعل خير من درس هذه النقطة البيروني في كتابه (القانون المسعودي) . فقد أوضح بصورة دقيقة مساحات الاقاليم السبعة التي تمثل الجهات المعمورة من الارض مستنداً الى المراجع المختلفة ، وأورد التقديرات النهائية التي توصل اليها والتي كانت تمثل أفضل التقديرات القديمة . وقد نقلها عنه أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) بعد أن شرح المقاييس التي استخدمها البيروني (٢٦) . أما اخوان الصفا فقد أوردوا مساحات الاقاليم السبعة من الأرض المعمورة

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(*) لقد روى البيروني في كتابه (القانون المسعودي) انه أراد تحقيق قياس المأمون فاختار جبلاً في بلاد الهند مشرفاً على البحر وعلى برية مستوية ، ثم قاس ارتفاع الجبل فوجده ٦٥٢ ١/٢ ذراع . وقاس الانحطاط فوجده ٣٤ دقيقة . فاستنتج ان مقدار درجة من خط نصف النهار هو ٥٨ ميلا تقريباً . ويعلق نالينو على هذه العملية بقوله بأننا اذا أجرينا الحساب بجداول اللوغاريتمات وجدناه ٥٦,٩٣ ميلا ، (ص ٢٩٢) .

(٢٦) راجع تقويم البلدان - لابي الفدا ، ص ١٦ - ١٨ .

على النحو التالي (٢٧) :

الاقليم الاول وطوله من المشرق الى المغرب ٩٥٥٥ ميلا ٣١٨٥ فرسخاً ، وعرضه من الجنوب الى الشمال ٤٤٥ ميلا ١٤٦ فرسخاً .

الاقليم الثاني وطوله من المشرق الى المغرب ٧٦٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٦٠٠ ميلا .

الاقليم الثالث وطوله من المشرق الى المغرب ٨٢٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٣٥٥ ميلا .

الاقليم الرابع وطوله من المشرق الى المغرب ٧٨٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٣٥٥ ميلا .

الاقليم الخامس وطوله من المشرق الى المغرب ٧٤٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٢٥٥ ميلا .

الاقليم السادس وطوله من المشرق الى المغرب ٧٥٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٢٥٥ ميلا .

الاقليم السابع وطوله من المشرق الى المغرب ٦٦٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ١٨٥ ميلا .

كذلك أورد ياقوت الحموي تقديرات لمساحة الارض عموماً نقلها عن الجغرافيين السابقين . ومما قال في ذلك : « واختلفوا في مساحة الارض : فذكر محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الزيج ان الارض على القصد تسعة آلاف فرسخ ، والعمران من الارض نصف سدسها والباقي ليس فيه عمارة ولا نبات ولا حيوان ، والبحار محسوبة من العمران ، والمفاوز التي بين العمران من العمران .

وقال ابو الريحان : طول قطر الارض بالفراسخ الفان ومائة وثلاثة وستون فرسخاً وثلاثاً فرسخ ، ودورها بالفراسخ ستة آلاف وثمانمائة فرسخ . وعلى هذا تكون مساحة سطحها الخارج منكسراً أربعة عشر ألف ألف وسبعمائة وأربعة واربعين ألفاً ومئتين واثنين واربعين فرسخاً وخمس فرسخ .

أما بطليموس فقد ذكر ان تكسير جميع بسيط الارض مائة واثنان وثلاثون ألف ألف

(٢٧) رسائل اخوان الصفا ، ص ١٢٠ - ١٢٨ .

وستمائة ألف ميل ، يكون مائتي ألف وثمانية وثمانين ألف فرسخ (٢٨) .

ولم تقتصر جهود الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على مجرد معرفة مقدار محيط الارض وقطرها ومساحة المناطق المسكونة منها ، بل اهتموا اهتماماً خاصاً بتعيين عروض المكان لتحديد الموقع الجغرافي للمدن والظواهر الجغرافية المختلفة . والحقيقة ان اهتمامهم بتحديد مواضع المدن كان من العوامل الهامة في تطوير علم الفلك العربي . ولقد استفادوا في هذا الميدان من تجارب اليونانيين الا انهم في الوقت نفسه ابتكروا طرقاً جديدة أضفت على قياساتهم مزيداً من الدقة والضبط . ويقول عالم الرياضيات شوي Schoy بصدد ذلك : « لقد أجرى مختلف الجغرافيين العرب ابحاثاً متقنة الى درجة تفوق المؤلف انتهت بهم الى تحديد العروض الجغرافية ، ولذلك كانت الطرق التي مارسوها أصيلة ، كما كانت الطرق التي توصلوا اليها دقيقة ما بين حين وآخر » (٢٩) . وكانت أهم وسائلهم لتعيين عرض المكان قياس ارتفاع النجم القطبي ، أو ارتفاع الشمس ، أو ارتفاع النجم حول القطبي ، الا أن الوسيلة الاولى كانت أكثرها شيوعاً . وقد برع ابن الهيثم براعة خاصة في استنباط طرق دقيقة للرصد والحساب والتي سجلها في رسالته المعروف باسم (رسالة ارتفاع القطب) (٣٠) . كذلك برع في هذا الميدان فلكيون عديدون من أمثال أبناء موسى بن شاكر وابن يونس ، كما استفاد الخوارزمي والفرغاني والبتاني من طرق الاغريق والهنود في إيجاد خطوط العرض (٣١) . وكان من ثمار المعرفة بتحديد خطوط العرض اقامة المزاويل الشمسية في الميادين والمساجد التي كانت تستخدم في ضبط أوقات النهار ، ولا سيما لأغراض اقامة الصلاة .

أما ما يتعلق بخطوط الطول فان أمر تحديدها كان أكثر صعوبة ، ذلك أن آراء الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين لم تتفق على نقطة واحدة . فقد اتجه بعضهم الى الأخذ بالطريقة البطليموسية في تحديد خط الطول صفر في أقصى غرب المعمورة ، الا انهم لم يتخذوا خط بطليموس الذي كان يمر بجزر الخالدات ، بل اتخذوا خطاً يبعد

(٢٨) معجم البلدان - لياقوت الحموي ، ص ١٨ - ٢٠ .

(٢٩) نفيس أحمد ، ص ١٨٧ .

(٣٠) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - لقدرى حافظ طوقان - القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) ،

ص ٩٢ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

عنه نحو الشرق بعشر درجات ويمر بطرف الساحل المغربي . وقد اعتبروا مجموع خطوط الطول ٣٦٠ خطاً ، وأحصوا ١٨٠ خطاً منها ابتداء من ساحل أفريقيا الغربي نحو الشرق تنتهي في أقصى حدود الصين الشرقية في مدينة أطلقوا عليها اسم « السيلي » أو « سيللا » . وفي بعض الأحيان أحصوا ٩٠ درجة الى الشرق و ٩٠ درجة الى الغرب من خط افتراضي يخترق (قبة الارين) في مركز الارض (ولعلها مدينة أجين UJJAIN الهندية التي حرّفت الى أوزين ، ثم الى أرين الواقعة على خط الاستواء^(٣٣)) . ومنهم من جعل خط الصفر يبدأ عند ساحل أفريقيا الغربي . ومنهم من اتبع نهج اراتوستين فجعل خط الصفر يمر بين ساحل أفريقيا الشرقي وشبه جزيرة الهند مخترقاً جزيرة زنجبار التي أطلق عليها اسم جزيرة (الارين) أو (قبة الارض) وهي التي يتساوى فيها الليل والنهار . وعلى أية حال فقد كان تحديد خطوط الطول أمر يكتنفه الصعوبات ، وكانت أهم الوسائل التي أتبعها العلماء المسلمون في ذلك هي ملاحظة خسوف القمر ، وهي طريقة كانت تنطوي على اخطاء في الحساب قد تبلغ بضع درجات ، غير أن البيروني ابتكر طريقة جديدة سميت بالطريقة الارضية في الحساب ، وذلك بتحديد أقصر مسافة طولية بين نقطتين وتعيين خط عرض كل منهما ، ثم حساب الفروق في خطوط الطول بناء على النتائج المتوفرة^(٣٣) . وقد استطاع البيروني بالفعل ان يقيس فرق الطول بين بغداد وغزنة وتوصل الى نتيجة دقيقة للغاية^(٣٤) . كما استطاع الزرقالي بناء على ذلك ان يحدد طول البحر المتوسط الى ٤٢ درجة أي الى ما يعادل طوله الحقيقي بالتقريب بعد ان كان التقدير الروماني ٦٢ درجة^(٣٥) .

ولقد استتبع براعة الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين في تحديد خطوط طول وعرض المواقع الجغرافية محاولتهم رسم خارطة للارض ، وهي المحاولة التي تمت بمبادرة من الخليفة المأمون والتي أثمرت ما سمي بـ (الصورة المأمونية) ، وقد ضاعت فيما ضاع من آثار الفترة العباسية المبكرة . ولعل خير من تحدث عنها هو المسعودي حيث قال : « ورأيت ذلك في كتاب جغرافيا مارينوس وتفسير جغرافيا قطع الارض ، وفي هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رأيت من الصورة

- (٣٣) كراتشكوفسكي ، ص ٨٥ .
- (٣٣) نفيس احمد ، ص ٨٩ .
- (٣٤) كراتشكوفسكي ، ص ٨٥ .
- (٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

المأمونية التي عملت للمأمون واجتمع على صنعها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره عامره وغامره ومساكن الامم والمدن وغير ذلك وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما^(٣٦) .

ويعلق كراتشكوفسكي على هذا الموضوع بقوله : « ومن العسير علينا بالطبع استكناه الطريقة الفنية التي اتبعت في عمل الخارطة المأمونية ، ولكن هناك ما يحملنا على الافتراض بانها تتلخص في مصور جغرافي موضحة عليه اسماء الاقطار والمدن المعروفة في كل اقليم طبقاً للقسم المماثل من زيغ المأمون . وفيها تم غائباً استبدال الاسماء الكلاسيكية باسماء عربية ، غير ان حدود (المعمورة) والاقاليم قد حفظت لنا على الطريقة اليونانية . أما الاطوال فقد حسبت على ما يبدو على أساس المذهب الايراني ابتداء من المشرق كرد فعل ضد الاتجاه لغربي للعلم ، أو ربما كان ذلك أكثر ملاءمة لطريقة الكتابة العربية من اليمين الى اليسار . وبالطبع فان إعادة تصوير هذه الخارطة بحذاقها أمر مستحيل بالرغم من ان بعض الفلكيين قد أفادوا منها بطريقة منتظمة وحفظوا لنا مجموعة من الحقائق عنها ، ولا يزال الكثير من الغموض يكتنف طبيعة الأسس التي رسمت عليها^(٣٧) .

ومهما قيل عن الظروف التي أحاطت بـ (الصورة المأمونية) فالذي لا ريب فيه أن براعة الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين في تحديد خطوط عرض وطول المواقع الجغرافية هي التي مكنتهم من صنع تلك الخارطة . ومن المؤسف ان الجغرافيين العرب لم يستمروا على هذا النهج الفلكي في رسم الخرائط مما أدى بفن الكارتوغرافيا العربي الى التقهقر . ولم تحدث عودة الى هذا النهج السليم في رسم الخرائط الا على يدي الادريسي الذي قامت خرائطه للعالم على أساس تحديد درجات العرض والطول للمواقع الجغرافية مما جعل خرائطه ذات دقة كبيرة وأهمية عظيمة^(٣٨) .

- (٣٦) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
- (٣٧) المصدر السابق ، ص ٨٧ .
- (٣٨) ألتوميل ، ص ٣٩٤ .

أهم الانجازات الفلكية للجغرافيين العرب والمسلمين

لا ريب ان اهتمام العرب بعلم الفلك يرجع الى وقت مبكر ، وقد نبع هذا الاهتمام من طبيعة حياتهم البدوية التي كانت تفرض عليهم الاهتمام بتتبع حركات الشمس والقمر والكواكب والنجوم . ولعل خير من عبر عن حاجة الاعراب الى هذا العلم الجاحظ في كتابه (الحيوان) حيث قال : « عرفوا الآثار في الارض الرمل وعرفوا نجوم الاهتداء لان كل من كان بالصحاحص الاماليس حيث لا اماراة ولا هادي ، مع حاجته الى بعد الشقة ، مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤديه ، ولحاجته الى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة واضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث ، ولانه في كل حال يرى الساء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب فيها والنجوم الثابت وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فardاً وما يكون منها راجعاً ومستقيماً » (٣٩) .

ولقد دفعهم الى الاهتمام المبكر بعلم الفلك أمران ذوا مساس شديد بحياتهم اليومية ، وهما حاجتهم الى المطر ، وافتقارهم الى علامات هادية أثناء سراههم الليلي . فمما لا ريب فيه ان « المطر كان يمثل قوام حياتهم الرعوية ، فكانوا يحاولون التعرف على مواسمه ، فضلاً عن التعرف على الظواهر الجوية الاخرى ، واستدلوا على ذلك بطلوع بعض النجوم وبحركات الكواكب في السماء مما أدى الى ظهور ما سمي بـ « علم الانواء » الذي اهتموا به اهتماماً شديداً في عصر ما قبل الاسلام (٤٠) .

ومن المعلوم أيضاً أن البدو كانوا يضطرون الى الارتحال اثناء الليل - ولا سيما في

(٣٩) كتاب الحيوان لابي عمرو الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٩ ، الجزء السادس ، ص ٣٠
(٤٠) المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب - حبيب الراوي - مجلة الجمعية الجغرافية العراقية - المجلد الثامن ، حزيران ١٩٧٤ ، ص ٣٥-٣٧ .

فصل الصيف - فكان لا بد لهم من الاستهداء بنجوم معينة . ولقد بلغ من اهتمام العرب بمراقبة النجوم ان اتخذتها بعض القبائل رمزاً للعبادة قبل الاسلام ، حيث عبدت بعض جماعات طي « الثريا » وبعض جماعات ربيعة « المرزم » وهو نجم قريب من الشعري ، وبعض جماعات لخم وخزاعة وقريش « الشعري » (٤١) .

ولقد انتقل اهتمام العرب بهذا العلم الذي سمي تارة (بعلم الانواء) وطوراً (بعلم النجوم) أو (علم الهيئة) أو (الفلك) الى عصور ما بعد الاسلام ، فألفت فيه عشرات الكتب منذ بداية القرن الثاني الهجري وان ضاع أغلبها ولم يصل اليها سوى عناوينها التي اوردها الكتاب اللاحقون . وقد اشتملت تلك الكتب على معلومات متنوعة ، كالبحث في منازل القمر الثمانية والعشرين* ، وتحديد فصول السنة حسب ظهور نجوم معينة وحسب تحركات الشمس ، والكلام على الابراج الاثني عشر ، والحديث عن أنواع السحاب والبرق والمطر ، الى آخر ما هنالك من مواضيع ترتبط بالحياة العملية للفرد العربي الراعي والزارع . كذلك استخدم هذا العلم في بداية العصر الاسلامي لمعرفة اتجاه القبلة وموقع الكعبة وتحديد اوقات الصلاة والصوم .

غير أن التطور الحقيقي قد دخل على هذا العلم في أواخر عهد ابي جعفر المنصور حينما بدأ اتصاله بالفكر الاجنبي ، وحقق تقدماً عظيماً في مفاهيمه ومناهجه في عهد الرشيد والمأمون نتيجة للتشجيع المفرط والخطوة البالغة التي لقيها هذا العلم وعلماءه من قبل الخلفيتين المذكورين . وكان ذلك التطور ثمرة من ثمار ترجمة أمهات الكتب الفلكية من اللغات الهندية والايروانية واليونانية والسريانية الى اللغة العربية . ومن أوائل الكتب الفلكية التي ترجمت الى اللغة العربية الكتاب الذي سماه المنجمون باسم (كتاب السندهند الكبير) والذي كلف الخليفة المنصور الفلكي ابراهيم الفزاري بترجمته

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(*) لقد لاحظ العرب انحراف القمر اثناء دورته الشهرية عن موضع نجوم معينة فاختروا في السماء ثمانية وعشرين مجموعة من نجوم غير بعيدة عن فلك البروج وفلك القمر لتكون علامات لمسير القمر بصفة أن يدل تقريباً كل أحد منها على موضع القمر في احدى ليالي الشهر النجمي ، وسموا هذه المجموعات النجمية منازل القمر . وقد استعمل العرب تلك المنازل لمعرفة احوال الهواء وحوادث الجو في فصول السنة لانهم كانوا ينسبون تلك الحوادث الى طلوع المنازل وغروبها وقت الفجر حين تطلع الشمس وقد سمي العرب «نوء» سقوط منزلة مع انتهاء الفجر وطلوع مقابلتها في المشرق ، ونسبوا الى « الانواء » عدة تأثيرات كالامطار والرياح والحر والبرد (نالينو ، ص ١٢٢-١٢٣) .

من الهندية الى العربية . ويبدو أن أحد العلماء الهنود الذي كان من بين أعضاء السفارة الهندية الى بلاط المنصور في عام ١٥٤ هـ قد حمله معه وهو العالم (مانكا) MAN- KAH أو (كانكا) ، ومن المعتقد أن ذلك الكتاب هو رسالة (براهما سفوتا سدانتا) Brahma Sphuta Sidhanta التي وضعها في عام ٦٢٨ م . العالم الهندي براهما غبتا BRAHMAGUPTA^(٤٣) .

ولقد ترك هذا الكتاب أثراً بعيداً في تفكير علماء الفلك العرب والمسلمين ، وانعكس هذا التأثير في الأخذ بالحساب الهندي بالنسبة لخطوط الطول التي يبدأ تعدادها حسب النظام الهندي من خط الطول (خط منتصف النهار) المار بجزيرة لانكا (سرنديب أو سيرانكا) والذي يمر بوسط المعمورة . وقد سمي العرب النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار (قبة الارض) أو (القبة) أو (العرين) أو (الارين) أو (أذين) ، بالنظر لان خط طول (خط الزوال) لانكا كان يمر بمدينة اوجين UJJAIN^(٤٣) . ويعتبر الفزاري ويعقوب بن طارق من أهم دعاة المذهب الهندي في علم الفلك الذي ساد لفترة طويلة حتى أخذ يزاحمه المذهب اليوناني في عهد المأمون .

ولقد تأثر علم الفلك العربي في بداية نهضته أيضاً بالأراء الفارسية ، لكن ذلك التأثير كان طفيفاً ، وقد انعكس في الأخذ بحسابات كتاب (زيح الشاه) أو (زيح الشهرار) الذي ترجم الى اللغة العربية ، وقد تأثر بأرائه العديد من الفلكيين من أمثال ما شاء الله وحيش المروزي وابي معشر وحتى الخوارزمي . بل أن مصطلح (الزيح) الذي يطلق على الجداول الفلكية مستمد من أصل فارسي هي كلمة (زيكر) التي يقصد بها السدى الذي تنسج فيه اللحمة^(٤٤) .

ولقد أخذ المذهب اليوناني يسيطر على علم الفلك العربي منذ بداية القرن التاسع الميلادي ، ثم ما لبث أن أصبح المذهب السائد منذ منتصف القرن التاسع حيث انتشرت مترجمات ارسطو واقليدس وبطليموس بما فيها من تدريب على الارصاد الشخصية القائمة على الملاحظات الدقيقة . والواقع ان علم الفلك العربي خضع في هذه الفترة لأراء بطليموس بالذات كما انعكست في كتابيه (المجسطي) و (جغرافيا) ،

(٤٢) كراتشكوفسكي ، ص ٧٠

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٧٣

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٥

وصارت هذه الآراء مناراً يهتدي بها جميع الفلكيين ولا يجوز الخروج عنها . وقد شهدت هذه الفترة (ولا سيما عهد المأمون) اقبالاً لا مثيل له على الترجمة من اللغة السريانية واليونانية ، واشتهر من المترجمين حنين بن اسحاق وثابت بن قرة والحجاج بن يوسف والخوارزمي والكندي والفرغاني والبتاني ، كما شهدت أيضاً انشاء «بيت الحكمة» في أواخر عهد الرشيد .

ويمكن ان نلمس أثر آراء بطليموس في الكتابات المبكرة للجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين عن الافلاك والنجوم والكواكب التي كانت تساق كجزء من المعلومات الجغرافية ، فضلاً عن انعكاسها في (الازياج) التي ألفها الفلكيون المشهورون في ذلك العهد كزيح البتاني وزيح الخوارزمي (السندهند الصغير) وأزيح موسى بن شاكر والزيح المسمى (الزيح المأموني الممتحن) . ولعل خير من لخص لنا من الجغرافيين المعلومات الفلكية الاساسية في عهده هو أبو الحسن المسعودي في كتابه (التبيين والاشراف) حيث قال :^(٤٥) .

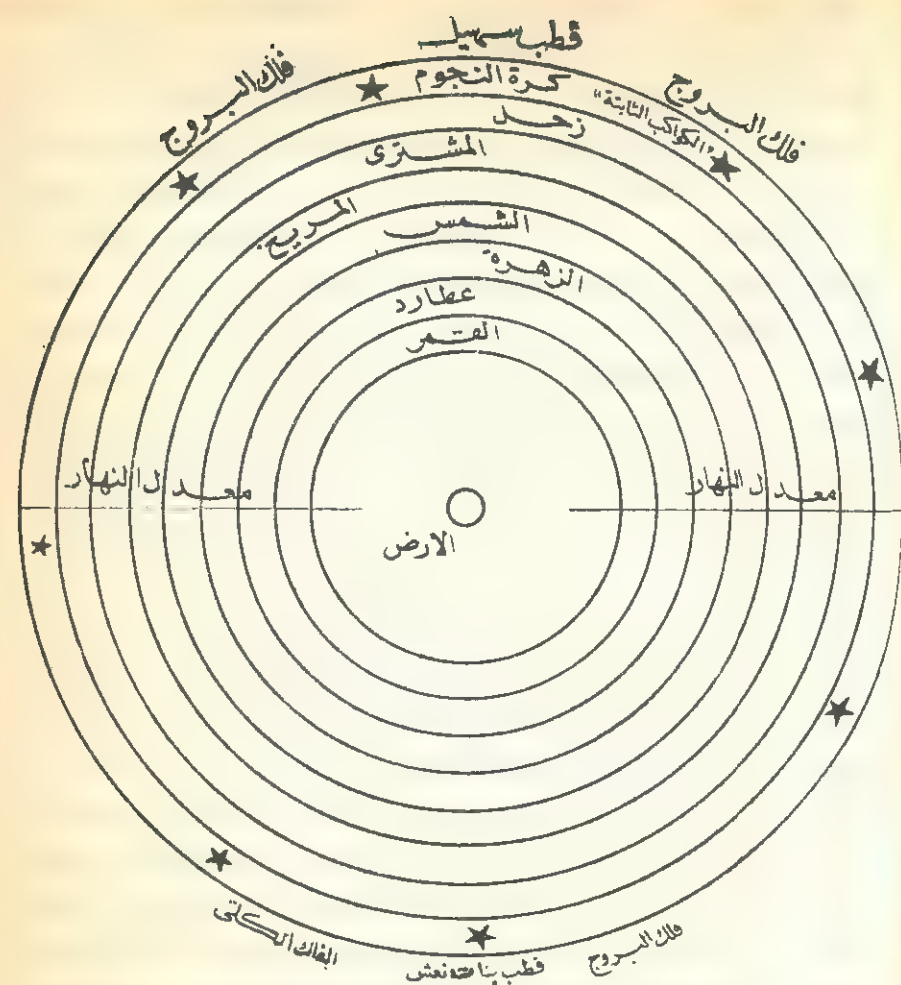
« فلنبداً بذكر الفلك(*) الذي نبهنا الله سبحانه عليه وأشار في نص الكتاب اليه لما فيه من عجائب حكمته ولطائف قدرته وخصائص التدبير وبدائع التركيب التي تدل بعجائب نظمها وغرائب تأليفها على وحدانية مبدعها وأزلية منشئها . قال الله عز وجل لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون أي في دائرة منها يكونون ، اذ اسم الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب ، والفلك السماء . قال الله عز وجل خلق السماوات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعملون . قال المسعودي : وقد تنازع الناس في الفلك ممن سلف وخلف ، فقال افلاطون وثامسيطيوس والرواقيون وعدة ممن تقدم عصر افلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة انه مع الطبائع الاربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة الا ان الغالب عليه النارية ، وليست ناريته محرقة انما هي مثل النار الغريزية في الابدان . وقال آخرون انه من النار والهواء والماء دون الارض . وذهب ارسطوطاليس وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين الى ان طبيعة خامسة خارجة عن الطبائع الاربع ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا

(٤٥) التبيين والاشراف - للمسعودي ، ص ٨ - ١٣ .

(*) المراد به «الفلك» المدار وهو الذي يقابله المصطلح الافرنجي ORBIT . ومن الجدير بالذكر أن الكتاب العرب كانوا يعنون به «المدارات» الدوائر المتوازية لدائرة معدل النهار .

يوسمة وانه جسم مدور كروي أجوف يدور على محورين وهما القطبان أحدهما رأس السرطان ومنتهى بنات نعش من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء في وسط الفلك وهو خط ما بين الشمال والجنوب وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق الى نقطة المغرب ، وهو منقسم بأربعة أرباع كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه وهو موضع الأرض منه أحد الربعين وهو أحد القطبين نقطة الشمال وبازائه نقطة الجنوب والربع الثالث نقطة المشرق وبازائها نقطة المغرب ، وهو يدور دورانياً طبيعياً دائماً . ويدورانه ودوران الكواكب التي فيه تتفعل الكيفيات وانبسطة الاركان الاربعة وهي النار والماء والهواء والأرض . فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو ، وركنان منها وهما الماء والأرض بالسفل ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحريك الجواهر العلوية والاجسام السماوية على حسب مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها . فيتحرك الركنان الاعليان بتحريك الكيفيات والركنان الأسفلان بتحريك الركنين الاعليين وتهب بذلك الرياح الاثنتا عشرة فتنشأ السحاب وينزل المطر ويتصل بذلك الآثار العلوية بالآثار السفلية الموجودة في الحيوان والنبات البري والبحري وفي الجواهر والمعادن حتى يكون التدبير في جميع هذه العوالم متسقاً مطرداً متصلاً ببعضه ببعض بالفعل كامناً بعضه في بعض بالقوة حتى تظهر آثار الصنعة وامارات الحكمة ودلائل الربوبية وترتبط المعلولات بعلمها وتشهد للصانع بصنعتة وبدائع حكمته . وجعل عز وجل الفلك الاعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير . فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر ، ويحيط بفلك القمر فلك عطارد ، وبفلك عطارد فلك الزهرة وبفلك الزهرة فلك الشمس وبفلك الشمس فلك المريخ وبفلك المريخ فلك المشتري وبفلك المشتري فلك زحل وبفلك زحل فلك الكواكب الثابتة(*) وبفلك الكواكب الثابتة فلك البروج(**) وبفلك البروج فلك الاستواء وهو المحيط بها والمحرك لها .

(*) ذكر اخوان الصفا ان عدد الكواكب الثابتة هي ألف واثنان وعشرون كوكبا وكلها في فلك واحد هو الفلك الثامن المحيط بفلك الكواكب السائرة (رسائل اخوان الصفا ، ص ٢٨) .
(**) لقد شرح اخوان الصفا البروج على النحو التالي : « اعلم يا اخي ان البروج هي اثني عشر ، قسمة وهمية في سطح فلك المحيط يفصلها اثني عشر خطا وهميا وهي تبني من نقطة وتنتهي الى نقطة أخرى في مقابلتها ، فيقسم سطح كل كرة باثني عشرة قسمة كل واحدة منها كأنها جزء البطيخة تسمى البرج ، والنقطتان تسميان قطبي الكرة . وان الشمس ترسم على سطح كرتها بحركتها في كل ثلاثمائة وخمس وستين يوما دائرة وهمية والدائرة تقسم الكرة بنصفين ، وكل برج يقسمين متساويين حصة كل برج من تلك الدائرة قطعة قوس قدرها ثلاثون جزءاً من ثلاثمائة وستين ، وبهذه الدائرة ودرجتها يقاس سائر حركات الكواكب في الزيجات ، (اخوان الصفا ، ص ٢٧) .



شكل ١٦ : شكل يمثل أفلاك الكواكب والنجوم

ومن ذوي المعرفة بعلم الافلاك والنجوم من يعد فلك الاستواء وفلك البروج الثابتة فلكاً واحداً لما يرى من تجاذبها واتفاق أقطارهما ومراكزهما ، والأرض في وسط الجميع مركز له كالنقطة في وسط الدائرة والفلك متجاف عنها من حيث ما أحاط بها بمثل ما كان وجهها الذي يكون عليها حيث ما كانت ، وهو أعلى الفلك على سمت رأسك

فذلك نصف قطر الفلك الا ما أخذ منه نصف قطر الارض . وهو يدور عليها من المشرق الى المغرب على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميتين متقابلتين في جنبي كرته ، أحدهما القطب الشمالي وهو على شمال مستقبل المشرق والثانية القطب الجنوبي وهو على يمين مستدبر المغرب ويسميان المحورين تشبيهاً بقطب الرحى . ولهذا الفلك نطاق يفصل كرته في متوسط ما بين قطبيه ويفصل محاذاته كرة الارض بنصفين وهذا النطاق يسمى فلك معدل النهار لاستواء الليل والنهار فيه ، ويسمى الفلك المستقيم لاستواء مطالعه ومغاريبه واستقامة مدارجه في أرباع الفلك وما بينها على نظام واحد . وكل جزء من اجزاء هذا النطاق وان اتسع فانه كيف ما انحدر في بسيطي الكرة الى المحورين قل عرضه ودق حتى تجتمع اجزاء الفلك كلها من فوق الارض وتحتها في نقطة المحور . ومن كان تحت هذا النطاق فانه ينظر المحورين يطوفان على افق الموضع والفلك يدور منتصباً فوق رأسه . وأكثر هذه الأفلاك مسيرها من المشرق الى المغرب موافقة في سيرها لسير الفلك الأعلى . ومنها ما يكون مسيره موافقاً لمسير الكواكب من المغرب الى المشرق . فاما كان من الفلك آخذاً من الشمال الى الجنوب سمي العرض ، وما كان آخذاً من المغرب الى المشرق سمي الطول . والارض من الفلك بمنزلة النقطة من الدائرة بعدها من كل نقطة من النقط الاربع التي ينقسم الفلك عليها بعداً واحداً ومن مركزها الى كل نقطة تسعون درجة . وقطر الدائرة مائة وثمانون درجة . وهي تنقسم في نفسها مثل هذه الاربع نقط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب الا انها غير ذات نسبة من الفلك ، كما ان الفلك لا نسبة له من الدائرة . والجرم الذي من نهاية حضيض فلك القمر الى نهاية العالم في العلو طبيعة خامسة ليست بحارة ولا باردة ولا رطبة ولا مركبة من شيء من هذه الطبائع الاربع ، وهذا الجسم هو الجسم الفلكي ونهايته مما يلينا اعني كصورة باطن كرة . والعناصر اربعة نار وهواء وماء وارض . فائنان من هذه العناصر حاران وهما النار والهواء وهما يتحركان بطبعهما صعداً الا ان اسبقهما الى العلو النار فهي طافية على الهواء . والنار يابسة والهواء رطب . واثنان باردان وهما الماء والارض ، والارض يابسة والماء رطب . فقد حصل بما ذكرنا ان الحرارة تفعل الحركة صعداً وان البرد يفعل الحركة سفلاً وان اليبس يفعل السبق الى الموضع الاخص بكل واحد منهما . وان الرطوبة تفعل الثقل في الحركة . فما كانت حركته صعداً سموه خفيفاً . وما كانت حركته سفلاً سموه ثقيلاً وانه لا فراغ في جرم العالم ، وان الاجسام اذا حيت احتاجت الى مواضع أوسع من المواضع التي كانت فيها ، فما تحدثه الحرارة فيها من تباعد نهاياتها عن مركزها وانما اذا بردت صارت بضد

ذلك لان البرد يفعل تقارب نهايات الاجسام من مركزها فتحتاج الى مواضع اصغر من مواضعها . وان الحرارة والبرودة تتبادل المواضع ، فاذا كان ظاهر الارض حاراً كان باطنها بارداً على ما تكون عليه السرايب وغيرها من أعماق الارض واغوارها في نهار الصيف من البرد . واذا كان ظاهرها بارداً كان باطنها حاراً على ما عليه السرايب وغيرها في ليالي الشتاء . وان الحرارة ترفع من كل جسم رطب لطيفه اولاً حتى تجف ارضيته فيتججر او تنفى جملته . وان الشمس اذا كان مسيرها في الميل الشمالي عن معدل النهار حي الهواء في ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبي . فيجب من ذلك ان ينقبض الهواء الجنوبي ويحتاج الى موضع أصغر ، ويتسع الهواء الشمالي ويحتاج الى موضع أوسع اذ لا فراغ في العالم . فبالواجب أن يكون أكثر رياح الصيف عند من هو في ناحية الشمال شمالية لان الهواء من عندهم يتحرك الى ناحية الجنوب ، اذ ليس الريح شيئاً غير حركة الهواء وتوجهه . وكذلك يجب ان تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك الهواء الى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبي . وما أبين للحس مسير الشمس في الشتاء في الجنوب وفي الصيف في الشمال لما نراه في الشتاء من طول ظلال المظلات وبعد جرم الشمس في سمت رؤوسنا من خط نصف النهار .

قال المسعودي : وفيما ذكرنا من قسمة الافلاك وتراكيبها وما يلينا من الكواكب النيرين(*) والخمسة تنازع بين الاسلاف والاختلاف . من ذلك ما ذكره ابطليموس القلوذي في كتاب المجسطي وفي كتابه في الهيئة انه لم يظهر له ان الزهرة وعطارد فوق الشمس او دونها . وحكى يحيى النحوي وهو المعروف بالحريص الاسكندراني في كتابه الذي دل فيه ان العالم محدث ونقيضه لكتاب برقلس في قدمه ورده على أفلاطون وارسطوطاليس وافلوطرخس وغيرهم من القائلين بقدمه ، ان افلاطون كان يزعم ان فلك القمر ادنى الافلاك الينا وفلك الشمس يليه ثم فلك عطارد ثم فلك الزهرة ثم كذلك ما رتبها الباقون . وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السالفة تنازع الفلاسفة وغيرهم من حكاء الامم في هيئة الافلاك وتراكيبها والنجوم وتأثيراتها في هذا العالم الارضي ، وما يمين العالم وما شماله وما خلفه وأمامه وتحت وفوقه ، وما ذكره ارسطوطاليس في المقالة الثانية من كتاب السماء والعالم عن شيعة فوثاغورس في ذلك وما ذهب اليه من أن للسماء يميناً وشمالاً واماماً وخلفاً وفوقاً وأسفل . فيمنع السماء الجهة المشرقية ويسرتها الغربية واعلاها القطب الجنوبي وهو فوق القطب الشمالي وهو أسفل وما اتصل بذلك .

(*) المقصود بها الشمس والقمر .

تلك هي عينة من المعلومات الفلكية ذات الطابع الجغرافي . وبطبيعة الحال فانها لا تمثل الابحاث الواسعة التي اختص بها الفلكيون في هذا الميدان . والحقيقة اننا يمكن ان نأخذ فكرة أوضح عن المواضيع التي كان يعالجها علماء الفلك العرب والمسلمون باستعراض الفهرست الذي ورد في مقدمة كتاب (الزيج الصابي) لمؤلفه أبي عبدالله محمد بن سنان جابر الحراني المعروف بالبتاني والذي ورد على النحو التالي : (٤٦)

- في تقسيم دائرة الفلك وضرب الاجزاء بعضها في بعض وتحذيرها وقسمتها بعضاً على بعض .

- في معرفة أقدار أوتار الدائرة واثبات أنصاف أوتار أضعاف القسي في الجداول وما يتبع ذلك من العمل بها .

- في مقدار ميل فلك البروج (*) عن فلك معدل النهار وتحجزة هذا الميل وجهاته ومراتبه في صعوده وهبوطه وهو ميل الشمس عن الفلك المستقيم .

- في معرفة اقدار ما يطلع من فلك معدل النهار مع قسي فلك البروج المفروضة تحت معدل النهار الذي يسمى خط الاستواء وبهذه الاقدار أيضاً تمر البروج وتحوز في فلك نصف النهار في كل موضع من الارض ويسمى لذلك مطالع البروج في الفلك المستقيم .

- في معرفة خواص كل خط من الخطوط الموازية لمعدل النهار المائل عنه الى الشمال وذكر مواضع الارض العامرة المعلومة الطول والعرض في كتاب صورة الارض .

- في معرفة سعة مشارق الشتاء والصيف ومغاربها من دوائر آفاق البلدان وهي القسي التي تكون بين فلك معدل النهار ومواقع فلك البروج في دائرة الافق ويسمى سمت المطالع والمغرب من دائرة الافق .

(٤٦) كتاب الزيج الصابي - للبتاني ، ص ١ - ٥ .

(*) المراد به « البروج » النجوم الثابتة ، ومن المعلوم ان الفلكيين العرب قد ميزوا بين « الكواكب » و « النجوم » . فالكواكب نوعان : السائرة وهي ذات الحركات السريعة سواء بالنسبة لبعضها البعض أم بالنسبة الى النجوم وعددها سبع ، والكواكب الثابتة وهي التي تحتل الفلك الثامن لان أوضاعها بالنسبة لبعضها البعض ثابت لا يتغير بمرور الايام . وقد اعتبروا الشمس والقمر ضمن الكواكب المتحركة واستثنوا الارض منها . أما النجوم التي تحتل الفلك التاسع فهي ثابتة لا تتحرك .

- في معرفة ارتفاع القطب الشمالي من قبل زيادة النهار الاطول اذا كان مفروضاً .

- في معرفة زيادة النهار الاطول من قبل ارتفاع القطب المفروض .

- في معرفة الارتفاع والظل احدهما من قبل الآخر اذا كان الظل بسيطاً ومعرفة ذلك اذا كان الظل قائماً .

- في معرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الافق في كل بلد وفي كل وقت من النهار في جميع اجزاء فلك البروج وهو ما تقطع القوس التي تحوز على سمت الرؤوس والشمس من دائرة الافق من حد المطلع والمغيب .

- في معرفة خط نصف النهار في كل بلد وهو سمت الجنوب وما يظهر معه من سمت مشرق الاعتدال ومعرفته بجهات شتى .

- في معرفة قدر ما يطلع من فلك معدل النهار مع اجزاء فلك البروج المفروضة من الافق في كل موضع من مواضع الارض ويسمى مطالع البروج في كل بلد وما يتبع ذلك من معرفة مطالع أي وجه شئت في هذه المطالع وفي مطالع الفلك المستقيم ومعرفة اجزاء فلك البروج من قبل هذه المطالع ومقدار قوس النهار والليل ومسافاتهما المعتدلة وازمان ساعات النهار والليل الزمانية وتحويل بعضها الى بعض .

- في معرفة عروض البلدان وهو ارتفاع القطب الشمالي بها عن الافق بالرصد .

- في معرفة ارتفاع الشمس في وقت انتصاف النهار (*) في كل يوم .

- في معرفة ما يمضي من النهار من ساعة وما يطلع من قبل قياس الشمس ومعرفة الارتفاع والظل القائم .

- في معرفة الارتفاع من قبل ما يمضي من ساعات النهار .

- في معرفة ابعاد الكواكب الثابتة او المتحيرة عن فلك معدل النهار اذا كانت مائلة عن نطاق البروج في العرض واجزاء فلك البروج التي تتوسط السماء معها من قبل مواضعها من فلك البروج في الطول والعرض .

(*) المراد بارتفاع الشمس في وقت انتصاف النهار أي ارتفاعها عن البلد أو الموضع وقت الزوال ، وهو يمثل أعظم ارتفاعها في اليوم المفروض والموضع أو البلد المفروض .

- في معرفة نصف قوس احد الكواكب وهو نصف مكثه فوق الارض وتحتها ايضا وأزمان ساعاته فوق الارض وتحتها .

- في معرفة الدرجة في فلك البروج التي يطلع معها احد الكواكب والدرجة التي معها يغيب .

- في معرفة ما يمضي من الليل من ساعة بقياس بعض الكواكب .

- في معرفة ارتفاع بعض الكواكب من قبل الساعات الماضية من الليل .

- في معرفة سمت احد الكواكب عن فلك معدل النهار وما يتوسط السماء معه من أجزاء البروج من قبل معرفة سمت الموضع الذي يطلع منه أو يغيب من دائرة الافق ، وبه يعلم أيضاً ميل الجزء من فلك البروج عن فلك معدل النهار .

- في معرفة الجزء الذي فيه الكوكب من أجزاء فلك البروج وعرض الكوكب من قبل بعده عن فلك معدل النهار والجزء الذي يتوسط السماء معه اذا كان معلوماً .

- في معرفة أبعاد ما بين الكواكب على ترتيب مواضعها في الفلك في الطول والعرض .

- في معرفة مقدار طول أزمان السنة الشمسية الموجودة بالرصد وحركة الشمس الوسطى في الايام والشهور والسنين من قبل ذلك .

- في معرفة اختلاف الايام بلياليها اذا قيس نهار يوم مع ليلته الى نهار يوم آخر مع ليلته . وكيف تحول وتنقل من بعضها الى بعض .

- في صفة أفلاك القمر وحركاته وما يظهر فيها من الاختلاف في أوقات الاجتماعات والمقابلات الشمسية وما يتركب مع ذلك من الاختلاف من قبل أبعاده عن الشمس وعلل الكسوفين وبعد النيرين عن الأرض وزيادة ضوء القمر ونقصانه ببعد عن الشمس .

- في صفة افلاك الكواكب المتحيرة وحالاتها .

- في معرفة تاريخ العرب والروم والفرس والقبط ومعرفة بعض ذلك من بعض .

- في معرفة موضع الشمس الذي ترى فيه من فلك البروج بتاريخ الروم والعرب ايها شئت .

- في معرفة ساعات التقويم في كل بلد وهي الساعات المعتدلة الوسطى التي

تكون من بعد انتصاف النهار بمدينة الرقة وبها تستخرج الحركات في كل حين فيعرف وسط الكوكب في ذلك الوقت من أوقات النهار والليل وتحويل هذه الساعات الى ساعات البلدان .

- في اقامة الطالع والبيوت الاثني عشر من قبل ساعات النهار والليل ومعرفة الساعات من قبل الطالع .

- في معرفة موضع القمر الحقيقي من فلك البروج في كل يوم وفي كل وقت .

- في معرفة موضع العقد الشمالي والجنوبي وهما الرأس والذنب اللذان يكون عليهما مجاز القمر في العرض .

- في معرفة عرض القمر وهو بعده عن نطاق البروج الى جهة الجنوب والشمال .

- في معرفة اختلاف المنظر الذي يعرض في القمر في الطول والعرض واقداره في نواحي الافق والسبب الذي يعرض عنه ذلك فيه بجهات شتى .

- في معرفة بعد القمر عن الارض من قبل اختلاف منظره في دائرة الارتفاع والتي فيها بين سمت الرؤوس والافق القاطعة لموضع القمر من فلك البروج .

- في معرفة رؤية الهلال في أوائل الشهور وواخرها وسمت موضعه الذي يرى فيه من السماء وارتفاعه عند ذلك عن الافق وصورته على ما فيه من الضوء واعتدال طرفيه او ميلها .

- في معرفة اجتماعات ومقابلات الشمس والقمر الوسطى والحقيقية بتاريخ الروم ايها شئت .

- في معرفة الكسوفات القمرية واقدارها واوقاتها في البلدان والناحية التي منها يتبدى الكسوف والناحية التي منها يكون الانجلاء من دائرة القمر وصورة ذلك وعمله بالحساب والجدول .

- في معرفة كسوف الشمس واقداره المختلفة في كل بلد واوقاته ومعرفة الناحية التي منها يتبدى وينجلي الكسوف من دائرة الشمس وصورة ذلك وعمله بالحساب والجدول .

- في معرفة مواضع الخمسة الكواكب المتحيرة ورجوعها .

- في معرفة عرض الكواكب الخمس المتحيرة وجهاتها .

- في معرفة ظهور الكواكب الخمسة المتحيرة واختفائها (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) .

- في معرفة الاشكال التسعة التي تكون للكواكب الثابتة وبعض المتحيرة عند الشمس .

- في ذكر ابعاد الكواكب عن الارض واقطارها وعظم اجرامها وسعة افلاكها .

- في معرفة حركة سائر الكواكب بالرصد ورسم مواضع ما يحتاج اليه منها في الجدول في الطول والعرض .

- فيما ذكر اصحاب الطلسمات ان للفلك حركة انتقال مقبلة ومدبرة وما يظهر فيه من الخلل .

- في معرفة اوقات تحاويل السنين الكائنة عند عودة الشمس الى الموضع الذي كانت فيه في الاصل .

- في تحقيق أقدار الاتصالات التي تكون بحسب عروض الكواكب اذا القت الشعاع على فلك البروج .

- في معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الفلك .

- في عمل الرخامة القائمة المسطوحة لمعرفة ساعات النهار الزمانية في كل بلد وتقويم نصيبها وسمت الجنوب وكيف يعرف سمت القبلة في الرخامة وهو سمت مكة المحروسة .

- في ختم الكتاب وصفة صنعة الآلة التي على هيئة الفلك وتسمى البيضة وصناعة الآلتين ألتين للرصد .

تلك هي ابرز القضايا الفلكية التي عالجها الجغرافيون والفلكيون المسلمون . وينبغي التأكيد بأن الثروة التي خلفها الفلكيون العرب والمسلمون كانت في بعض وجوهها اعظم قيمة من ثروتهم الجغرافية . كذلك ينبغي التأكيد بانهم وان بدأوا مقلدين للهنود واليونانيين في آرائهم وجداولهم الفلكية الا انهم انتهوا مبدعين يعتمدون على مراصدهم وملاحظاتهم الشخصية في تثبيت الجداول الفلكية . وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي : « لقد بدأ العرب يجمعون بين الاستيعاب النظري للعلم اليوناني

والتطبيق العملي لنظرياته في ابحاثهم المستقلة الامر الذي تجاوزت اهميته نطاق عصرهم بكثير » (٤٧) .

وقد خرجوا بالفعل في العصور اللاحقة على آراء بطليموس في نقاط عديدة وانتقدوها ، ولعل خير مثال على ذلك كتاب جابر بن الافلح الاشيلي المعنون (اصلاح المجسطي) .

وتتمثل أهم انجازاتهم النظرية في هذا العلم في الجداول الفلكية (الازياج) العديدة التي وضعوها والتي امتاز عدد منها بدقة عظيمة . وكانت للازياج أهمية مزدوجة . ففضلا عن انها تعطينا اطوال وعروض المواضع الجغرافية موزعة على الاقاليم السبعة ، فانها تحدد لنا تحركات الكواكب والنجوم في مختلف أوقات اليوم والسنة (*) . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري ، وزيج الخوارزمي ، وزيج البتاني ، والزيج المأموني الممتحن ، وزيج ابي معشر البلخي ، والزيج الحاكمي الكبير لابن يونس ، وزيج الزرقالي ، وزيج المراكشي ، والزيج الايلخاني للطوسي .

كذلك تعددت انجازاتهم النظرية في علم الفلك وشملت جوانب كثيرة . وقد لخصها أحد المراجع فيما يلي : (٤٨)

- استخرجوا بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار (خط الزوال) .

- اكتشفوا بعض أنواع الخلل في حركة القمر .

- حسبوا ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجدوه ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة .

(٤٧) كراتشكوفسكي ، ص ٢٢ .

(*) لقد عرف ابن خلدون في (مقدمته) « الزيج » على النحو التالي :

« . . ومن فروع علم الهيئة علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت فرض من قبل حسابان حركاتها ، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة . وهذه الصناعة قوانين في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول متقرة في معرفة الاوج والخفيض والميول واصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الازياج . . . » (ص ٥٨٥) .

(٤٨) راجع : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - لقنري حافظ طوقان ، القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) ص ٨٧ - ١٠٦ .

- دققوا في حساب طول السنة الشمسية وخطأوا في حسابهم بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط .

- دققوا في حساب اهليلجية فلك الشمس فقالوا ان بعد الشمس عن مركز الارض اذا كانت في بعدها الابعد يساوي ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الارض ، واذا كانت في بعدها الاقرب يساوي ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الارض واذا كانت في متوسط بعدها يساوي ١١٠٨ مرة مثل نصف قطر الارض .

- حققوا في مواقع كثير من النجوم ، ووجدوا ان مواقع بعضها تغير عما كانت عليه في زمن بطليموس ، وعين البتاني النجوم الثابتة لسنة ٢٩٩ هجرية . واطلقوا على العديد منها اسماء عربية .

هذا فضلا عن انهم جعلوا علم الفلك استقرائيا ، ولم يقفوا عند حد النظريات ، كما انهم طهروه من ادران التنجيم .

ولم يطور الفلكيون العرب والمسلمون الجوانب النظرية في علم الفلك فحسب بل طوروا الجوانب العملية أيضاً . وتتمثل تلك الجوانب في انشاء المراصد وفي تحسين آلات الرصد . فلقد شجع الخلفاء المسلمون منذ عهد المأمون انشاء المراصد ، فتناثرت في انحاء العالم الاسلامي مراصد ضخمة كانت تقوم بارصاد دقيقة . ولم يكن الخلفاء وحدهم الذين ينفقون على تلك المراصد بل كان يتولى الانفاق عليها في بعض الاحيان الاغنياء والعلماء انفسهم . ولعل من أشهر المراصد المرصد الذي انشأه المأمون في الشماسية والذي عمل فيه عدد من الفلكيين العظام من أمثال سند بن علي وخالد المروزي ويحيى بن أبي منصور . كذلك أنشأ المأمون مرصداً آخر في دمشق أقيم على جبل قاسيون . وقد أثمرت الارصاد التي أجريت في هذين المرصدين وضع (الزيج المأموني الممتحن) وهو من أدق الازياج التي أخرجها الفلكيون المسلمون . وفي الفترة نفسها ابتنى أولاد موسى بن شاكر لهم مرصداً في باب الطاق في بغداد ذاعت شهرته بما حققه العاملون فيه من أرصاد دقيقة . وأقام شرف الدولة أيضاً مرصداً آخر في بغداد عام ٩٨٨ م . بحديقة قصره كان يعمل فيه العالمان الفلكيان الكوهي وابو الوفا . وقد أنشأ الفاطميون مرصداً فوق جبل المقطم عرف باسم (المرصد الحاكمي) ، وقد أجرى ابن يونس الكثير من أرصاده في هذا المرصد . ولعل من أشهر المراصد هما المرصدان اللذان انشأ في شرقي آسيا برعاية امراء المغول ، وهما مرصد مراغة ومرصد سمرقند . فأما مرصد مراغة فقد كان تحت اشراف فلكي شهير هو نصير الدين الطوسي الذي جمع

في مرصده كبار علماء الفلك في عهده من العراق والشام وتفليس ، كما زود المرصد بأفضل الآلات والمعدات الفلكية ، فضلاً عن مكتبة غنية يربو عدد كتبها على ٤٠٠ ألف كتاب . وأما مرصد سمرقند فقد ابتناه أولوغ بك وكان من الضخامة والاعداد بحيث اعتبر من عجائب الدنيا السبع ، وقد تم فيه اعداد (الزيج السلطاني الجديد) الذي عرف باسم (زيج اولوغ بيك) .

ولقد رافق انشاء المراصد تحسين آلات الرصد المعروفة والتي ورثت عن اليونانيين والهنود ، كما تم اختراع آلات جديدة . فمن الآلات التي أدخل عليها الفلكيون المسلمون التحسينات (الحلقة الاعتدالية) و (اللبنة) و (الاصطرلاب) و (الثلاثية) و (ذات الشعبتين) و (السداسية) وغيرها . ومن الآلات التي اضافها الفلكيون العرب والمسلمون (ذات السمات والارتفاع) و (الحلقة الاعتدالية) و (ذات الاوتار) و (المشبهة بالناطق) و (ذات الجيب) وغيرها^(٤٩) . وربما كان أهم انجازاتهم في صناعة الآلات الفلكية هي التحسينات التي ادخلوها على الاصطرلاب ، وهي أهم آلات الرصد بحيث تنوعت أغراضه ودقت أرصاده^(٥٠) .

وهكذا يتضح بان انجازات العلماء العرب والمسلمين في علم الفلك واسعة ومتنوعة . لذلك تركوا أثراً بعيداً في تفكير الاوروبيين في العصور الوسيطة ، ونال البعض منهم شهرة لم ينلها العلماء المسلمون في الحقول العلمية الأخرى .

(٤٩) طوقان ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٥٠) راجع : الاصطرلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعتة - للدكتور ابراهيم شوكت - مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٧٠ .

ملحق

أعلام الجغرافية العربية

سنقدم في هذا الملحق فكرة مجملة عن أعلام الجغرافية العربية . وبطبيعة الحال فإن الملحق المذكور لن يتضمن اسماء كل من كتب في الجغرافية العربية . فهناك العشرات من الاسماء الثانوية التي لم يكن لها دور بارز في تطوير الفكر الجغرافي العربي ولم تترك أثراً ذا قيمة تذكر . كذلك أهمل الملحق التحدث عن الاسماء المبكرة التي ظهرت في أفق الجغرافية العربية قبل اتصالها بالفكر الاجنبي والتي اعتبر أديها جغرافياً من باب التجاوز من أمثال الكلبي والأصمعي والجاحظ . وأهمل الملحق أيضاً ذكر طلائع الرحالين العرب الذين أوفدوا بمهمات رسمية الى بعض البلدان الآسيوية والاوروبية ودون البعض منهم مشاهداته عن تلك البلدان فانتفع بها الجغرافيون اللاحقون ، من أمثال عرام بن الأصبغ السلمي وأبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي وابن وهب القرشي وأسامة بن منقذ وابن فضلان . كما أهمل الملحق أيضاً الرحالة الثانويين من أمثال العبدري والسبتي والتجاني والنشرسي والمراكشي والعباشي . وأغفل الملحق أيضاً ترجمة حياة جغرافيين ورحالة مسلمين مرموقين من أمثال بزرج بن شهریار صاحب كتاب (عجائب الهند) وناصر بن خسرو صاحب كتاب (سفرنامه) وحمدالله المستوفي القزويني صاحب كتاب (نزهة القلوب) وحافظ أبرو صاحب كتاب (زبدة التواريخ) وعبد الرزاق صاحب كتاب (مطلع السعدين ومجمع البحرين) وحاجي خليفة صاحب كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ، بالرغم من أن مؤلفاتهم قد أضافت الى الجغرافية الاسلامية اضافات طيبة ، ذلك لأنها كتبت باللغة الفارسية أو التركية فهذا الكتاب يبحث في الجغرافية العربية فقط ، أي التي كتبت باللغة العربية ، وإن لم يكن جميع كتابها عربياً . أما مؤلفو الموسوعات من أمثال التويري والعمرى والقلقشندي فهم ليسوا جغرافيين أصلاً . وهذا ما حدا بنا الى الاختصار على ذكر الجغرافيين التالية اسمائهم .

الخوارزمي

هو أبو عبد الله (وقيل ابو جعفر) محمد بن موسى الخوارزمي أصله من خوارزم ، وقد عاش في النصف الاول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وعمل أميناً لخزانة كتب بيت الحكمة . ولا يعرف عن حياته ومولده سوى القليل ، إلا ان البحاث يتفقون على كونه قد عمل ضمن مجموعة فلكني المأمون ، وأنه ربما شارك في رسم (الصورة المأمونية) وفي عملية قياس درجة من محيط الأرض . وقد اشتهر في ميدان الجغرافيا بكتابه المعنون (صورة الأرض) الذي يعتقد البعض انه نسخة مختصرة لكتاب (جغرافيا) لبطليموس ، بينما يعتقد البعض الآخر أنه كتاب أصيل وقد ألفه على غرار كتاب بطليموس . ومهما يكن الأمر فقد حظي الخوارزمي بتقدير فائق من لدن المستشرقين الاوروبيين ، واعتبره البعض واضع أسس علم الجغرافيا العربية . وقال المستشرق نللينو NALLINO عن كتابه المذكور أنه ما من أمة أوروبية كان في مقدورها أن تنتج مثله في أوج نشاطها العلمي في العصور الوسطى .

وللخوارزمي نشاط علمي في ميادين أخرى وأخصها الرياضيات التي اشتهر فيها بكتابه المعنون (حساب الجبر والمقابلة) . وقد أصاب في هذا الميدان شهرة أعظم حتى لقد أطلق العلامة سارتون SARTON في كتابه (مقدمة لتاريخ العلم) اسم « عصر الخوارزمي » على النصف الاول من القرن التاسع الميلادي ، واعتبره أكبر رياضي عصره وواحداً من أكبر رياضيي جميع العصور على الإطلاق اذا ما أخذ بنظر الاعتبار اختلاف الظروف .

ومن المعتقد انه توفي فيما بين عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م و ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م ، وقيل ان عام وفاته كان ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م .

ابن خردادذبة

هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خردادذبة ، عاش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وهو ينتمي الى أسرة فارسية ، وقد درس الأدب والموسيقى ، ثم عمل مديراً للبريد في إقليم الجبال ، ثم في بغداد وسامراء . وقد استفاد من مركزه الاداري في جمع المعلومات لكتابه المشهور (المسالك والممالك) . ويعتبر هذا الكتاب من المؤلفات المبكرة جداً للجغرافية العربية الوصفية ، وقد اقتبس منه الجغرافيون اللاحقون على نطاق واسع . وقد عني الكتاب عناية خاصة بوصف

طرق المواصلات بين الأقطار والمدن الاسلامية ، واشتمل على معلومات عن المدن وعن الانتاج الزراعي والخراج في الممالك الاسلامية ، كذلك اشتمل على بعض المعلومات الفلكية السطحية ، وشيء من الغرائب والطرف عن البلدان القصية كالصين وتركستان والهند . ولعل ابن خردادبة أول جغرافي مسلم استخدم مصطلح (المسالك والممالك) الذي شاع استعماله فيما بعد بين مؤلفي الجغرافية الوصفية . وقد توفي في حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

اليقوي

هو أبو العباس احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي والمكنى بالعباسي . وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وبالرغم من انه ولد في بغداد الا انه أمضى معظم حياته في مصر والمغرب في أيام حكم الطولونيين . وقد اشتهر برحلاته الواسعة في ارمينيا وخراسان والهند وفلسطين وتركستان ، فضلاً عن المغرب ومصر والعراق . ولذلك فانه يعتبر طليعة الكتاب البلدانين الذين اعتمدوا على خبرتهم ومشاهداتهم الشخصية في تسجيل المعلومات عن البلدان ، وقد حظي مؤلفه المعنون (كتاب البلدان) بشهرة واسعة في العالم الغربي حتى أن البعض وصف كاتبه بانه (ابو الجغرافية العربية) . ويتميز كتابه بتفاصيل ممتازة عن المدن الرئيسية في العراق ولا سيما بغداد وسامراء والكوفة والبصرة ، كما يشتمل الكتاب على تفصيلات مسهية عن طرق المواصلات في بلاد فارس ، ومعلومات تاريخية وطبوغرافية غزيرة عن المدن والمقاطعات والبلدان التي وصفها . وقد توفي في عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م .

ابن الفقيه

هو أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق بن الفقيه الملقب بالهمداني . ولد في مدينة همدان ، وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، واشتهر في أيام المعتصم العباسي بكونه جغرافياً مرموقاً . وأما كتابه المعنون (مختصر كتاب البلدان) فلم يعثر الا على نسخة مختصرة منه قام باعدادها علي بن جعفر الشيرازي عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م . والكتاب يمثل خطوة الى الوراء في الجغرافية العلمية العربية ، فقد حفل بالخرافات والاساطير والمعلومات البعيدة عن المنهج الجغرافي العلمي . ولذلك فانه لا يحتل موضعاً مهماً في الأدب الجغرافي العربي ، وان لم يخل من

معلومات مفيدة عن بعض أقطار العالم الاسلامي . ويعتقد بعض المستشرقين ان الكتاب ذو أهمية خاصة ، اذ انه يقدم لنا لوحة معبرة للنزعات والاتجاهات الادبية للمجتمع العربي المثقف في نهاية القرن الثالث الهجري . ولعل أهم أجزاء الكتاب هي التي تتناول بالوصف الارض والبحار والانهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر والمغرب وبلاد البربر والشام وفلسطين والعراق وبلاد الروم . وقد أفاض المؤلف أيضاً في وصف البصرة والكوفة . وقد توفي في حوالى عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م .

ابن رسته

هو أبو علي أحمد بن محمد بن اسحق المعروف بابن رسته ، وهو فارسي الأصل ، وقد عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر الميلادي) وأمضى شطراً كبيراً من حياته في مدينة أصفهان . وقد اشتهر بموسوعته المعنونة (الاعلاق النفيسة) والتي يبدو انه كتبها في حدود ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، ولم يصل الى أيدينا سوى الجزء السابع منها وهو الجزء المتعلق بالجغرافيا . وبالرغم مما في هذا الجزء من خلط في معلوماته الفلكية واساطير في معلوماته الكوزموغرافية الا أنه ظل يعتبر مرجعاً هاماً للكثيرين من الجغرافيين الذين أتوا بعده ، ولا سيما الجغرافيين المتأخرين منهم ، وقد أكثروا من الاقتباس منه وخاصة في معلوماته المتعلقة بالامبراطورية البيزنطية والهند الشرقية وجهات تركستان وأواسط آسيا وبلاد البلغار . وقد تصدرت الكتاب مقدمة وافية جداً في الجغرافيا الرياضية والفلكية ، كما الحق بالكتاب قسم مخصص لعجائب العالم من حيوان ونبات وآثار ومبان . كذلك اشتمل الكتاب على وصف للبحار والانهار المشهورة والاقاليم السبعة بمدينها الرئيسية ، فضلاً عن وصف مفصل لمدين ايران والعراق والحجاز ومصر . وقد توفي في حوالى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م .

سهراب

يحوط الغموض بهذا الكاتب الذي دعي بـ (أفقر الورى سهراب) والذي سماه البعض بـ (ابن سرايون) . ويبدو انه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري (التاسع الميلادي أو أوائل القرن العاشر) . ويعتقد بعض الباحثين أنه مصري قبطي وأنه قد ألف كتابه المعنون (عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة) في حدود عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، ومنهم من يعتقد انه ربما كتبه في حدود عام

٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م. وقد اهتم الكتاب بالجانب العملي من الجغرافيا ، أي ما يتعلق برسم خارطة للأرض ، وضّم بين دفتيه معلومات عملية بهذا الصدد وفقاً للأقاليم السبعة كما وردت لدى بطليموس والخوارزمي . كذلك اشتمل الكتاب على معلومات واسعة عن المدن والجبال والأنهار والبحار والبحيرات المشهورة حسب مواقعها من الأقاليم السبعة ، واهتم اهتماماً خاصاً بأنهار العراق وشبكة قنوات الري فيه مما يعتبر سجلاً ممتازاً لنظام الري العراقي في ذلك العصر .

قدامة بن جعفر

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر ، وهو من اسرة آرامية كانت مقربة للخلفاء العباسيين . عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وتقلد مناصب هامة في الدولة حيث عمل محاسباً في ديوان الخراج بمدينة بغداد ، كما شغل أيضاً منصب صاحب البريد . وقد هيات له وظائفه الادارية ان يجمع معلومات وفيرة عن مدن الأقطار الاسلامية وطرق مواصلاتها ونتاجها الزراعي وخراجها مما يسر له تأليف كتابه المعروف (كتاب الخراج وصناعة الكتابة) . ولم يصل إلينا من هذا الكتاب سوى أربعة أقسام (من مجموع ثمانية أقسام) وهي تمثل الجزء الثاني منه ، وقد نشر الجزء المتعلق بالخراج . ويشتمل الكتاب على معلومات متنوعة ذات جانب رياضي وفلكي ، مع اهتمام بوصف الجبال والأنهار المشهورة ضمن الأقاليم السبعة . ولكن الاهتمام الرئيسي للكتاب انصب على وصف طرق البريد ضمن العالم الاسلامي مع ايراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضي وجباية الخراج في الممالك الاسلامية .

ويختلف الباحث في تاريخ وفاة قدامة الا ان من المعتقد انها تقع فيما بين ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م. و ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م .

الجيّهاني

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني ، وينسب الى بلدة جيهان في خراسان ، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وشغل الوزارة في بلاط الساسانيين في عهد الامير اسماعيل وابنه أحمد . وبالرغم من تردد اسم الجيهاني في مؤلفات الجغرافيين المسلمين والاقتباس منه على نطاق واسع فاننا لم نظفر بمؤلفه حتى الآن . ويذكر المؤلفون القدامى ان كتاب الجيهاني كان بعنوان (المسالك في معرفة الممالك) أو (المسالك والممالك) ، وقد تعرض فيه لوصف الهند

واهتم اهتماماً خاصاً بأقليم السند ، كما أورد أيضاً معلومات واسعة عن جهات أواسط آسيا . وقد أشار المسعودي الى الجيهاني بقوله : « انه ألف كتاباً في صفة العالم واخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الاخبار العجيبة والقصص الطريفة » . غير أن بعض الكتاب القدامى ، ولا سيما المقدسي ، اتهمه بأنه اقتبس كتابه عن ابن خرداذبة . ومن النشاطات الهامة للجيهاني أيضاً الخرائط العديدة التي قام برسمها للأقاليم الاسلامية ، ولا سيما خارطته للأرض بمجموعها .

البتاني

هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي المعروف بالبتاني ، ويسمى أيضاً بالرقّي نسبة الى مدينة الرقة . وقد ولد في عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م. في حران أو ربما في الرقة ، وأمضى معظم حياته فيها . واكب على دراسة علم الفلك حتى برز فيه ، وكان يقوم بارصاده الخاصة بالأجرام السماوية بمركز الرقة . وقد اختص بدراسة مؤلفات بطليموس وشرحها ، ثم عمد فيما بعد الى تصحيح أخطائها ، لذلك لقب بطليموس العرب .

وقد اشتهر البتاني بكتابه المعنون (الزيج الصابي) وهو الوحيد من مؤلفاته الذي وصل إلينا وقد ضمنه نتائج أرصاد الكواكب الثابتة ، وحدد فيه ميل دائرة الكسوف (فلك البروج) بدقة كبيرة ، وطول السنة ، والفصول ، ومدار الشمس . كذلك حقق كثيراً من مواقع النجوم ، وبحث في حركات القمر والكواكب السيارة ، وصحح بعض المعلومات عنها ، كما صحح العديد من الأخطاء البطليموسية . ومن المعلومات الهامة في هذا الكتاب ما يتعلق بوصف البحار ، فقد اعتبر البتاني المحيط الهندي بحراً مفتوحاً خلافاً لرأي بطليموس . وكان للبتاني أثر كبير في تقدم موضوع حساب المثلثات الكروي في أوروبا في العصور الوسطى . وقد توفي في مدينة سامراء في عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م .

البلخي

هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي . ولد في إحدى قرى بلخ في خراسان في حوالي عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م. وأمضى الصدر الاول من حياته في التعليم ، ثم رحل الى بغداد وتلمذ على يد الفيلسوف الكندي . ثم عاد الى مسقط رأسه ولازمها حتى وفاته ، حيث عمل في خدمة أميرها الساماني . وقد انصرف البلخي الى دراسه الفلك

والفلسفة ، وفي آخر حياته وضع كتابه المشهور المسمى (صور الاقاليم) والذي ربما كتبه في حدود ٩٢١ م . وهناك الكثير من الغموض حول هذا الكتاب ، فهو يرد تارة بالعنوان المذكور ، وأخرى بعنوان (أشكال البلاد) ، وثالثة باسم (تقويم البلدان) . وترجع أهميته الى كونه رائداً لكتب البلدان التي اعتمدت الخارطة أساساً للدراسة الاقليمية ، فضلاً عن استقلاله عن النفوذ البطليموسي في الكتابة الجغرافية . وقد وصف الكتاب المذكور بأنه عبارة عن شرح كارتوغرافي أكثر من كونه وصفاً جغرافياً للعالم الاسلامي . وتعتبر خرائطه طليعة للخرائط الكلاسيكية العربية التي أطلق عليها ميلر MULLER اسم (أطلس الاسلام) ، ولعل من أقبعده من الكتاب كالاصلطخري وابن حوقل كان مقلداً له . وقد توفي في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م .

الاصطخري

هو أبو القاسم (وقيل أبو اسحاق) ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري . وقد عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في مدينة اصطخر (برسبوليس) بایران . ولا يعرف من تفصيلات حياته سوى الشيء القليل ، غير أن من المعتقد انه قد ساهى في أقطار العالم الاسلامي على نطاق واسع ، فزار أكثر بلدان آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي . وقد أفادته رحلاته في تأليف كتابه المعنون (المسالك والممالك) ، والذي يرد في بعض المخطوطات بعنوان (صور الاقاليم) . ويبدو أنه انتفع أيضاً من معلومات البلخي بدرجة غير قليلة . ويكتسب كتابه هذا أهمية بالغة ، اذ يعتبر رائداً للكتب الاقليمية التي ألقت بعده في منهجه ومعلوماته وتبويبه . وقد اعتبر الخارطة أساساً للبحث ، فقسّم بلاد الاسلام الى عشرين اقليماً ورسم خارطة لكل من هذه الأقاليم جعلها في مطلع الحديث عنه . وقد أورد عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، كما روى تفاصيل عن الحاصلات الزراعية والتجارة والصناعة والاجناس ، هذا فضلاً عن بعض المعلومات التاريخية . ولم يستطع الباحثون تحديد تاريخ وفاة الاصطخري .

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي المشهور بابن حوقل . ولد في بغداد وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وقد اشتهر برحلاته الواسعة في العالم الاسلامي حيث دامت رحلاته ما يقرب من ثلاثين عاماً .

وقد طاف في انحاء مصر والشام والعراق والبحرين والاحساء وايران وافريجيان وارمينيا ، كما تجول في بعض جهات آسيا الوسطى والجنوبية الشرقية حيث بلغ اقليم السند ، كذلك دخل بلاد البلغار ووصل الى أواسط نهر الفولغا ، كما تجول في ربوع بلدان المغرب العربي والاندلس وجهات غربي افريقيا حتى مملكة غانة ، كذلك زار نابولي وصقلية . ولذلك فقد حفل كتابه بالمعلومات القيمة عن بلدان الاسلام التي قصر كتاباته عنها . وكان هدفه الاول من هذه الجولات الواسعة الاشتغال بالتجارة ، الا انه استفاد في الوقت نفسه فائدة علمية عظيمة انعكست في كتابه (صورة الارض) . وقد ذكر بأنه التقى بالجغرافي الاصطخري في جرجان فطلب منه أن يعيد النظر في كتابه وخرائطه فقبل بذلك . الا أنه غير رأيه فيما بعد كما يبدو وتولى تأليف كتابه المعروف (صورة الارض) الذي يعتقد انه كتبه في حدود ٩٦٧ م . أو ٩٧٧ م . لذلك يهتم به بعض الباحثين انه استمد الكثير من معلوماته وخرائطه من كتاب الاصطخري ، لا سيما وان هناك تشابهاً واضحاً بين بعض اجزاء ونصوص الكتابين كالأجزاء المتعلقة بجزيرة العرب والخليج العربي وخوزستان وفارس وكرمان وحوض نهر السند والديلم وبحر الخزر . ومهما يكن الأمر فان كتابه يعتبر من أبرز وأهم الكتب الجغرافية العربية المبكرة التي تمثل ركناً هاماً من أركان الجغرافية العربية . وقد تميّز الكتاب بمنهجه القويم الذي يعتبر الخارطة جزءاً لا يتجزأ من النص . ولم يستطع الباحثون تحديد تاريخ وفاته .

المسعودي

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله الشهير بالمسعودي حيث ينتسب الى الصحابي ابن مسعود . ولد في بغداد ونشأ فيها وعاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ويعتبر المسعودي طليعة الرحالة العلميين الذين استفادوا من تجاربهم ومشاهداتهم في إغناء الجغرافية العربية . فلقد تجول في جهات واسعة من العالم القديم ، ودامت جولاته ما يقرب من ربع قرن . وقد بدأ رحلاته في عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م . فزار بلاد فارس وكرمان ، ثم رحل الى الهند فزار السند والبنجاب وكنكان ومليبار وسنيمور ، ووصل الى سرنديب ، ثم رافق جماعة من التجار الى بحر الصين وربما زار الهند الصينية أيضاً . ثم عاد بطريق المحيط الهندي الى افريقيا فزار ساحلها الشرقي وزنجبار ومدغشقر وتجول في السودان الشرقي ثم عاد الى بغداد عن طريق عمان . وفي عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م . عاود اسفاره فتتقل بين الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين وزار آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وأقام في

انطاكية ردها من الزمن . ثم زار أرمينية وممالك الروم وعاد الى مصر وأقام فيها حتى وافته المنية . وكان المسعودي خلال رحلاته هذه يقطاً متنبهاً ، فسجل الكثير مما شاهد وسمع . ولذلك جاءت كتبه العديدة دائرة معارف عظمى ، لا سيما وأنه كان كثير القراءة والاطلاع . ومن المؤسف أنه لم يكن يعنى عناية كبيرة بغربلة معلوماته ، ولذلك اشتملت مؤلفاته على الكثير من المعلومات السطحية ذات الطابع الخرافي ، كما ضمت كثيراً من الحشو والحكايات الساذجة . ولهذا اختلف الباحثون الغربيون في تقديره ، فمنهم من اعتبره أكثر الجغرافيين أصالة في القرن العاشر الميلادي ، بل ولقبه بيهودتس العرب ، ومنهم من اعتبره يمثل بمعلوماته وأسلوبه نموذجاً للمراسلين الصحفيين المعاصرين . أما كراتشكوفسكي فقد قال عنه أنه يقف رغم كل شيء على قمة المعارف الجغرافية لعصره . والواقع أن مؤلفات المسعودي لا تتميز بمعلوماتها الوافية عن بلدان عديدة من أقطار العالم القديم وعن شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم واقتصادهم فحسب ، بل تضم بين دفتيها أيضاً معلومات جمة نقلت عن المراجع السابقة العربية والاجنبية . هذا فضلاً عن أن المسعودي تميز بموضوعية عالية في الحكم على الأمور التي تتعلق بالشعوب والاديان من دون أن يكون لمواقفه الدينية أو القومية ردود فعل متحيزة .

كذلك تميز المسعودي بغزارة عظيمة في التأليف ؛ ومن أشهر مؤلفاته (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي يربو على عشرين جزءاً ضخماً والذي فرغ من تأليفه في عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م . وقد ضم معلومات متنوعة بدءاً بتاريخ الأرض والخلق حتى العصور الاسلامية المعاصرة له . واشتمل هذا المؤلف في جزئه الاول على معلومات جغرافية قيمة ولا سيما عن البحار والمحيطات وما تحويه من اسماك وحيوانات وجزر . ويعتبر كتابه الثاني (التنبيه والاشراف) الذي ألفه في حوالى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، وجيزاً وتهذيباً لعمله العلمي ، وقد تناول فيه دراسة الافلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والرياح ومهباتها والأرض وشكلها وحجمها وعامرها وغامرها . أما كتابه الثالث المعنون بـ (أخبار الزمان) فلم يصل إلينا ويقال أنه يشتمل على ثلاثين جزءاً . وقد توفي المسعودي في مصر عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م .

المقدسي

هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبناء وبالشامي وبالمقدسي أو المقدسي . ولد في بيت المقدس في حوالى عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م . ويعتبر

المقدسي أحد الرواد العظام في الجغرافية العربية ، وقد كتبها على النهج الصحيح في الاعتماد على الخبرة والملاحظة الشخصية والسماع ، وفي الاهتمام بالخرائطة ضمن المتن ، وفي الاعتماد على المراجع الموثوقة . وقد أمضى سنوات طويلة من عمره يتجول في انحاء العالم الاسلامي ويجمع المعلومات لكتابه عن طريق المشاهدة والاستقصاء ، حيث زار العراق ومصر وجزيرة العرب وبلاد فارس وأقطار المغرب العربي ، إلا أنه لم يدخل الأندلس ولا الهند . ولذلك جاء كتابه المعروف (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) ، والذي كتبه في سن الأربعين في حدود عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، مثلاً يحتذى في الكتابة الجغرافية المتقنة . ففضلاً عن منهجه العلمي الصحيح ، فقد كشف فيه المقدسي عن ملكة قوية في دراسة نصوص الجغرافيين السابقين ونقدها وتحليلها والافادة منها . ولذلك أجمع المستشرقون على الإعجاب بهذا الكتاب ، فاعتبر اشبرنجر SPRENGER مؤلفه أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة ، كما اعتبره كرامرز KRAMERS أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، بينما اعتبر آدم متر Adam Metz كتابه ذروة ما وصلته كتب الجغرافية العربية من تقدم في وصف البلدان . وقد اقتصرت دراسات الكتاب على أقطار العالم الاسلامي فقط ، وشملت جميع الحقول الجغرافية من طبيعي وبشري واقتصادي ، غير أنها تضمنت تركيزاً واضحاً على الجوانب الاقتصادية والبشرية . ومن المعتقد أن المقدسي قد توفي في عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، وفي مراجع أخرى في حوالى ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م .

الهمداني

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني الملقب بابن الخائك . ولد بصنعاء وعاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي والنصف الاول من القرن العاشر الميلادي) . وقد اشتهر بكتابه المعنون (صفة جزيرة العرب) الذي يعتبره اشبرنجر ، الى جانب كتاب المقدسي ، أعظم ما انتجه العرب في الجغرافيا . ويشتمل كتابه هذا على وصف للمظاهر الطبيعية لجزيرة العرب ولاجناسها وقبائلها وحاصلاتها الحيوانية والمعدنية وطرقها ومواطن الاستقرار فيها . وقد اعتمد الهمداني في وصفه لليمن على الملاحظة الشخصية مع الافادة من المعلومات السابقة ، غير أنه استمد معلوماته في وصف بقية اجزاء الجزيرة العربية من الرحالة والحجاج ومن مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين في جزيرة العرب . وهو يكشف عن معرفة واسعة بالأنار والنقوش القديمة في الجزيرة .

وقد توفي في سجن صنعاء عام ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ م .

المهلي

هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون الذي ينتهي نسبه الى المهلب بن ابي صفرة . عاش في مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . اشتهر بكتابه المعنون (المسالك والممالك) ، والذي يعرف أحياناً بـ (الكتاب العزيز) ، وقد ألفه للخليفة الفاطمي العزيز عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م . الذي تولى الوزارة في عهده . وكان المهلي قد قام برحلة طويلة في بلاد السودان مما هباً له الكلام بتوسع على طرق المواصلات في افريقيا وفي السودان خاصة . وقد امتاز الكتاب بكونه أول كتاب يعنى بوصف اقليم السودان وصفاً دقيقاً في شتى النواحي الطبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية مما جعله من المؤلفات الرائدة في بابيه ، وكان مصدراً أساسياً لياقوت الحموي فيما كتبه عن السودان . وقد تحدث عن جزيرة العرب والعراق أيضاً . ولم يصل الكتاب الى أيدينا ، غير انه اشتهر بما نقل عنه ياقوت الحموي وأبو الفدا وحافظ أبرو من معلومات وافية .

اخوان الصفا

وهم جماعة من المفكرين المختصين في الدين والفلسفة كانوا يجتمعون في البصرة (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي) ، وقد اتخذوا لأنفسهم اسم (اخوان الصفا وخلان الوفاء) اشارة الى احدى حكايات كلية ودمنة ، وقاموا بوضع احدى وخمسين رسالة في مختلف حقول المعرفة من دون الاشارة الى اسماء المؤلفين ، وكان الغرض منها تقديم أساس عقلي للعقيدة الدينية . وقد تضمنت تلك الرسائل اشارات متعددة الى المفاهيم والآراء الجغرافية السائدة، وتكشف آراؤهم الجغرافية عن تأثير شديد بالمفاهيم اليونانية والرومانية، ولا سيما بآراء أرسطو وبطليموس . وقد عنوا عناية خاصة بالجغرافية الطبيعية وقدموا شروحات على جانب كبير من الاهمية لبعض الظواهر الطبيعية والمتولوجية كالخسوف والكسوف والرياح والأمطار والبحار والزلازل والبراكين والحركات الجيولوجية . غير ان تلك الشروح والآراء لا تنطوي على أية أصالة ، بل هي مجرد نقل مباشر للفكر اليوناني الروماني .

البكري

هو أبو عبيد الله بن ابي مصعب عبد العزيز بن محمد البكري الاندلسي . ولد في

مدينة قرطبة عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م . وترعرع فيها ، وحينما شب أصبح موظفاً كبيراً ودبلوماسياً . وقد اشتهر بكتابه (المسالك والممالك) و (معجم ما استعجم) . وبالرغم من أنه لم يقم بجولات في العالم الاسلامي ، الا أن كتابه الجغرافي الاول قد أكسبه مركزاً مرموقاً في الفكر الجغرافي العربي ، حتى لقد اعتبره دوزي Dozy أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة . ويقع الكتاب في عدة أجزاء لم يصل اليها منها سوى قطع تتناول أخبار شمال افريقيا والاندلس ووصف لمصر واشارات عن العراق وما وراء النهر . ويتصف أسلوبه عموماً بالجفاف ودقة التفاصيل ، ولا سيما ما يتعلق بوصف الطرق والمراحل . وقد توفي في عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

البيروني

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ولد في احدى ضواحي خوارزم (خيوه الحالية) عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، وقد اشتهر في أوروبا الوسيطة باسم البيورون ALIBORON . ويعتقد بعض الباحثين ان البيروني فارسي الأصل ، الا أن الراجح لدى الدارسين انه ينتمي الى تركستان وهو المكان الذي ولد فيه ، هذا فضلاً عن أن لغته الاصلية هي اللغة الخوارزمية .

عاش البيروني حياة مضطربة تنقل خلالها بين جهات مختلفة من آسيا الوسطى في تركستان وافغانستان ويران والهند . غير أن تلك التنقلات لم تعقه عن القيام بنشاط علمي واسع النطاق . فقد تجاوزت مؤلفاته العشرات ، وشملت ميادين علمية متنوعة . وبالرغم من ان اسمه يتصدر اسماء الجغرافيين المسلمين ، الا أن مؤلفاته الهامة في الحقيقة كانت في العلوم الرياضية والفيزياء والفلك . وكانت اضافاته الرياضية والفلكية من الأهمية بحيث جعلت العلامة سارتون SARTON يطلق على العصر الذي عاش فيه اسم (عصر البيروني) .

أما كتابه الجغرافي الهام فهو المعنون بـ (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) والذي اشتهر باسم (كتاب الهند) . وقد لقي هذا الكتاب تقديراً عالياً من لدن المختصين ، فقد قال عنه المستشرق روزن ROSEN مثلاً انه أثر في بابيه لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أم في الشرق . ولقد ألف البيروني كتابه هذا بعد اقامة طويلة في الهند حيث صاحب السلطان محمود الغزنوي ، فتعلم السنسكريتية وقرأ المؤلفات الهندية وتبحر في ارجاء الهند وخرج بشروة

عظيمة من المشاهدات والملاحظات الشخصية . وقد أودع فيه نتيجة دراساته في تاريخ وإخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند ، إضافة إلى إبحائه في الجغرافية الطبيعية للهند حيث اشتملت تفصيلاته عنها على دراسة بنيتها الطبيعية وسهولها وجبالها ومناخها ومواصلاتها وتجارتها وزراعتها وثرواتها الحيوانية إلى آخر ما يتصل بها .

وقد عالج البيروني المواضيع الجغرافية والفلكية الأخرى في كتابين هامين آخرين هما « الآثار الباقية من القرون الخالية » و « القانون المسعودي » . واشتهرت على نحو الخصوص آراؤه في توزيع البحار واحاطتها بالأرض ، واعتقاده بأن المحيط الهندي يتصل بالمحيط الأطلسي في جنوبي القارة الأفريقية . كما اشتهر بمعلوماته الوافية عن أوروبا الشمالية وعن آسيا الشمالية والشرقية . كذلك اشتهرت آراؤه الفلكية ومحاولاته في قياس محيط الأرض ورأيه في حركاتها . وقد توفي في غزنة عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .

أبو حامد الغرناطي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الأندلسي . ولد في غرناطة سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م . وترعرع فيها ، غير أنه غادرها في صدر شبابه ، وظل يضرب في ربوع العالم القديم لسنوات طويلة . وهو يكاد يشبه في رغبته بالأسفار واتساع نطاق رحلاته الرحالة ابن بطوطة . وهو من بين القلائل الذين زاروا أقطاراً أوروبية متعددة وعاش فيها رداً من الزمن (لا سيما في المجر) . فلقد غادر الأندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م . وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وطاف بنواحي المغرب الأقصى ووصل إلى سبلماسة . ثم انتقل إلى تونس ثم غادرها بطريق البحر إلى الإسكندرية ونزل بسردينية . ومن الإسكندرية انتقل إلى القاهرة . وفي عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م . زار بغداد ومكث فيها أربعة أعوام . ثم سافر إلى إيران ، وعبر بحر قزوين حيث وصل إلى مصب نهر الفولجا . وفي هذه الفترة قام بثلاث رحلات إلى خوارزم . ثم سافر إلى هنغاريا (المجر) عام ٥٤٥ هـ / ١١٦٠ م . وأمضى فيها زمناً . وأقام في الأعوام الأخيرة من حياته في بغداد والموصل ودمشق . وقد دون أخبار رحلاته في كتابين هما (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب) و (المعرب عن بعض عجائب المغرب) . ويشتهر الغرناطي في كونه رائد الأدب العجائبي في الجغرافية العربية ، إذ أن مؤلفاته كانت مزيجاً من العلم والخرافة ، فقد تحدث عن العادات الاجتماعية والأحوال الاقتصادية للبلدان التي زارها ، إلا أنه أكد على العجائب والغرائب بدرجة

تنقل كتاباته في بعض الأحيان من محيط العلم إلى دائرة الخرافة . وأصبحت كتاباته مدرسة لها مقلدوها وهي المدرسة العجائبية كما انعكست في كتابات القزويني وابن الوردي والدمشقي وغيرهم . وقد توفي في دمشق عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م .

الادريسي

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى المشهور بالادريسي ، وتنسب أسرته إلى الشرفاء الأدارسة . ولد في مدينة سبتة في المغرب الأقصى في عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م . وأمضى طفولته في المغرب ، ثم انتقل في صباه إلى قرطبة وتلقى العلم في جامعتها ودرس هناك العلوم والرياضيات واهتم بدراسة التاريخ والجغرافية . وبدأ الادريسي أسفاره في سن مبكرة فقد طاف في الأندلس ، وسواحل أوروبا الغربية بما فيها سواحل بريطانيا وفرنسا وشبه جزيرة أيبيريا ، كما تجول ببلدان شمالي أفريقيا . وكان قد زار مصر وآسيا الصغرى من قبل أيضاً . ويعتبر الادريسي أول جغرافي عربي تنقل على نطاق واسع في القارة الأوروبية . وقد استدعاه الملك النورماندي روجر الثاني (الملك رجار) ملك صقلية ، فاستجاب لدعوته وأقام في صقلية ، وانصرف إلى تأليف كتاب جغرافي بناء على طلب روجر يصف فيه مملكته وسائر اصقاع العالم ويضع خارطة لاقطار الأرض . وقد انجز فيما بعد كتابه المعروف (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) أو ما سمي بـ (كتاب رجار) أو (الكتاب الرجاري) . كذلك انجز أيضاً صنع كرة من الفضة رسم عليها خارطة ، وقد بلغ وزن الكرة ٤٠ رطلاً من الفضة . وألحق كتابه المشار إليه بخرائط للاقطار بلغ عددها سبعين خارطة . وقد ألف فيما بعد أيضاً كتاب (روض الأنس ونزهة النفس) الذي عرف أيضاً باسم (كتاب المسالك والممالك) إلا أنه لم ينل من الشهرة ما ناله الكتاب السابق .

ويعتبر الادريسي أشهر جغرافي عربي عرفته أوروبا ، وظل كتابه وخرائطه معتمدة في الدراسات الجغرافية في الجامعات الأوروبية لفترة غير قصيرة . وقد لقبه بعض المستشرقين بـ (استرابون العرب) ، كما قال البارون دو سلان DE SLANE عن كتابه بأنه لا يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له . وقد تميز الكتاب عن غيره من الكتب الجغرافية العربية بمنهجه العلمي الدقيق ، حيث اعتمد الادريسي في كتابته على مشاهداته الشخصية وقراءاته في المراجع السابقة العربية منها واليونانية ، كما اعتمد أيضاً على ما أمده به من معلومات الرواد الذين بعث بهم الملك روجر إلى أنحاء أوروبا

لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها ، وعلى ما كان يسجله من احاديث الرحالة والتجار والحجاج المسافرين في السفن التي كانت ترسو في موانئ صقلية . واتبع في كتابه المذكور المنهج البطليموسي في تقسيم الارض المعمورة الى الاقاليم السبعة . وتحدث عن بلدان كل اقليم على حدة مع رسم خارطة لها . وقد انفرد الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية العربية السابقة بمعلوماته عن منابع نهر النيل وعن السودان الغربي وعن نهر النيجر ، كما انفرد ايضا بغزارة معلوماته عن القارة الاوروبية . وقد توفي الادريسي في مدينة سبته عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م .

الزهري

هو أبو عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري ، ولد في احدى مدن الاندلس ولعلها مدينة المرية ، وعاش في غرناطة في النصف الاول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، ويبدو انه قام بجولات واسعة في الاندلس كما تكشف عن ذلك كتاباته ، غير ان اهتماماته انصبحت على شرح (الخارطة المأمونية) .

وقد اشتهر بكتابه المعنون (كتاب الجغرافيا) ، ويبدو انه فهم الجغرافيا حسب منهج الجغرافيين الاوائل امثال الخوارزمي وانه مال في معلوماته الى المنهج العجائبي . وقد أوضح الزهري في مؤلفه انه قد اقتبس من الجغرافيين الاوائل المسلمين واليونانيين من امثال أرسطو والفزاري والمسعودي والرازي والعذري وغيرهم . ومن المعتقد انه توفي في أواسط القرن السادس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) .

ياقوت الحموي

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموي . ولد في بلاد الروم (الاناضول) في عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م . وقد أسر وهو صبي صغير وبيع لتاجر حموي كان يقطن بغداد ، ونسب اليه فصار يلقب بالحموي ، كذلك تسمى بـ (ياقوت) وهي من اسماء الارقاء . وقد تعهده سيده الجديد فادخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة ، وأتيح له بذلك ان يدرس الادب . غير انه انتفع في الواقع من سفراته الواسعة التي كان يقوم فيها لحساب سيده . فقد زار في بداية نشاطاته التجارية اطراف الخليج العربي وعمان والشام وقسطنطينية . وفي أثناء احدى تلك الرحلات علم بموت سيده الذي كان قد اعتقه وأوصى له بنصيب من تركته ، ففعل راجعاً الى بغداد واحترف مهنة استنساخ الكتب والاتجار بها مما افاده كثيراً في نشاطه العلمي . ثم لم يلبث ان واصل

مرة اخرى تجواله ابتداء من عام ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م . والذي استغرق ما يقرب من ستة عشر عاماً . وقد بدأه ماراً بتبريز والموصل في طريقه الى الشام ومصر أولاً ، وبعد ثلاثة اعوام عاد الى دمشق ، ثم غادرها الى حلب فأرسل ثم أورمية فتبريز ومنها الى ايران الشرقية . وامضى عامين في نيسابور ، ثم غادرها الى هراة وسرخس الى ان بلغ مرو . وقد أمضى في مرو مدة عامين يغترف من مناهل مكتباتها الشهيرة ، وفيها نبتت في رأسه فكرة تأليف معجمه الجغرافي . ولما سمع بتقدم جحافل المغول هرب عائداً الى الموصل ومرو في طريقه بالري وقزوين وتبريز . وقد استدعاه اليه فيما بعد وزير صاحب حلب ابن الفطحي ، حيث أتم هناك كتابه المعنون (معجم البلدان) في عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م . ولقد سجل في معجمه بترتيب أبجدي وصفا لكل ما استطاع جمعه من اسماء المدن والمواضع المختلفة ، اضافة الى وصف مفصل للممالك الاسلامية من الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند كما كانت عليه في القرن الثالث عشر الميلادي . وتقوم طريقته على مناقشة اسم الموضع لغوياً ثم يسوق التفاصيل عنه كدرجة عرضه وطوله والمؤثرات التنجيمية التي تهيمن على مقدرات الناس فيه ، كما يذكر عند الكلام عن منطقة واسعة خصائص طبيعتها ومواردها الطبيعية وعمرانها بالناس وأهم الاحداث التي شهدتها المكان . وقد وصف ياقوت معجمه في بداية مقدمته بقوله : « كتاب في اسماء البلدان والجبال والادوية والقيعان والقرى والمحال والاطوان والبحار والانهار والغدران والاصنام والابدان والاثان » . ويقع المعجم في ثلاثة آلاف وثمانمائة واربع وتسعين صفحة .

وقد تميز ياقوت بملكة نقدية عالية اذ لم يكن يورد الاخبار والمعلومات على علاقتها من دون تمحيص ، كما تميز معجمه بالاشارة الى مراجع كثيرة وعدد كبير من الجغرافيين الذين لم يتيسر لنا حتى الان العثور على مؤلفاتهم . ولياقوت مؤلفات اخرى ذات صفة ادبية . وقد توفي في حلب عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م .

ابن جبير

هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني البلسني . ولد عام ٥٤٠ هـ / ١١٣٥ م . في مدينة بلنسية ، ودرس الحديث والفقه والشعر والادب . واستوطن مدينة غرناطة وعمل كاتباً لحاكمها . وقد نبتت في رأسه فكرة تدوين مشاهداته منذ أن شرع بالتوجه الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج للمرة الاولى كفارة عن كؤوس خمر اضطر الى احتسابها بأمر من حاكم غرناطة . وقد بدأ رحلته في شباط

/ فبراير عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م . وسجل اثناءها خط سير رحلته تسجيلاً أميناً وواضحاً . فقد مر بسبته وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الاسكندرية ، ومنها ركب النيل الى القاهرة ، ثم غادرها الى صعيد مصر فوصل الى مرفأ عيذاب ، ومنه نزل الى جدة ، ثم صحب قافلة الى مكة حيث أقام فيها حوالي عام ونصف ، ثم مر بالمدينة في طريق عودته الى الكوفة ، وزار الحلة وبغداد وسامراء فالموصل فحلب ومنها الى دمشق التي أمضى فيها بضعة أشهر . ثم استقل سفينة مسيحية من عكا فنزل بصقلية . وفي نيسان / ابريل من عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م . وصل الى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين . وقد سجل اثناء رحلته هذه يوماً بيوم مشاهداته وانطباعاته عن المدن والبلدان والشعوب التي تعرف عليها ، مما جعل رحلته سجلاً أميناً للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لاقطار البحر المتوسط الاسلامية ، فضلاً عما تميزت به من وصف حي للمدن وعن اشارات تاريخية وطبوغرافية ومناخية . وقد ذاعت شهرة هذه « الرحلة » بين المتأدبين ، واقتبس منها العديد من الرحالة والمؤرخين . كذلك اعتبرت من قبل المستشرقين أفضل نموذج لادب الرحلات في الجغرافية العربية ، بل ان ابن جبير اعتبر الابداع الشعري لهذا النمط من الكتابة الادبية الجغرافية العربية . وبالرغم من ان عنوان « الرحلة » الاصلي هو « تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار » فقد اشتهرت باسم « رحلة ابن جبير » . وقد توفي ابن جبير في الاسكندرية في عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

عبد اللطيف البغدادي

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، وهو موصلبي الاصل ببغداد المولد . ولد في بغداد في عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م . ودرس على يد علمائها الادب والكيمياء والطب ، ثم أكمل دراسته على أيدي علماء الموصل ، ولم يلبث ان توجه الى دمشق ثم الى القدس ، ثم رحل الى مصر واقام فيها ردهاً طويلاً . وقد وصفه كراتشكوفسكي بانه كان جم المعرفة ضارباً في جميع فروع العلم بهمة ، كما كان عالماً دقيق الملاحظة ، فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذي يتوق الى المعرفة الايجابية مع ميل واضح الى التجربة العلمية . وقد زاول مهنة الطب ، كما اشتغل ببحائه في العلوم الطبيعية أيضاً . وظل يتنقل بين مصر ودمشق والقدس مشغلاً بالطب اضافة الى ابحاثه . واشتهر في ميدان البحث الجغرافي بكتابه المعنون (الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر) . وينقسم الكتاب الى قسمين :

يتناول القسم الاول دراسة جغرافية مصر النباتية والحيوانية والاقليمية ، مع الاهتمام بآثار مصر القديمة . وتظهر روح المقارنة والبحث العلمي واضحة في هذا الجزء . ويتناول القسم الثاني شرح نهر النيل ومنبعه وأثره على الحياة الاقتصادية . كما عني أيضاً بالتحدث عن السوء والقحط اللذين اجتاحا مصر عام ٥٩٧ هـ / ٥٩٨ هـ - ١٢٠٠ م / ١٢٠٢ م . وما رافقهما من نكبات ومآس . وقد توفي عبد اللطيف في بغداد عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م .

ابن سعيد

هو أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي . ولد في غرناطة عام ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م . وتلقى العلم في اشبيلية ، ثم تهيأ له ان يتنقل في ارجاء العالم الاسلامي على نطاق واسع . فزار شمال افريقيا ومصر والشام ، وأقام في الموصل وبغداد والبصرة . كما رحل الى حلب ودمشق ومكة . ويعتبر ابن سعيد من أخصب الكتاب انتاجاً في مختلف حقول الادب والتاريخ والجغرافيا . ومن جملة مؤلفاته (المشرق في حلى المشرق) و (المغرب في حلى المغرب) و (النفحة المكية في الرحلة المكية) و (كتاب جغرافيا الاقاليم السبعة) الذي نال به شهرته في ميدان الجغرافيا . ويعتقد بعض الباحثين ان ابن سعيد قد اعتمد على الادريسي اعتماداً كبيراً في مادته الأساسية وفي تبويبه . ومع ذلك فقد حفل كتابه بمعلومات طيبة عن اورب الغربى ، ولا سيما فرنسا وهنغاريا . كما اشتمل كتابه أيضاً على معلومات عن الصقالبة الغربيين سكان سواحل بحر البلطيق ، وعن الروس سكان سواحل بحر آزاك ونهر الدون ، وعن الشعوب القاطنة الى الشمال والشرق من جبال القوقاز كالبرطاس والقز والقومان والقبجاك . وقد توفي ابن سعيد في دمشق سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٧٤ م .

الهروي

هو أبو الحسن علي بن أبي بكر ، وقيل أبي طالب ، بن علي الهروي الموصلبي . ولد في الموصل وعاش في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) . وقد اشتهر بكثرة اسفاره حتى لقب بـ (السائح) . وكان هدف الهروي الاساسي دينياً ، وكان همه الاول زيارة أضرحة الاولياء والمقامات . وقد طاف في بلاد الشام والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وغيرها من جهات البحر المتوسط ، كما زار القسطنطينية أيضاً . وقد سجل مشاهداته وملاحظاته في (رحلته) التي اشتهرت بعنوان (الاشارات

الى معرفة الزيارات) ، والتي لم تكن معلوماتها الجغرافية ذات أهمية تذكر . وقد توفي في حلب عام ٦١١ هـ / ١٢١٥ م .

زكريا القزويني

هو جمال الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود الملقب بالقزويني نسبة الى البلدة التي ولد فيها (قزوين) في عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م . وهو ينحدر من أسرة عربية استوطنت ايران منذ عهد طويل . وقد رحل الى دمشق في صدر شبابه ودرس الفقه على أحد أئمة الصوفية ، ثم هاجر الى العراق وتولى منصب القضاء في واسط والحلة في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين .

وقد اشتهر القزويني بكتابه الجغرافين (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) و (أخبار البلاد وأثار العباد) . ويمثل القزويني في هذين المؤلفين الاتجاه الجديد الذي ساد الجغرافية العربية في أواخر عهدها وهو الذي سمي بالاتجاه العجائبي والذي كان أبو حامد الغرناطي رائده الحقيقي والقزويني خليفته الشرعي . ويمثل هذا الاتجاه بداية انحدار الجغرافيا العربية وتغلب الاسطورة فيها على العلم ، والتركيز على الظواهر الغريبة طبيعية أو حيوانية أو نباتية أو بشرية والتي تخرج عن حدود العلم والمنطق .

ويشتمل كتابه (عجائب المخلوقات) على قسمين : الاول ويكاد يكون فلكياً بحثاً يتعرض فيه لدراسة الكواكب السيارة والقمر والشمس والنجوم وسكان السماء والملائكة والنيازك والشهب . والثاني ويتناول فيه وصف الارض عامة وما يوجد على سطحها كالجو والماء (بحار وبحيرات وانهار وينابيع) واشكال سطحها كالجبال والمعادن والنبات والحيوان والانسان .

أما كتابه الثاني (أخبار البلاد) فقد تحدث فيه عن أقطار المعمورة بعد أن قسمها الى سبعة أقاليم حسب التقسيم البطليموسي . وقد تناول الحديث عن جميع الجوانب الطبيعية والاقتصادية والبشرية لتلك الاقاليم مركزاً على الجوانب البشرية ولا سيما الاخبار التاريخية . ويتميز الكتاب بأخباره عن الاقطار الاوروبية اضافة الى الاقطار الاسلامية . وقد اعتمد فيه على مراجع عديدة للجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين السابقين .

أبو الفدا

هو أبو الفدا الملك المؤيد (أو الصالح) عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود

ابن ايوب ، ويرتبط نسبه بالمظفر بن شاهنشاه ابن اخي صلاح الدين الايوبي . ولد في دمشق عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، وساهم في حروب عديدة ضد الصليبيين في صباه وشبابه . وكان آخر حياته نائباً لملك مصر الناصر محمد بن قلاوون على مدينة حماه . ولم تصرف أبا الفداء مهامه الادارية والسياسية عن الاشتغال بالبحث التاريخي والجغرافي الذي تمثل بكتابه المعروفين (المختصر في اخبار البشر) وهو كتاب في التاريخ ، و (تقويم البلدان) وهو كتاب في الجغرافيا . وقد نال كتابه الجغرافي شهرة واسعة في أوروبا . وقد قال عنه المستشرق الفرنسي رينو Reinaud أن العصور الوسطى الاوروبية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به .

ولقد أتم تأليف مسودة الكتاب في عام ١٣٢١ م ، واعتمد فيه على العديد من المراجع السابقة . ومع أنه نقل مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة ، الا ان ذلك لا يغض من قيمة كتابه اذ أنه أضاف الى المادة المنقولة الكثير من المعلومات الجديدة . هذا فضلاً عن تميزه بحس نقدي جيد في عرضه لمعلومات الآخرين . وقد توفي في سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

الدمشقي

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي المعروف باسم (شيخ الربوة) . وقد ولد في دمشق سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . وأمضى معظم حياته في مسقط رأسه دمشق اماماً بمسجد الربوة ، ولقب بالصوفي لميوله الصوفية . ولقد ألف عدة كتب اشتهر من بينها كتابه الجغرافي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) . ويقف هذا الكتاب على قدم المساواة في أهميته بين المصنفات الكوزموغرافية الاخرى التي تتمثل بكتابات الغرناطي والقزويني ، اذ انه حذا حذوهم في الاهتمام بغرائب الكون وفي الميل الى الخرافات . غير انه الى جانب ذلك عالج مواضيع علمية بدقة كبيرة . ويفضله كراتشكوفسكي في أهميته على كتاب ابي الفدا ويقول انه ذو أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعي لانه يحفل بمعطيات وافرة في النبات والحيوان والمعادن وطبقات الارض . أما الكاتب الهندي نفيس أحمد فيقول عنه بانه يحفل باسماء كثيرة لمواضع جديدة لم تذكر في كتب من تقدموه ، وانه يعتبر مصدراً هاماً في مجال معرفة العرب بالهند الجنوبية حيث يقدم أكبر قائمة من اسماء الاماكن بهذا الخصوص . ويعتبر الكتاب أيضاً مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافية وتاريخ الشام وفلسطين بما اشتمل عليه من معلومات وافية في هذا الميدان .

وقد توفي الدمشقي في مدينة صفد من أرض فلسطين في سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م .

ابن بطوطة

هو شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي . ولد في مدينة طنجة عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م . وشب في مسقط رأسه في محيط ديني حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره وتعلم شيئاً من علوم الدين والفقه . ولنا نعرف شيئاً عن أسرته وعن حياته في تلك الفترة إلا لمحات خاطفة . وما إن بلغ الثانية والعشرين من عمره حتى شد الرحال وظل يجوب أقطار الأرض ، ولم يعد إلى موطنه حتى أشرف على الخمسين . وقد زار خلال رحلاته معظم أجزاء العالم القديم المعروف - عدا القسم الأوروبي - مما حقق له تفوقاً على جميع رحالة القرون الوسطى ، ولا يكاد يدانيه في اتساع رحلاته سوى ماركو بولو MARCO POLO البندقي . وقد قدر ما قطعه في رحلاته بحوالى مائة وخمسة وسبعين ألف ميل . ولقد ساح في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . فزار نجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن . وطاف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام وأقطار المغرب العربي وساحل أفريقيا الشرقي ، وتجول في بلاد فارس والآناضول وأواسط آسيا وتركستان والخوض الأدنى لنهر الفولغا . وكاد يشد الرحال إلى شمالي سيبيريا لولا اعتقاده بقلة الجدوى في ذلك . ثم اتجه إلى أقطار الشرق الأقصى فأقام في بلاد الهند زمناً ، ثم تجول بين جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ومكث ما ينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية وزار سرنديد والملايو . ثم رحل إلى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولته حتى شماليها . ولما عاد إلى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ إلى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة إلى الأندلس . ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجهاً إلى السودان الغربي في مهمة رسمية ، ولبت يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين . واستقر به المقام أخيراً في عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان أبي عنان المريني . وقد أقام ابن بطوطة في بلاط السلطان أبي عنان ما يقرب من عشرين عاماً بعد عودته من رحلته الأفريقية ، وتولى قضاء مدينة تامسنا . وفي أثناء ذلك كان السلطان المريني قد أمر كاتبه ابن جزي بتدوين مشاهداته في كتاب ، وهو الذي حمل عنوان (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) والذي عرف باسم (رحلة ابن بطوطة) .

وقد لاقت رحلة ابن بطوطة الاهمال من قبل الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين اتوا من بعده لما اعتور بعض اجزائها من الشكوك . كما انها لاقت نفس الاهمال من المستشرقين الاوروبيين في بداية الامر ، الا ان الاهتمام بها أخذ يتزايد منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، حتى لقد حققت وترجمت وكتبت عنها الدراسات في معظم اللغات الاوروبية والشرقية . وقد توفي ابن بطوطة في عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م ، وقيل في عام ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .

ابن خلدون

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن المعروف بابن خلدون الاشيلي الحضرمي . ولد في تونس عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . وقد درس على أيدي علمائها ، ثم بدأ حياته القلقة في سن مبكرة حيث عمل كاتباً ووزيراً وأميناً وقاضياً لعدد من الامراء في الأندلس والمغرب ، كما عمل قاضياً في مصر والشام . غير أن هذه الحياة السياسية المضطربة لم تمنعه من مزاوله نشاطه العلمي الجم . ولقد اشتهر ابن خلدون بكتابه المعروف بـ (مقدمة ابن خلدون) ، وهي مقدمة كتبها لمؤلفه التاريخي المعلنون بـ (ديوان المبتدأ والخبر . . .) . ولقد نالت هذه (المقدمة) من الشهرة في الفكر الاوروبي ما لم ينله أي كتاب عربي آخر ، وترجمت إلى معظم اللغات الاوروبية ، وكتبت عنها وعن مؤلفها الدراسات المستفيضة . ولقد بوأته تلك (المقدمة) مركزاً سامياً في الدراسات الاجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية . أما ما يتعلق بجزئها الجغرافي فقد اشتملت عليه (المقدمة الثانية) التي وردت تحت عنوان (في قسط العمران من الارض والاشارة إلى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم) . وبلي المقدمة الثانية (تكملة لهذه الثانية) بعنوان (في أن الربع الشمالي من الارض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك) . وتليها (المقدمة الثالثة) بعنوان (في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم) . وتشتمل المقدمة الخامسة أيضاً على بعض المواضيع الجغرافية ، ولا سيما ما يتعلق منها بجغرافية الاستيطان ، وقد حملت عنوان (في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار في أبدان البشر واخلاقهم) .

ولقد تضمنت تلك المقدمات الاربعة مختلف أنماط المعرفة الجغرافية التي وردت في كتب السابقين . واعترف ابن خلدون في ثانيا كتابته بأنه استقى معلوماته من الجغرافيين

السابقين ، ولا سيما الادريسي وابن سعيد وياقوت ، كما انه رجع في بعض آرائه الى المؤلفات اليونانية والرومانية ، وخصوصاً مؤلفات بطليموس . ولا يعيب ذلك معلومات ابن خلدون الجغرافية لانه لم يكن فيها مجرد ناقل بل كان متفهماً ومدرکاً وواعياً للمفاهيم الجغرافية على اختلاف اشكالها . ومع ذلك فقد اشتملت على الكثير من الآراء التي باتت تعتبر اليوم من الأسس الهامة في الجغرافية البشرية عموماً والجغرافية السياسية وجغرافية المدن على نحو الخصوص . غير اننا لا يمكن على أية حال أن نعتبر ابن خلدون أحد أساطين الجغرافية العربية ، فهو لم يكن جغرافياً أساساً ، بل كان مؤرخاً ومفكراً قبل كل شيء . وقد توفي في القاهرة سنة ٧٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .

ابن ماجد

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن ابي الركايب النجدي . ولد بجلفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربي في امارة رأس الخيمة الحالية ، ويبدو ان تاريخ ولادته كان في مطلع الثلاثينات من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

ولم يشتهر ابن ماجد كجغرافي ، بل كبُحَّار من أعظم البحارة القدماء الذين عرفهم البحر العربي والمحيط الهندي . وقد تلقن ابن ماجد هذا الفن عن طريق ابيه الذي تلقاه بدوره عن جده . فأُسرت اذن قد اشتهرت بقيادة السفن . وقد لقب ابن ماجد في عهده بـ (ليث البحر) لبراعته في ركوب متن البحار .

وقد اشتهر ابن ماجد بكتابه المعنون (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) الذي اشتمل على معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهتم الملاحين في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي وبحر الصين والذي ربما كتبه في حدود عام ١٤٩٠ م . ويعتقد بعض المؤرخين انه ربما كان نفسه الملاح العربي الذي استعان به فاسكودي غاما DE GAMA عام ١٤٩٨ م . في اكتشاف الطريق البحري المؤدي من شرقي أفريقيا الى الهند .

المراجع

١ - المراجع العربية :

- ابن بطوطة ، شمس الدين أبو عبد الله
رحلة ابن بطوطة - منشورات المكتبة التجارية لمصطفى محمد بالقاهرة .
- ابن جبير أبو الحسن محمد
رحلة ابن جبير - منشورات دار التراث العربي ببيروت .
- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد
صورة الارض - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت .
- ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله
المسالك والممالك - منشورات مكتبة المثنى لقاسم رجب .
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر
الاعلاق النفيسة - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن
مقدمة ابن خلدون - منشورات المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة لمصطفى محمد .
- ابن خلكان
وفيات الاعيان - طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ (الجزء الاول) .
- ابن فضلان ، أحمد بن عباس
رحلة ابن فضلان - تحقيق الدكتور سامي الدهان . منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩ .

أبو سعد ، الدكتور أحمد
أدب الرحلات - منشورات دار الشرق الجديد ببيروت ١٩٦١ (سلسلة الفنون
الادبية عند العرب) .
أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل
تقويم البلدان - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة رينوودي سلان .
الأثري ، محمد بهجت
الجغرافيا عند المسلمين - مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني عام
٢٩٥٢ .
أحمد ، نفيس
جهود المسلمين في الجغرافيا - (سلسلة الالف كتاب) مطابع دار القلم بالقاهرة
(ترجمة فتحي عثمان) .
اخوان الصفا
رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء - منشورات المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها
مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٢٨ (الجزء الثاني) .
الادريسي ، أبو عبد الله محمد
كتاب وصف افريقيا الشمالية والصحراوية - منشورات معهد الدروس العليا
الاسلامية في الجزائر ١٩٥٧ .
وصف الهند وما يحاورها من البلاد - من كتاب نزهة المشتاق ، منشورات القسم
العربي للجامعة الاسلامية، عليكرة ١٩٥٤ .
الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم
المسالك والممالك - منشورات وزارة الثقافة القاهرة ١٩٦١ (حققه الدكتور محمد
جابر عبد العال الحيني) .
كتاب الاقاليم - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة باشراف ميلر .
البتاني ، ابو عبد الله محمد بن سنان
الزيج الصابي - روما ١٨٩٩ .
البكري ! أبو عبيد الله
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة لدي
سلان ١٩٥٧ .

بلاشير ، ر - درمون ، هـ .
منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى ، باريس ١٩٥٧ (الطبعة
الثانية) .
البيروني ، أبو الريحان محمد
القانون المسعودي - نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ، حيدر آباد
١٩٥٤ .
الجاحظ ، أبو عمرو
كتاب الحيوان - الجزء السادس ، بيروت ١٩٦٩ - الطبعة الثالثة - (تحقيق عبد
السلام هارون) .
حسن ، الدكتور زكي محمد
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى - دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٥ .
الحموي ، ياقوت
معجم البلدان - طبعة داري صادر - بيروت ، ١٩٥٥ (الجزء الاول) .
حميدة ، الدكتور عبد الرحمن
أعلام الجغرافيين العرب - دار الفكرة دمشق ١٩٦٩ .
حوراني ، جورج فضل
العرب والملاحة في المحيط الهندي - القاهرة ١٩٥٨ (ترجمة الدكتور السيد
يعقوب بكر) .
خصباك ، الدكتور شاكور
ابن بطوطة ورحلته ، النجف ١٩٧١ .
الخوارزمي ، محمد بن موسى
صورة الارض - نشر مكتبة المثنى عن طبعة لهانس فون مجيك .
الدمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة للمستشرق
مهرن .
الراوي ، حبيب
المصادر اللغوية الجغرافية عند العرب - مجلة الجمعية الجغرافية العراقية - المجلد
الثامن - حزيران ١٩٧٤ .

سهراب

عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة - نشر هانس فون مجيك ، فيينا
١٩٢٩ .

سوسة ، الدكتور أحمد

الشريف الادريسي في الجغرافية العربية (الباب الاول) ، منشورات نقابة
المهندسين العراقية ، بغداد ١٩٧٤ .

السيرافي ، أبو زيد

أخبار الصين والهند .

شريف ، الدكتور شريف محمد

تطور الفكر الجغرافي - (الجزء الاول) منشورات مكتبة الانجلو المصرية ،
القاهرة ١٩٦٩ .

شوكت ، الدكتور ابراهيم

خرائط جغرافية العرب الاول - مجلة «الاستاذ» . المجلد العاشر ، بغداد
١٩٦٢ .

تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به - مجلة «الاستاذ» ، المجلد التاسع ،
بغداد ١٩٦١ .

الاصططلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعته - مطبوعات المجمع العلمي
العراقي ، بغداد ١٩٧٠ .

صفي الدين ، الدكتور محمد

قشرة الارض - منشورات مكتبة مصر بالقاهرة .

الصياد ، الدكتور محمد محمود

من الوجهة الجغرافية - منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ .

ضيف ، الدكتور شوقي

الرحلات - (فنون الادب العربي) - دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٦ .

طوقان ، قدري حافظ

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) .

عبد الحكيم ، الدكتور محمد صبحي والليثي ، ماهر

علم الخرائط - مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

العمرى ، ابن فضل الله

مسالك الابصار في ممالك الامصار - منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة
١٩٢٤ .

غلاب ، الدكتور محمد السيد

البيئة والمجتمع - الاسكندرية ١٩٥٥ (الطبعة الاولى) .

الفاسي ، محمد (المحقق)

رحلة العبدري - منشورات جامعة محمد الخامس بمراكش الفندي ، الدكتور محمد
جمال الدين .

الغلاف الهوائي - القاهرة ١٩٦٤ .

فوزي ، الدكتور حسين

حديث السندباد القديم - لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٣ .

القزويني ، زكريا محمد

آثار البلاد واخبار العباد - منشورات دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ .

القلقشندي ، أبو العباس احمد

صبح الأعمش - منشورات دار الكتب الخديوية ، القاهرة ١٩١٤ (الجزء
الثالث) .

كراتشكوفسكي ، أغناطيوس

تأريخ الادب الجغرافي العربي (الجزء الاول) منشورات الجامعة العربية ،
القاهرة ١٩٦١ (ترجمة صلاح الدين هاشم) .

المسعودي ، أبو الحسن علي

أخبار الزمان - منشورات دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ (الطبعة الثانية) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر - منشورات المكتبة العصرية لصاحبها محمود

حلمي ، بغداد ١٩٢٨ (الجزء الاول) .

التنبه والاشراف - منشورات خياط ، بيروت ١٩٦٥ .

المقدسي ، أنيس

دائرة المعارف ، بيروت ١٩٥٨ .

ب - المراجع الاجنبية

- ALI, S. M.,
ARAB GEOGRAPHY, INSTITUTE OF ISLAMIC STUDIES,
ALIGRAH 1959 .
- AL — BIRUNI,
INDIA, EDITED IN THE ARABIC ORIGINAL BY E.
SACHAU, LEIPZIG 1925 .
- KIMBLE, GEORGE H. T.,
GEOGRAPHY IN THE MIDDLE AGES, LONDON, 1938 .
- GIBB, H. A. R.,
IBN BATTUTA TRAVELS IN ASIA AND AFRICA, ROUT-
LEDGE AND KEGAN, LONDON 1953 (3 RD IMPRESSION) .
- SARTON, G.,
INTRODUCTION TO THE HISTORY OF SCIENCE, BALTI-
MORE 1946 .
- RAIZ, ERWIN,
GENERAL CARTOGRAPHY, NEW YORK 1948 .

- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام
١٩٠٦ .
- مؤنس ، الدكتور حسين
تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس - مدريد ١٩٦٧ .
- ميلي ، ألدو
العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي - دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢
(ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) .
- نصار ، الدكتور حسين (المحقق)
رحلة ابن جبير - مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٥ .
- النويري ، شهاب الدين
نهاية الأرب - منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩ (السفر الاول) .
- المهروي ، أبو الحسن علي
الاشارات الى معرفة الزيارات - عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل طومسين ،
منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٣ .
- الهمداني ، ابن الفقيه
مختصر كتاب البلدان - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٨٨٥ .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد
صفة جزيرة العرب - طبع في مدينة ليدن عام ١٩٣٨ .
- وود ، الدكتور هـ .
الارتياض والكشف الجغرافي - منشورات دار المكتبة العصرية ببيروت ١٩٦٧
(ترجمة شاكر خصبك) .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب
كتاب البلدان - منشورات مكتبة المثنى لقاسم الرجب .

الفهرس

٥ مقدمة
	- الفصل الاول : في طبيعة الجغرافية العربية
٨ ١ - نشأة الجغرافيا العربية وتطورها
١٥ ٢ - الميادين التي طرقتها الجغرافية العربية
١٩ ٣ - أثر الجغرافية العربية في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط
	- الفصل الثاني : في الجغرافية الوصفية والاقليمية
٢٨ ١ - مفهوم الجغرافيين العرب والمسلمين لفكرة « الاقليم »
 ٢ - اضافات الجغرافيين العرب والمسلمين
٦٦ للمعرفة عن « الربع المعمور »
٩٩ ٣ - مميزات الكتابات الجغرافية الوصفية والاقليمية
	- الفصل الثالث : في الجغرافية الطبيعية
١٣٦ ١ - الحقل المناخي
١٤٦ ٢ - الحقل الهيدروغرافي
١٧٣ ٣ - الحقل الجيومورفولوجي
	- الفصل الرابع : في أدب الرحلات الجغرافي
١٨٤ ١ - رحلة ابن جبير
٢١٦ ٢ - رحلة ابن بطوطة
٢٢٧ ٣ - رحلة آخرون
	- الفصل الخامس : في الجغرافية الفلكية والرياضية
٢٣٨ ١ - مفاهيم الجغرافيين العرب والمسلمين عن الارض
 ٢ - آراء الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد
٢٤٧ مساحات ومواقع الارض
٢٥٨ ٣ - أهم الانجازات الفلكية للجغرافيين العرب والمسلمين
٢٧٤ ملحق
٢٩٧ المراجع

هذا الكتاب

لا ريب ان الجغرافيين العرب مقصرون في دراسة التراث الضخم الذي خلفه لنا الأجداد في ميدان الجغرافيا . ولا يقع هذا التقصير على عاتق الجغرافيين فحسب ، بل على عاتق بقية المختصين في الدراسات الانسانية الأخرى . غير اننا نحن الجغرافيين نتحمل العبء الأكبر . فالموضوع من اختصاصنا وقد آن الأوان لأن نؤليه قدراً أكبر من عنايتنا واهتمامنا .

ولعل مرجع هذا التقصير الى اعتقاد الكثيرين منا بأن الفكر الجغرافي العربي القديم ليس من اختصاصهم ، بل هو من اختصاص مؤرخي التاريخ الاسلامي . فالكثيرون من الجغرافيين العرب والمسلمين هم مؤرخون قبل أن يكونوا جغرافيين . ومع ان هذا القول صحيح الى حد ما ، الا أنه لا يعفي الجغرافيين من مسؤوليتهم ، فهم أولى من غيرهم في تقدير قيمة العلم الجغرافي العربي القديم ومدى اضافاته الى الفكر الجغرافي العالمي .

وقد تعزى لا مبالاة البعض منا الى اعتقاده بأن الجغرافيين العرب والمسلمين لم يساهموا مساهمة حقيقية في تطوير الفكر الجغرافي ، وكانوا وصافين أكثر منهم مبتكرين ، مما لا يتطلب بذل عناء خاص لدراسة آثارهم . ولسنا نريد بالطبع أن نخدع أنفسنا فنزعم بأن الجغرافيا العربية قد أتت بالعجب العجيب ، وأن الطابع العلمي المتقن هو صفتها المميزة ، فالحقيقة أنها قد اشتملت على الكثير من الأخطاء ونقاط الضعف والأساطير ، الا أن الدور الذي اضطلعت به في زمنها ، والانجازات التي استطاعت أن تحققها ، والآثار التي تركتها في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط ، كل ذلك يكسبها قيمة كبيرة في تاريخ الفكر العالمي حديثة بالتمحيص والدراسة .

دار الحديث للنشر

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب. ١٤٥٣٦ - تلخود ٨٣٣٩٨١ بيروت - لبنان

ICL SAM
GEOGRAPHIA ARABIA



2000001012099